

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الكتاب والسنة
الدراسات العليا

التوكل على الله في القرآن الكريم

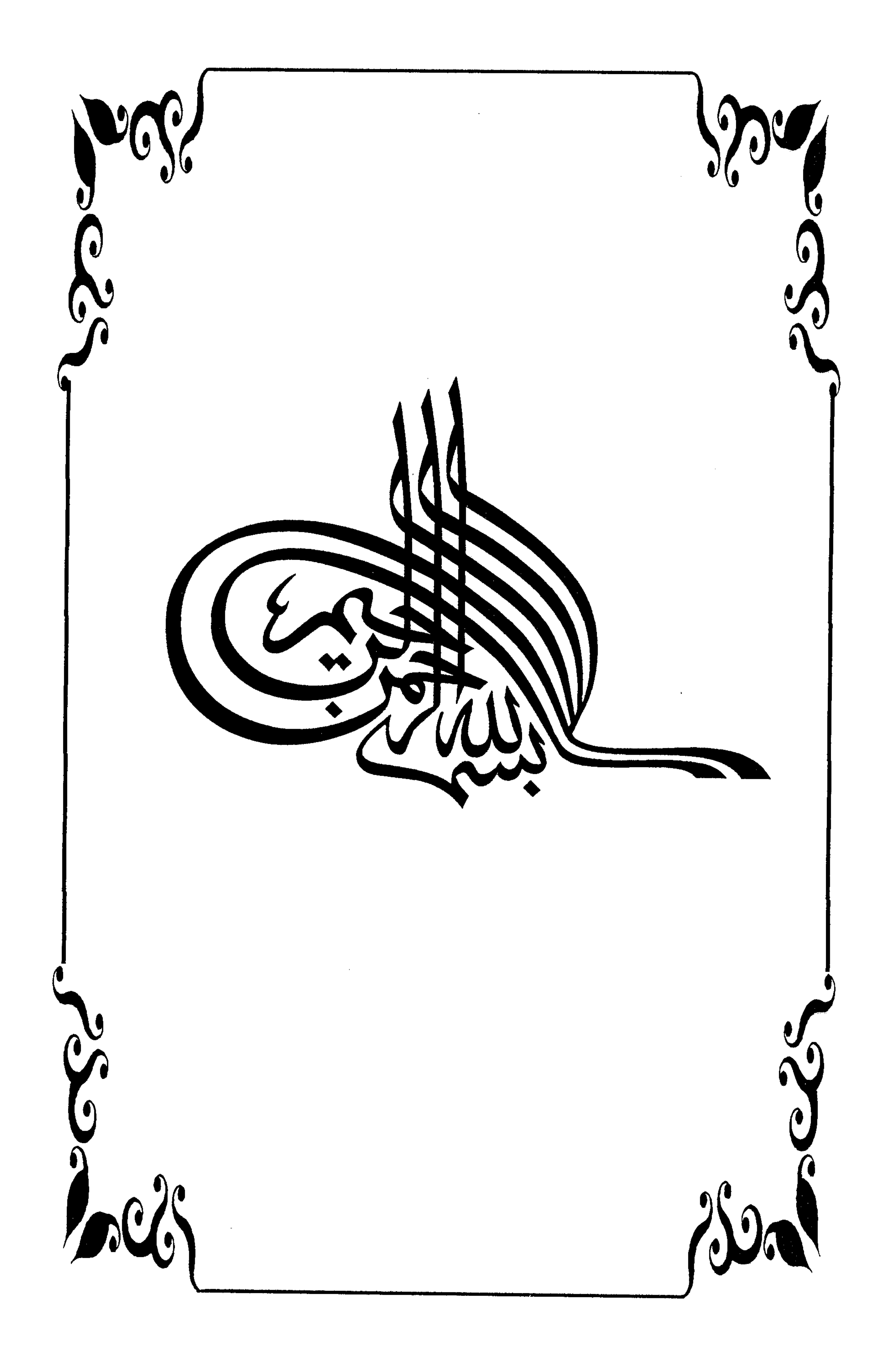
((دراسة في التفسير الموضوعي))

((رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير))

إعداد الطالبة
معتوقه بنت محمد حسن بن زيد بن حسان الحسباني

إشراف فضيلة الدكتور/
عبد الحميد عمر الأمين

العام الدراسي ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م


بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات الملخص

الحمد لله العظيم والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين ، وبعد :

فهذا بحث مقدم لنيل درجة الماجستير ، وهو بعنوان " التوكل على الله في القرآن الكريم دراسة في التفسير الموضوعي"، والهدف منه هو معرفة خلق من أخلاق القرآن الكريم ومدى أثره في العقيدة والنفس المؤمنة وارتباطه في كل عمل وعبادة دنيوية أو أخروية .

وتتكون الرسالة من مقدمة وتمهيد وفصول سبعة، وخاتمة، ففي المقدمة تحدثت عن أسباب اختيار الموضوع وأهميته وخطة البحث ومنهجية البحث .

وفي التمهيد ذكرت تعريف التوكل، والتواكل، وموارد التوكل في القرآن والسنة، وذكرت الفرق بين التوكل والتواكل، وذكرت أيضا فضل التوكل على الله وآثار التواكل السلبية على الفرد والمجتمع .

وبعد التمهيد تأتي الفصول السبعة، التي تضمنت :

الأول: تضمن الحديث عن التوكل على الله وعلاقته بالإيمان .

والثاني: تضمن الحديث عن التوكل على الله وعلاقته بالجانب الأخلاقي.

والثالث: تضمن الحديث عن التوكل على الله وعلاقته بالأسباب.

والرابع: تضمن الحديث عن بواعث التوكل على الله .

والخامس: تضمن الحديث عن موانع التوكل على الله .

والسادس: تضمن الحديث عن ثمرات التوكل على الله .

والسابع: تضمن الحديث عن التوكل على الله وأثره في تربية الفرد وبناء المجتمع، وفي جميع الفصول السابقة كانت هناك مباحث معنونة تفيد موضوع وعنوان الفصل .

أما الخاتمة فذكرت فيها النتائج التي توصلت إليها، ومنها :

١ - إن التوكل على الله خلق عظيم يجدر بنا الحفاظ عليه والتمسك به في كل مجال من مجالات حياتنا ويكون نبراس طريقنا للمضي في هذه الحياة الدنيا.

٢ - يتضح لنا من خلال هذا البحث أن التوكل على الله عقيدة وخلق في نفس الوقت للمؤمن .

٣ - التوكل على الله له فضل عظيم لمن التزم به وتأتي ثمراته عاجلا أو آجلا.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الطالبة	المشرف	عميد الكلية
معتوقه محمد حسن زيد حسان الحساني	د. عبدالحميد عمر الأمين	

الدراسات السابقة

الحمد الله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبعد :

فكمـا أن الـتوكل عـلى الله مـن الموضوعات المهمة في حياة المؤمن ؛كذلك فان من يتصدى للبحث العلمي بحاجة إلى من يعينه على مشاقه • وقد تناول موضوع التوكل على الله جماعة من المتقدمين والمتأخرين ، من هؤلاء من جعله بابا في كتاب ، ومنهم من جعله مؤلفا خاصا • ومن المتقدمين :

١ – الحافظ ابن أبي الدنيا وكتابه (التوكل على الله)

٢ – الحارث بن أسد المحاسبي وكتابه (المكاسب والرزق الحلال وحقيقة التوكل على الله)

٣ – الحافظ الإمام جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزى في كتابه (تلبيس إبليس)

٤ _ الحافظ المقدسي في كتابه (مختصر منهاج القاصدين)

٥ _ الإمام محمد أبو حامد الغزالى في كتابه (إحياء علوم الدين)

أمـا المؤلفـات الحديـثة التى تناولت الموضوع ، فمنها كتب و مقالات ، ودراسات علميه ومن هذه الأخيرة :

١ _ رسـالة دكتوراه للأستاذ سالم بن محمد القرني الأستاذ المشارك بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بكـلية الشريعة وأصول الدين بالجنوب، هي بعنوان (التوكل على الله حقيقته - مترلته - فضله - خصائصه - ثمراته)

٢ _ رسالة ماجستير للأستاذة منيرة محمد المطلق المعيده بكلية التربية بالرياض قسم الدراسات الأسلاميه والقرآنيه• هي بعنوان (التوكل على الله وعلاقته بالأسباب وموقف الطوائف الإسلامية من ذلك)

ومن المؤلفات :

١ _ كتاب (التوكل على الله) للدكتور عبدا لله بن عمر ا لدميجي عميد كلية الدعوة وأصول الدين بأم القرى •

٢ _ كتاب (التوكل على الله) للدكتور يوسف القرضاوي •

٣ _ كتاب (التوكل على الله وأثره في حياة المسلم) للدكتور عبد الله بن الجار الله •

والمتتـبع لتـلك الدراسات العلميه يجدها تتجه للجانب العقدي منها وإيراد للأحاديث التى جاءت في معنى الـتوكل أو عن التوكل ذاته• وأما بالنسبة للدراسةالتى قمت بها ، فقد اتجهت الى منحى آخر ألا وهو الاتجاه التفسيري الجديد لموضوعات القرآن الكريم الذي احتوى على :

أولا _ لـون جديد من التفسير للقرآن حسب الموضوعات التى اشتمل عليها ، وهو ليس تفسيرا بالمعنى الاصـطلاحي المـألوف ، بـل هـو جمع للآيات الواردة في الموضوع من مختلف سور القرآن ،ثم تصنيفها ، والاسـتنباط مـنها ، أو التعقيب عليها ، وقد عرفنا منها نموذجا في القديم يتمثل في كتاب (التبيان في أقسام

رآن)للإمام ابن القيم • وأرى والله أعلم أن هذا اللون من التفاسير القرآنية جد نافع ، وخاصة في عصرنا
لايغني عنه وجود التفاسير الكاملة للقرآن كله للقرآن على النسق المألوف ، فيصبح على القارئ لموضوعات
ران أن يجد الموضوع والآيات القرآنية كلها مجتمعة في مؤلف واحد ، مفسرة مبينة المعاني •

ثانيـــا - إن هـــذه الدراسة بهذا اللون الجديد تفسح المجال للدارسين في شتى التخصصات ؛ ليحاول كل
هم تجلية ما يتعلق باختصاصه من القران ، بصورة أعمق مما لو تناوله غيره •

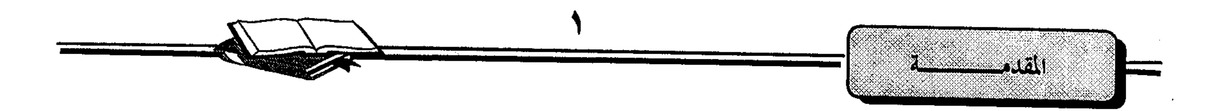
ثالـــثا - في هـــذه الدر اسه بيان لأعجاز القران الكريم ، يتمثل في معنى القران وسعة ما احتوى عليه من
ضوعات قيمة تعد بالمئات ، بل بالآلاف مع أنه كتاب محدود الصفحات •

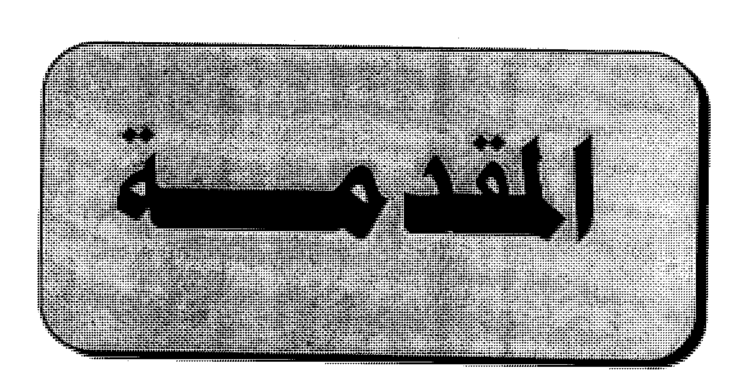
رابعـــا - في دراســـتي اعـــتماد كلي على كتب التفسير المعتمدة ، رواية ودراية ، بحيث يتم نقل كلام
مفسرين في كل آية وردت عن التوكل على الله ثم ربط تلك المعاني التفسيرية فيما بينها ليحصل التناسق وهذا
انفردت به دراستي •

خامسا - في دراستي ذكر لمفردات المعاني المرادفة للتوكل وهذا أيضا انفردت به الدراسة •

سادسا - انفردت دراستي بذكر الآثار السلبية للتواكل •

ســـابعا - كذلـــك انفـــردت دراســـتي بذكر الآثار المترتبة على التوكل على الله في بناء الفرد والمجتمع
صلاحهما •





المقدمة

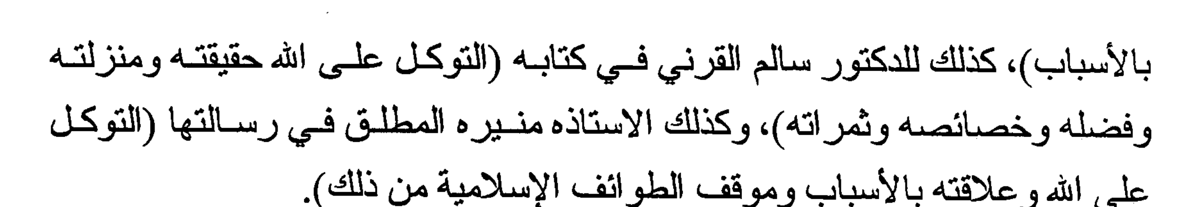
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد :

فقد يسر الله تعالى لي الالتحاق بقسم الكتاب والسنة بكلية الدعوة وأصول الدين بمكة المكرمة دراسات عليا لمرحلة الماجستير، ولما كان لابد لكل طالبة بهذا القسم من اختيار موضوع معين للحصول على درجة الماجستير انشرح صدري لاختيار موضوع من موضوعات القرآن، فالقرآن الكريم هو أصل الدين ومنبع الصراط المستقيم، وهو أجل الكتب وخاتمها، فقد أودع فيه – سبحانه – علم كل شيء، فهو أصل العلوم، منه تستمد، وعليه فيها يعتمد.

لذا فقد اهتم علماء الإسلام –رحمهم الله- بالقرآن العظيم، واعتنوا به فمنهم من ألف في تفسيره، ومنهم من ألف في رسمه وقراءاته، ومنهم من ألف في ناسخه ومنسوخه، ومنهم من ألف في أسباب نزوله، ومنهم من ألف في استنباط الأحكام منه، ومنهم من ألف في أمثاله، ... إلى غير ذلك من العلوم الكثيرة، ولم يتركوا جانبا من علومه إلا تناولوه بالبحث والدراسة ففتح الله لهم من أسرار هذا الكتاب العظيم علوما جمة، ومن هذه العلوم اللون الجديد من تفسير القرآن الكريم موضوعيا، والذي ينتقل الآن في مدارج التكوين، ليأخذ طورا جديدا في وجهته، وطريقة عرضه وبحثه، وفي نوعية الموضوعات التي يثيرها ويستخرجها من القرآن الكريم، وفي الغاية التي يستهدفها، حتى يصبح فنا من فنون التفسير القرآني متميزا عن غيره ليجلي عظمة القرآن ويبرز وجه من وجوه إعجازه وعلى هذا الأساس اخترت موضوع " التوكل على الله في القرآن الكريم دراسة في التفسير الموضوعي" فقد سبق وأن تكلم فيه من المتأخرين والمتقدمين ومن الدراسات الحديثة في هذا الموضوع كتاب عبدالله الدميجي (التوكل على الله وعلاقته



بالأسباب)، كذلك للدكتور سالم القرني في كتابه (التوكل على الله حقيقته ومنزلته وفضله وخصائصه وثمراته)، وكذلك الاستاذه منيره المطلق في رسالتها (التوكل على الله وعلاقته بالأسباب وموقف الطوائف الإسلامية من ذلك).

وقد قمت بعمل دراسة مقارنة للثلاث المواضيع وبين موضوعي (التوكل على الله في القرآن الكريم دراسة في التفسير الموضوعي) حيث أنني وضحت فيه طريقة منهجية المختلفة عنهم، فإن المتتبع للكتب الثلاثة يشعر بالناحية العقدية، أمَّا عن دراستي فقد أخذت الجانب التفسيري منها، وعلى هذا الأساس وافق عميد كلية الدعوة وأصول الدين على الموضوع .

ومما تجدر الإشارة إليه أن هناك أموراً عدة دفعتني لاختيار هذا الموضوع وهي باختصار :

١- ما كان من حث وتحفيز من قبل أستاذ التفسير وعلوم القرآن بالقسم سابقاً/ عبدالستار فتح الله سعيد.

٢- إعجابي الشديد وحبي لمادة التفسير وعلوم القرآن منذ مرحلة البكالوريوس.

٣- افتقار المكتبات الإسلامية إلى موضوعات القرآن بالمقارنة لمواضيع السنة المطهرة.

٤- وفرة مصادر ومراجع مادة التفسير .

أما خطة البحث فيمكن عرضها بإيجاز في الآتي :

قد اقتضى وضع البحث تقسيمه الى مقدمة وتمهيد وفصول سبعة رئيسة :

أولاً: المقدمة وتتضمن :

أ- أسباب اختيار الموضوع .

ب. خطة البحث .

ج- منهج البحث .

ثانياً: التمهيد ، وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : تعريف التوكل والتواكل لغة واصطلاحا.



المطلب الثاني: موارد التوكل في القرآن والسنة وبيان المراد والمقصود منه.

المطلب الثالث: الفرق بين التوكل والتواكل .

المطلب الرابع: فضل التوكل على الله .

المطلب الخامس: آثار التواكل السلبية على الفرد والمجتمع .

ثالثاً : الفصل الأول : التوكل على الله وعلاقته بالإيمان بالله ، وفيه :

التمهيد وثلاثة مباحث :

المبحث الأول: التوكل على الله جزء من عقيدة المؤمن .

المبحث الثاني: التوكل على الله من أعمال القلوب.

المبحث الثالث: أحوال المتوكلين.

- الفصل الثاني: التوكل على الله وعلاقته بالجانب الأخلاقي، وفيه :

تمهيد ومبحثان :

المبحث الأول: التوكل على الله من أخلاق الأنبياء.

المبحث الثاني: التوكل على الله من أخلاق المؤمنين.

- الفصل الثالث: التوكل على الله وعلاقته بالأسباب، وفيه:

تمهيد وخمسة مباحث :

المبحث الأول: أركان التوكل على الله .

المبحث الثاني: التوكل على الله من أسباب النصر.

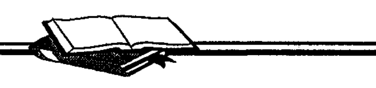
المبحث الثالث: القدرة والمشيئة والأسباب .

المبحث الرابع: الأعمال التي يعملها العباد في تحقيق التوكل.

المبحث الخامس: مجال التوكل على الله .

- الفصل الرابع: بواعث التوكل على الله، وفيه :

تمهيد وأربعة مباحث :



المبحث التاسع: يورث الرزق ويجلب المنافع ويدفع المضار .

المبحث العاشر: الدخول في كنف وكفاية الله .

المبحث الحادي عشر: الفوز والغلبة .

المبحث الثاني عشر : التسليم بالقضاء والقدر .

- الفصل السابع : التوكل على الله وأثره في تزكية الفرد والمجتمع، وفيه:

تمهيد ومبحثان :

المبحث الأول: أثر التوكل على الله في تزكية الفرد .

المبحث الثاني: أثر التوكل على الله في تزكية المجتمع .

أما منهج البحث فهو كالآتي :

١- قمت أولا بجمع الآيات القرآنية التي فيها لفظ التوكل ومشتقاته، ثم صنفتها وقسمتها إلى عناصر.

٢- وضعت كل آية في مواضعها من العناصر وإن تكررت .

٣- قمت بتفسير الآيات من كتب التفسير المعتمدة بلا تكلف، وضم المعاني المتصلة بالموضوع والعنصر اتصالا وثيقا.

٤- استشهدت بالأحاديث النبوية إن أمكن لكل عنصر من عناصر الرسالة وأحيانا قد يتكرر الحديث في أكثر من عنصر بحسب الحاجة للاستشهاد به.

٥- قمت بعمل تمهيد لكل فصل من الفصول أبين فيه مجمل مباحث الفصل.

٦- قمت بعزو الآيات إلى سورها مع ذكر رقم الآية .

٧- قمت بتخريج الأحاديث من الكتب الميسرة لدي، والمعتمدة فإن كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما اكتفيت بذلك في تخريجه، وإن كان من غيرهما بحثت عنه وذكرت تعليقات العلماء عليه إن كان لهم عليه تعليق وإن تكرر الحديث أحلت على ما ذكرت أولا، ولم أشترط على نفسي تخريج ودراسة الأسانيد للحديث فرحم الله امرأ عرف قدر نفسه .

٨- قمت بترجمة الأعلام الذين ورد ذكرهم في الرسالة واستثنيت من الصحابة الخلفاء الأربعة والمشاهير – رضي الله عنهم-.

٩- وبالنسبة للأعلام اكتفيت بذكر اسم العلم ولقبه أو كنيته وتاريخ ولادته ووفاته إن وجد في المصادر وبعض أعماله.

١٠- ختمت البحث بخاتمة عرضت فيها نتائج البحث .

١١- قمت بعمل فهارس للآيات القرآنية وبيان مواضعها مرتبة حسب ترتيبها في القرآن، وكذلك فهرست الأحاديث وبيان مواضعها بحسب ترتيبها الأبجدي، أما فهارس الأعلام فهي مرتبة حسب الترتيب الأبجدي للاسم الأول منها ثم فهرست للمصادر والمراجع مرتبة حسب الترتيب الأبجدي، وفهرست أخيرا الموضوعات التي تضمنتها الرسالة .

إن ديننا الإسلامي الحنيف دين عقيدة وأخلاق شريعة ومعاملة، فقد أمر الحق تبارك وتعالى عباده بالشكر حيث قال: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴾[٣].

وعلمنا رسولنا الهادي أنه: (**من لايشكر الناس لايشكر الله**)[٤].

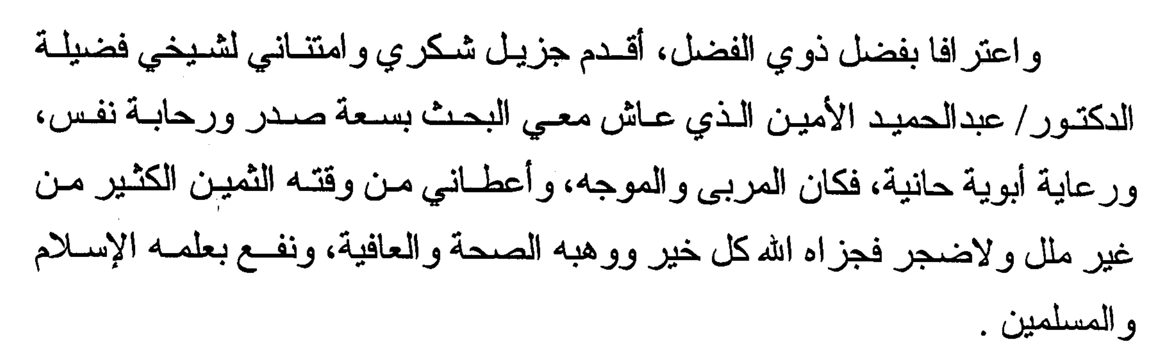
---

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٢ .

(٢) سورة سبأ، الآية ١٣ .

(٣) سورة لقمان، الآية ١٢.

(٤) أخرجه أبوداود في سننه، كتاب الأدب، باب في شكر المعروف، ٢٥٥/٤؛ كما أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ماجاء في الشكر لمن أحسن إليك، وقال هذا حديث حسن صحيح،واللفظ له،٣٣٩/٤؛ والإمام أحمد في مسنده من حديث أبي هريرة،٢٥٨/٢.



واعترافا بفضل ذوي الفضل، أقـدم جزيـل شـكري وامتنـاني لشـيخي فضيلـة الدكتـور/ عبدالحميـد الأميـن الـذي عـاش معـي البحـث بسـعة صـدر ورحابـة نفـس، ورعاية أبوية حانية، فكان المربى والموجه، وأعطـاني مـن وقتـه الثميـن الكثـير مـن غير ملل ولاضجر فجزاه الله كل خير ووهبه الصحة والعافية، ونفـع بعلمـه الإسـلام والمسلمين .

وأقدم شكري إلى والديَّ اللذين غرسـا فـيَّ حـب العلـم والجـد والاجتـهاد ولـم يبخلا على بشيء من العطاء، فرحم الله والدي رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته مـع الصديقيـن والشـهداء والأخيـار والأبـرار، وأطـال الله بقـاء والدتـي الحبيبـة ومتعـــها بالصحة والعافية.

كما أتقدم بالشكر، والامتنان، وفـائق الاحـترام إلـى زوجـي الكريـم، صـاحب الفضل أيضاً في تكميل مسيرتي التعليمية فقد بث فيّ العزيمة على مواصلة الطريق، - حفظه الله تعالى -.

كما أتقدم بجزيـل الشـكر لاخوتـي وأخواتـي وأبنـاءهم الكـرام الذيـن مـدوا يـد العون والمساعدة لي فأحسن الله إليهم وجزاهم خير الجزاء .

كما أزجي شكري وتقديري لكل من مد يد المساعدة من قريب أو بعيـد سـواءً كان بمشورة أو إعارة كتاب، أو دعا لي دعوة، أو بذل لي جهده في النصح والإرشاد وللقائمين على خدمـة العلـم وطلابـه بجامعـة أم القـرى –وفقـهم الله وسـدد خطـاهم-، سائلة المولى القدير أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم إنـه سـميع قريـب، وصلـى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

التمهيد

المطلب الأول : تعريف التوكل والتواكل لغة واصطلاحا :

أ- **التوكل في اللغة**: إظهار العجز والاعتماد على الغير[١].

والوكيل فعيل بمعنى مفعول: الذي يقوم بأمر موكله، وسُمِّيَ وَكيلاً لأن موكله به قد وكل إليه القيام بأمره، فهو موكول إليه الأمر[٢].

"والوَكيلُ" في أسماء الله هو القيم الكفيل بأرزاق العباد، وحقيقته أنه يستقل بأمر المَوكُولِ إليه[٣].

وربما فسر الوَكِيلُ بالكَفِيل، والوَكِيلُ أعم لأن كُلَّ كَفِيلٍ وكِيلٌ، وليس كل وكِيلٍ كفيلاً[٤].

فالاسم من توكل: التُكلان -بضم التاء-: يقال اتكل على فلان في أمره إذا اعتمده[٥]، واتكلت على فلان في أمري إذا اعتمدته[٦].

وَوَكَلَ بالله، وَتَوَكَّلَ عليه، واتكل : استسلم إليه[٧].

---

(١) محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، (بيروت، دار الفكر، ص٧٣٤؛ مجدالدين محمد ابن يعقوب الفيروزأبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، (تط الثالثة ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، مؤسسة الرسالة) ص١٣٨١.

(٢) أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق: عبدالسلام هارون، (ط ١٣٨٤هـ، الدار المصرية للتأليف والنشر)، (٣٧١/١٠).

(٣) أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ، النهاية في غريب الحديث والأثر ، تحقيق: طاهر الزاوي ، ومحمود الطناحي ، (تط ١٣٨٣هـ، المكتبة الإسلامية)، (٢٢١/٥) مادة وكل،

(٤) الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، (دار الفكر بدون تط) ص٥٦٩.

(٥) محمد بن أبي بكر الرازي، المصدر السابق، ص٧٣٤.

(٦) أبي الفضل جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، (تط الثالثة ١٤١٤هـ، بيروت، دار صادر)، (٧٣٦/١١).

(٧) المصدر نفسه، (٧٣٤/١١).

ووَكَلَ بالله يَكِلُ وتَوَكّلَ على الله وأَوْكَلَ واتَّكَلَ: استسلم إليه، ووَكَلَ إليه الأمر وكْلاً ووُكُولاً: سلمه وتركه، ورجَلٌ وَكَلٌ، محرَّكة، ووُكَلَةٌ وتُكَلَةٌ كهُمَزَةٍ[(١)].

والمتوكل على الله: الذي يعلم أن الله كافل رزقه وأمره، فيركن إليه وحده ولايتوكل على غيره[(٢)].

ب – التوكل في الاصطلاح :

عرف التوكل على الله بتعاريف عديدة منها .

عرفه الإمام أحمد[(٣)] بقوله " التوكل: عمل القلب"[(٤)].

وعرفه الإمام ابن القيم[(٥)] بأنه "تسليم الأمر إلى من هو بيده، والاعتماد على قيامه بالأمر والاستغناء بفعله عن فعلك"[(٦)]، وعرفه كذلك بالاستعانة .

وعرفه سهل التستري[(٧)] بأنه "الاسترسال مع الله تعالى على مايريد"[(٨)].

---

(١) الأصفهاني، المصدر السابق، ٥٦٩.

(٢) ابن منظور، المصدر السابق، (٧٣٤/١١).

(٣) هو الإمام أحمد أبوعبدالله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، ولد سنة ١٦٤هـ، توفي ٢٤١هـ. انظر: لابن كثير، البداية والنهاية (٣٢٥/١٠)؛ ولابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٩٦/٢).

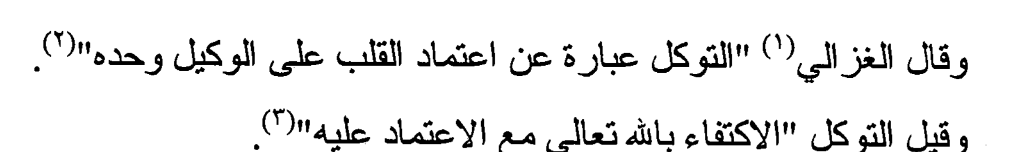
(٤) ابن القيم، مدارج السالكين من منازل إياك نعبد وإياك نستعين (بيروت، دار الكتب العلمية، تط ١٤٠٨هـ)، (٢ /١١٤).

(٥) هو شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، ولد سنة ٦٩١هـ، توفي سنة ٧٥١هـ. انظر: لابن رجب الحنبلي، ذيل طبقات الحنابلة، (٤٤٧/٢) ترجمة ٤٥٢.

(٦) المصدر السابق، (٢ /١٢٦) .

(٧) هو سهل بن عبدالله بن يونس التستري، أحد أئمة الصوفية وعلمائها ومتكلميها، ولد عام ٢٠٠هـ وتوفي ٢٨٣هـ.
انظر: محمد السلمي، طبقات الصوفية، (مصر: مطبعة دار التأليف بدون ت) ص٢٠٦.
وانظر: الزركلي، الأعلام، (بيروت، دار العلم للملايين)، (١٤٣/٣).

(٨) صحيح مسلم بشرح النووي (القاهرة: دار الريان للتراث، تط ١٤٠٧هـ) (٩٢/٣).



وقال الغزالي[(١)] "التوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده"[(٢)].

وقيل التوكل "الاكتفاء بالله تعالى مع الاعتماد عليه"[(٣)].

وقيل التوكل "وثوقك بالمضمون واستبدالك الحركة بالسكون"[(٤)].

وقيل هو طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية فإن أعطى شكر، وإن منع صبر.

وقال أبو سعيد الخراز[(٥)] : هو اضطراب بلا سكون ، وسكون بلا اضطراب"[(٦)].

وبهذا يكون التعريف فيما اطلعت عليه هو ما قاله ابن رجب الحنبلي[(٧)]: "هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة، وكلت الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه"[(٨)].

---

(١) هو: محمد أبوحامد الطوسي الغزالي، ولد سنة ٤٥٠هـ، توفي سنة ٥٠٥هـ، من كبار فقهاء الشافعية.
انظر: لابن كثير، البداية والنهاية (١٢/١٧٣)؛ ولابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، (٣/٢٥٣).

(٢) إحياء علوم الدين (القاهرة: دار الشعب، كتاب الشعب)، (٤/٢٤٠) .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، (٣/٩٢).

(٤) محمد بن علان الأشعري المالكي، دليل الفالحين شرح رياض الصالحين (مصر: مطابع مكتبة الحلبي)، (١/٢٥٦) .

(٥) هو: أحمد بن عيسى البغدادي، توفي سنة ٢٨٦هـ.
انظر: للسلمي، طبقات الصوفية، ص٢٢٨، ٢٣٢.

(٦) ابن القيم، مدارج السالكين، (٢/١١٥).

(٧) هو : زين الدين أبي الفرج عبدالرحمن الحنبلي، توفي سنة ٧٩٥هـ . انظر: ذيل طبقات الحنابلة، (١/١).

(٨) ابن رجب الحنبلي ، جامع العلوم والحكم ، (عمان : مكتبة الرسالة الحديثة) ، ص٤٠٩.

وهنـاك تعريـف آخـر جـامع هـو: "الثقـة بمـا عنـد الله واليـأس بمـا فـي أيـدي النـاس"[١].

ولعل أصح التعاريف هو أنه "معنــى يلتئـم مـن علـم العبـد بكفايـة الله وحسـن اختياره لعبده وثقته به ورضاه بما يفعله ويختاره له"[٢]. أو : "هو حال للقلـوب ينشـأ عن معرفته بالله، والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير، والضر والنفع، والعطـاء والمنـع، وأنه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن، فيوجب له اعتمادا عليـه وتفويضـا إليـه وطمأنينـة به وثقة به، ويقينا بكفايته لما توكل عليه فيه"[٣].

وهكذا نرى أن التعريفات في ظاهرها الاختلاف وذلك لأن :

- أحوال وأعمال القلوب يصعب إنضباطها بحـد وحصرهـا بألفـاظ لذلـك قـال الغزالي[٤] عن التوكل "... غامض من حيث المعنى. شاق من حيث العمل"[٥].
- أنهم لم يقصدوا بهذه التعريفات حقيقة التعريف الإصطلاحية وإنما قصـــدوا بيـان أهمية هذه الخصلة أو مراعاة ظروف القائل أو المستمع .
- ولذلك جاءت تفسيراتهم وكأن في ظاهرها شـيئا مـن التغـاير والإختـلاف وهـي في حقيقتها أجزاء من المعنى الكلي للتوكل أو من لوازمه وآثاره .

ج – تعريف التواكل لغة :

يقال رجل وَكَلَ بالتحريك ووكله مثل همزه وتكلة على البدل، ومواكِلٌ عـاجز كثير الاتكال على غيره .

---

(١) الجرجاني، التعريفات، (بيروت: دار الكتب العلمية، تط ١٤٠٣هـ)، ص٧٤ .

(٢) ابن القيم، الفوائد، تخريج وحواشي أحمد راتب عرموش، (تط ١٤٠٦هــــ، بـيروت، دار النفائس)، ص٩٢.

(٣) ابن القيم، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد الفقـــي، (تــط الثانية ١٣٩٣هـ)، (٨٢/١) بتصرف؛ وانظر لأحمد المقريزي، تجريــد التوحيــد (مكتبــة السلام العالمية) ص٢٨.

(٤) سبقت ترجمته، ص ١٠ .

(٥) الإمام الغزالي، كتاب التوحيد والتوكل، تهذيب وتعليق زهير الكبي، دار الفكر العربي، (تــط ١٩٩١م)، ص ١٠ .

يقال وَكَلَهُ أي عاجز بكل أمره إلى غيره ويتكل عليه .

ووكل فلان فلانا إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته أو عجزا عن القيام بأمر نفسه.

والوَكَلُ والوُكِلُ : البليد الجبان، وقيل العاجز الذي يكمل أمره إلى غيره، ويقال اتكل عليك فلان وأوكل عليك فلان بمعنى واحد.

ورجل وَكَلَهَ إذا كان يكل أمره إلى الناس .

وواكلت فلانا مواكله إذا اتكلت عليه واتكل هو عليك، وتواكل القوم مواكله ووكالا: اتكل بعضهم على بعض .

ويقال رجل وُكَلَةَ إذا كثر منه الاتكال على غيره منهي عنه لما فيه من التنافر والتقاطع[١].

وبهذا فإن التواكل لايقره الإسلام ولايرضاه لما فيه من الإهمال وعدم البذل والاتكال على الغير .

د ـ وتعريف التواكل اصطلاحا:

هو ترك الأسباب وعدم بذلها والعجز عنها، وهذا المعنى مأخوذ من حديث رسول الله لمعاذ بن جبل -رضي الله عنه- حين قال له " **يامعاذ، أتدري ماحق الله على العباد وماحق العباد على الله؟" قال معاذ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: "فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولايشركوا به شيئا، وحق العباد على الله عز وجل ألا يعذب من لايشرك به شيئا". قال: قلت: يارسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال "لاتبشرهم فيتكلوا"**[٢]، وهنا يضع الرسول ﷺ أصلا ثابتا هو أن كل مايؤدي إلى ترك العمل أو مايكون مظنة للاتكال أو التواكل ليس من التوكل في شيء.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، (١١/٧٣٤، ٧٣٥، ٧٣٦).

(٢) مسلم، (١/٥٩) (٣٠)، كتاب الإيمان.

المطلب الثاني : موارد التوكل في القرآن والسنة وبيان المراد والمقصود منه:

إن القرآن الكريم فيه من علم الوجوه والنظائر الكثير فهو علم يبحث في بعض ألفاظ القرآن الكريم ويوضح ماورد في اكثر من آية، وكانت دلالته على معناه في واحد منها غير معناه في الآية الأخرى التي ورد فيها[1].

فلقد ورد لفظ التوكل على الله تعالى في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وبأساليب مختلفة من أمر به وثناء على أهله وحسن عاقبتهم ومعونة الله للمؤمنين، وغير ذلك من أساليب.

لهذا العلم أهميته في التفسير والتعبير عن المعنى الواحد بأساليب متعددة وألفاظ مختلفة حسب مايقتضيه الحال، والقرآن هو النواة الأولى للعلوم الشرعية فهو فسيح المجال للنظر والفكر الواسع في رياضه الفسيحة وماهذا إلا من بلاغة القرآن وفصاحته وبيانه المعجز .

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾[2].

ففي الآيتين الأمر محمول على الوجوب في التوكل على الله وحده وجعله شرطا للإيمان، فالآيتين وإن كانت أمر في التوكل على الله تعالى فقد تضمنت كذلك معنى الثناء على المتوكلين وحسن عاقبتهم من وعد الله تعالى بنصرهم ورضا الله

---

(١) انظر: للسيوطي بتصرف، الاتقان في علوم القرآن، قدم له وعلق عليه محمد شريف سكر وراجعه مصطفي القصاص (بيروت:دارإحياءالعلوم،ط الثالثة ١٤١٦هـ) (١/٣٨١)؛ انظر للزركشي بتصرف، البرهان في علوم القرآن، (بيروت: دار الفكر، ط الثالثة)، (١/١٠٢).

(٢) سورة آل عمران، آية ١٥٩-١٦٠.

تعالى عليهم بمحبته سبحانه ومن أحبه الله عصمه الله[١].

كذلك ورد التوكل بألفاظ أخرى منها على سبيل الاقتصار:

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾[٥].

ففي معرض الحديث عن التوكل نجد أنه لفظ قرآني له ألفاظ ترادفه منها :

---

(١) انظر: لمحمد بن أحمد الكلبي بتصرف، التسهيل في علوم التنزيل، (بيروت، دار الكتاب العربي، تط الرابعة ١٤٠٣هـ) ص١٢٢؛ وانظر: لمحمد رشيد رضا بتصرف، تفسير المنار (بيروت: دار الفكر، الطبعة الثانية)، (٤/٢٠٥).

(٢) سورة المائدة، آية ٢٣.

(٣) سورة آل عمران، آية ١٧٣.

(٤) سورة النساء، آية ٨١.

(٥) سورة الأعراف، آية ٨٩ .

١- **الاستعانة بالله :**

وهي طلب العون[(١)].

يقول ابن تيمية[(٢)]: "والتوكل والاستعانة للعبد هي الوسيلة والطريق الذي ينال به مقصوده ومطلوبه من العبادة، فإن العبد يحب ويريد مايراه ملائما له، والله تعالى يحب ويرضى ماهو الغاية من المقصودة في رضاه، ويحب الوسيلة تبعا لذلك، وإلا فكل مأمور به، فمنفعته عائدة على العبد، وكل ذلك يحبه الله ويرضاه"[(٣)].

فالمؤمن يقصد الأمر ويستعين بشيء، ويعتمد عليه في تحصيل مراده والمستعان هذا قسمان :

القسم الأول: مايستعين به المرء لنفسه فيكون هو الغاية التي يعتمد عليها العبد ويتوكل عليها .

القسم الثاني : هو أن المرء يثق ويعتمد على المستعين في نيل مراده سواء كان ذلك هو الله أم غيره، فإذا كان المستعان به هو الله فمن هنا يأتي صلاح العبد والاستعانة بغيره هو الهلاك والفساد.

وقد سوى ابن القيم بين التوكل والاستعانة فقال "التوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة، فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة والإنابة هي العبادة"[(٤)].

قال تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[(٥)].

فالله تعالى يأمر بإخلاص العبادة له وأن نستعين به على الأمور كلها لأن العبادة له هي المقصودة والاستعانة وسيلة إليها[(٦)].

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ٣١٧٩/٥ .
(٢) أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، تقي الدين، أبوالعباس، لقب بشيخ الإسلام لوافر وواسع علمه، توفي سنة ٧٢٨هـ؛ انظر: وفات الوفيات، (٦٢/١).
(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (طبعة الرئاسة العامة للحرمين) (٢٠/١).
(٤) ابن القيم، مدارج السالكين، ج٢، ص١١٨ .
(٥) سورة الفاتحة، آية ٥ .
(٦) انظر:ابن كثير بتصرف،تفسير القرآن العظيم،(بيروت:دارالفكر، تط ١٤٠٨هـ)، (٤٢/١).

فالآية الكريمة فيها " اعترافا بالعجز والفقر وأنا لانستعين إلا بالله وحده أي نطلب العون منك على العبادة وعلى جميع أمورنا"[١].

فالآية الكريمة في ظاهرها لاتحمل معنى التوكل على الله تعالى ولكن إذا نظرنا لمعنى (نعبد) فالعبادة: "هي اسم جامع لكل مايحبه الله ويرضاه منه الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام والحج... وكذلك حب الله ورسوله، وخشيته والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، ... والرضى بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك: هي من العبادة لله"[٢].

فعلى الخلق أن يعبدوه فيطيعوا أمره، ويستعينوا به، فيجتهدون في إقامة الدينن مستعينين به، فهذا حال المؤمنين بالله ورسوله العابدين لله وكل ذلك من العبادة.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[٥].

فالله تعالى أمر المؤمنين بالاستعانة على أمورهم الدنيوية ... فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر، فلاسبيل لغير الصابر، أن يدرك مطلوبه، وخصوصا

---

(١) الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل، ص٣٣.

(٢) ابن تيمية، العبودية، (بيروت: المكتب الإسلامي، تط الخامسة ١٣٩٩هـ)، ص٣٨.

(٣) سورة البقرة، آية ٤٥ .

(٤) سورة البقرة، آية ١٥٣ .

(٥) سورة الأعراف، آية ١٢٨ .

الطاعات الشاقة ... والبلاء إن استمر فهذا تصفق معـه القوى النفسـانية والجسدية، ويوجد مقتضاها، وهو التسخط إن لم يقاومـها صاحبـها بـالصبر لله، والتوكـل عليـه، واللجأ إليه، والافتقار على الدوام"[١].

فالعبد المؤمن يفعل من الأسباب مايستطيع عند العجز، ويصبر ويستعين بـالله تعالى ويتوكل عليه.

فالآيات القرآنية كلها فيها معنى "مسألتهم الله المعونة على العبادة"[٢].

وفي التوكل معنى المعونة بعد بذل السعي والعمل في تحقيق أمر العبادة.

وفي الحديث عـن أبـي هريـرة -ﷺ- عـن النبـي - ﷺ - قـال: (**إن الديـن يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبـه فسددوا وقـاربوا وأبشروا، واستعينـوا بـالغدوة والروحة وشيء من الدلجة**"[٣].

إن الأعمال الصالحة من الإيمان فالمرء يجتهد فيها حسب استطاعته فمـا مـن عمل يقوم بـه المؤمـن إلا وطلب الله المعونـة فيـه حتـى لايجـهد نفسـه بحيث يعجـز وينقطع بل يعمل بتلطف وتدريج ليدوم العمل ولاينقطع .

ففي الحديث معنى السعي والعمل مع طلب المعونة مـن الله تعـالى فـي جميـع الأوقات والأحوال .

وعن عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما- قال: كنت خلف رسول الله -ﷺ- يوما فقال: "**ياغلام إنـي أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو**

---

(١) انظر: لعبدالرحمن السعدي بتصرف، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنـــان، حققـه محمد النجار، (بيروت: عالم الكتب، تط الثانية ١٤١٤هـ)، (٢/١٣١-١٣٢).

(٢) ابن جرير الطبري،جامع البيان في تفسير آي القرآن، هذبه وحققه وضبطه وعلـــق عليـه بشار معروف – عصام الحرستاني، (بيروت: مؤسسة الرسالة، تط الأولـــى ١٤١٥هـــ)، (١/٧٠) .

(٣) الفتح لابن حجر العســقلاني، حققـه ابـن بـاز، رتبـه ورقـم أحاديثـه: محمـد فـؤاد عبدالباقي،(بيروت: دار الكتب، تط الأولى ١٤١٠هـ)، (١/١٢٧) .



اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لـك، ولـو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبـه الله عليـك، رفعت الأقلام وجفت الصحف"[(١)].

وعن أبي هريرة -ﷺ- قال: قال رسول الله -ﷺ- : "**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ماينفعك، واستعن بالله ولاتعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل: قدر الله وماشاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**"[(٢)].

فحفظ الله الوقوف عند أوامره بالإمتثال وعند نواهيه بالإجتناب فمن فعل ذلـك فهو من الحافظين لحدود الله فحفظ الجوارح عن المعاصي وتركها في الطاعات أمـر محبوب ومأمور به فيجد المؤمن بذلك الله في كل أحواله حيث توجه وانطلق يحوطـه بعلمه وينصره ويسدد خطاه، فالحرص علـى مـاينفع مـن الأعمـال هـو الأولـى وهـو طاعة لله ولرسوله ﷺ .

فأحاديث الرسول تؤيد معنى التوكل علـى الله ألا وهـو الاسـتعانة بـه سبحانه فالمؤمن يحتاج الى الله وهو فقير إليه، وهذا هو المقصود .

والاسـتعانة بـالله والتوكـل عليـه سـبحانه وسـيلة إلـى الاحتيـاج وعبـادة الله فالشعور بالقوة وثقة الصلة بالله تعالى هي نتائج الاستعانة والتوكل على الله.

٢- **الاعتصـام :**

إن الاعتصـام بالشـيء هـو الاستمسـاك بـه، والاعتصـام بـالله تعـالى هـو الاستمساك بحبله المتين[(٣)].

فإن الاستمساك بحبل الله يمنع المرء المؤمـن مـن الضيـاع ومـن الوقـوع فـي السوء والبدعة والآفات في العمل .

---

(١) الترمذي (٢٥١٦) واللفظ له، وقال هذا حديث حسن صحيح، أحمد فـي المسـند، ١/٢٩٣، ٣٠٣، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح، ٢/٢٦٩، ٢٠٧، ح (٢٧٦٣).

(٢) مسلم (٤/٢٠٥٢)، ح(٢٦٦٤) كتاب القدر .

(٣) أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبدالسلام هارون، (القاهرة، تط ١٩٦٩م)، ص٣٣١.

"الاعتصام بالله هو التوكل عليه والامتناع به والاحتماء به وسؤاله أن يحمـي العبد ويمنعه، ويعصمه ويدفع عنه"[(١)].

قـال تعـالى : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[(٢)].

وقولـه تعـالى:﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[(٣)].

ففي الآيتين حض على الاستمساك بالدين الحق الذي بينه سبحانه بآياته على لسان رسوله ﷺ وهو الإسلام والتوحيد[(٤)].

وقد قال ابن الجوزي[(٥)] في تفسيره للآية أن سبب نزولها أن الأوس والخزرج كان بينهما حرب في الجاهلية، فلما جاء النبي ﷺ أطفأ تلك الحرب بالإسلام ... فالاعتصام الاستمساك بحبل الله وفي الحبل: ستة أقوال هي :

١- كتاب الله. ٢- الجماعة. ٣- دين الله.

٤- عهد الله . ٥- الإخلاص. ٦- أمر الله وطاعته

فيظهر أن الأقوال كلها متقاربة المعنى لأن كتاب الله فيه الحث على الترك

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، (١/٤٩٥- ٤٩٧).
(٢) سورة آل عمران، آية ١٠١ .
(٣) سورة آل عمران، آية ١٠٣ .
(٤) أبوالسعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (بيروت: دار الفكر)، (١/٣٩٣).
(٥) ابن الجوزي: أبوالفرج ابن أبي الحسن بن علي بن محمد بن علي بن عبدالله الجوزي الفقيه الحنبلي، ولد سنة ٥١١ أو ٥١٢، توفي سنة ٥٩٧هـ؛ انظر: لابن كثير، البداية والنهاية، (١٣/٢٨)؛ ولابن خلكان، وفيات الأعيان، (٢/٣٢١).



بالجماعة وبدين الله وبعهده وبالإخلاص وبأمر الله وطاعته... [(١)].

ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية، والعدة في مباعدة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد وحصول المراد[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[(٣)].

فالآية السابقة فيها أن العبد المؤمن عليه أن يتجرد عن الشوائب قليلها وكثيرها لأن الشيطان قد يحاصر العبد ويحبط له عمله ولايكاد يخلص له عمل فدلت الاية على ان تبديل الرياء بالإخلاص يدخل صاحبه في الصلاح .

وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[(٤)].

فالاعتصام التمسك بما يعصم ويحفظ ... وهو القرآن الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة[(٥)].

قال ابن كثير في تفسيره للآية " أي جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم، وقال ابن جريج: آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن ... وهذه صفة

(١) ابن الجوزي بتصرف، زاد المسير في علم التفسير، (بيروت: المكتب الإسلامي، تط الثالثة ١٤٠٤هـ)، (١/٤٣١-٤٣٣).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (بيروت: دار الفكر – تط ١٤٠٨هـ)، (١/٥٧٩).

(٣) سورة النساء، آية ١٤٦ .

(٤) سورة النساء، آية ١٧٥ .

(٥) انظر: المراغي، تفسير المراغي، (بيروت: دار الفكر)، (٣٧/٢).

المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات"(١).

فالآيات جميعها فيها معنى التوكل على الله، وذلك بالاحتماء به وسؤاله سبحانه بدفع الآفات والعقبات عن الطريق للوصول إلى الغاية والمراد.

وفي الحديث عن جابر بن عبدالله -رضي الله عنهما- قال: **إن رسول الله - ﷺ - مكث تسع سنين لم يحج، ثم أذن في الناس في العاشرة: أن رسول الله - ﷺ - حاج ... الحديث وفيه " وقد تركت فيكم مالن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله ... "**(٢).

وعن سفيان بن عبدالله الثقفي -رضي الله عنه- قال: قلت: يارسول الله: حدثني بأمر اعتصم به، قال: " **قل ربي الله ثم استقم" قلت: يارسول الله ماأخوف ماتخاف علي؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال: "هذا"**(٣).

وهنا يرد سؤال هل الاعتصام بكتاب الله فيه توكل على الله أو فيه معنى التوكل؟ نعم إن القرآن الكريم شامل للعقيدة والعبادة، والمعاملة، فآيات الله تتلى فتطرق القلب حتى يسلم ويستسلم قلبه ونفسه لأوامر الله تعالى ونهيه، فكما أشرنا سابقا أن القرآن هو حبل الله المتين، وبذلك يستقيم حال المؤمن فيمسك أوامر الله تعالى ويمتثل لها ويجتنب نواهيه وعلى ذلك فالتمسك بكتاب الله من الاعتقادات والأعمال والأقوال هو الأساس وجميعهم يحتاج إلى التوكل .

فالاعتصام يوجب القيام بطاعة الله والمحافظة على طاعته ورسوله - ﷺ -.

---

(١) ابن كثير، المصدر السابق، (٩٠٢/١).
(٢) مسلم، (٨٩٠/٢)، (١٢١٨) كتاب الحج .
(٣) الترمذي (٢٥٢٢) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٣٩٧٢) وصححه الألباني، صحيح سنن ابن ماجه، (٣٢٠٨).

٣- **الرجـاء :**

" تعلق القلب بحصول محبوب في المستقبل"[١]، وهذا التعلق يحتاج إلى عمل والعمل يحتاج إلى توكل على الله .

فالرجاء يسلك بصاحبه لطريق الجد وإمكان الوقوع للمتأمل فيه ولولا الرجاء لما تحركت الجوارح للعمل بالطاعة .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢].

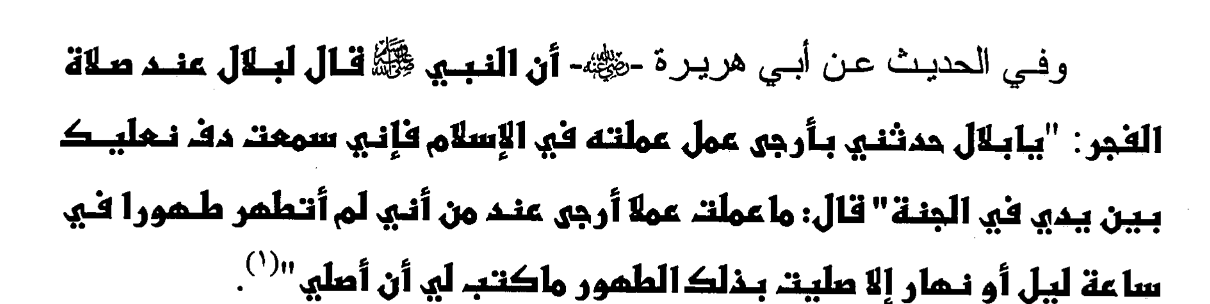
وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾[٤].

فالآيات القرآنية السابقة دلت على أن القيام بأعمال الهجرة والجهاد وغيرها من الأعمال وبذل الأسباب لتقربهم إلى الله، ومع هذا فلايعتمد على تلك الأعمال والأسباب ويعول عليها بل رجاء رحمة الله ورجاء قبول الأعمال فيها إظهار لمعنى العبودية بالتوكل على الله وبالفاقة والحاجة إلى مايرجوه العبد من ربه وفيها أيضا معنى الترقب والتوقع لفضل اله بعد العمل ودوام الالتفات إليه[٥].

---

(١) الجرجاني، التعريفات، ص١٠٩.
(٢) سورة البقرة، آية ٢١٨ .
(٣) سورة النساء، آية ١٠٤.
(٤) سورة الإسراء، آية ٥٧ .
(٥) انظر: لعبدالرحمن السعدي بتصرف، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (١٩٦/١- ٨٩/٢).



وفي الحديث عن أبي هريرة -رضي الله عنه- **أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر: "يابلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة" قال: ماعملت عملا أرجى عندي من أني لم أتطهر طهورا في ساعة ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ماكتب لي أن أصلي"**[1].

إن الصلاة من الأعمال الصالحة التي يرجو بها العبد دخول الجنة إن أحسنها وقام بأركانها وشروطها ويرجو الله بها حصول المراد والمحبوب .

وعن أنس -رضي الله عنه- **أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال "كيف تجدك؟" قال: يارسول الله إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: "لايجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله مايرجو وآمنه مما يخاف"**[2].

فالرجاء عمل قلبي والتوكل كذلك فكلاهما من القلب وبذلك يتصلان إتصالا وثيقا ولاينفكان أبدا.

فالحديثان يظهران معنى من معاني التوكل، وهو الرجاء الذي يطيب العمل ويزيد معرفة العبد بالله ويزيد التعلق به سبحانه .

٤- الرضـا :

إن الرضا هو أن لايكره العبد مايجريه القضاء عليه ويرفع الجزع عن نفسه عند نزول مر القضاء[3].

---

(١) البخاري، الفتح ، ج٣ (١١٤٩).

(٢) الترمذي (٩٨٣) وقال: هذا حديث حسن غريب، وقال النووي إسناده جيد.

(٣) انظر: الراغب الأصفهاني بتصرف، مفردات ألفاظ القرآن، ص٢٠٢؛ وللجرجاني، التعريفات، ص١٤٨.

فالمرء يعمل ويبذل جهده في العمل ويرضى بكل مايفعل به لكي يكمل له الانقياد والاستسلام المطلق لله، ولحكمه ولو كان الحكم مخالفا لمراد نفسه.

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾(١).

إن الآية الكريمة " نزلت في صهيب بن سنان الرومي وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل فتخلص منه وأعطاهم ماله، فأنزل الله هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى الحرة، فقالوا له: ربح البيع، فقال وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم وماذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية"(٢).

فهذا الصحابي الجليل تجرد من ماله وهاجر إلى رسوله الكريم خائفا على دينه وقد فعل مافعل وهو في رضا تام لأنه يعلم أن الله تعالى لايضيع ذلك أبدا فشرى نفسه ابتغاء مرضاة ربه وتوكل عليه ليعينه على كفار قريش .

وقال تعالى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾(٤).

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٠٧ .
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٣٧٠/١).
(٣) سورة النساء، آية ١١٤ .
(٤) سورة الحشر، آية ٨ .

وقـال تعـالى: ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾(١).

إن الأعمـال ينبغـي أن يقصـد بـها وجـه الله تعـالى، وإخـلاص النيـة لـه فيـها ليحصل الأجر العظيم ويتعود المؤمن الإخلاص فـي كـل جـزء مـن أجـزاء الأعمـال صغيرها وكبيرها وإذا لم يتم المقصود فالنية قد اقترن بـها الإخـلاص واقترن معـها مايمكن من العمل.

فعن ابن عمر – رضي الله عنهما- **أن رسول الله – ﷺ – كان إذا استوى على بعيره خارجا الى سفر كبر ثلاثا، ثم قال "سبحان الذي سخر لنا هذا وماكنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ماترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل، وإذا رجع قالهن وزاد فيهن "آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون"**(٢).

فقوله ﷺ: **(ومن العمل ماترضى)** أي عمـل ممكـن أن يكـون فـي السـفر مـن جهاد لايتخللـه ريـاء – مـن تجـارة يرجـوا بـها الربـح، طلـب علـم يرجـو بـه الأجـر والثواب ...الخ، وغير ذلك مـن الأعمـال وجميعـها ينبغـي أن تكـون علـى منـهاج الله تعالى وعلـى طريقـة رسـوله ﷺ فيرضى الله عنـها إذا انعقد التوكـل فيـها علـى الله تعالى.

قـال عبـدالله بـن المبـارك : قـال داود لابنـه سـليمان عليـهما السـلام: "يـابني، إنما تستدل على تقوى الرجل بثلاثة أشياء: لحسن توكله على الله فيما نابه، [ولحسن]

---

(١) سورة الأحزاب، آية ٥١ .

(٢) مسلم، (٢/٩٧٨)، (١٣٤٢) كتاب الحج .

رضاه فيما أتاه [ولحسن] زهده فيما فاته"(١).

فالرضا معنى من معاني التوكل على الله ومورد من موارده ومظانه فهو دليل ومظهر من مظاهر صلاح وكمال الإيمان .

٤- **اليقين :**

إن اليقين قرين التوكل على الله لذلك قرن الله تعالى بينه وبين التوكل .

وفسر التوكل بقوة اليقين، ومتى وصل اليقين الى القلب امتلأ نورا وامتلأ محبة لله وتوكلا عليه(٢) .

واليقين يأمر دائما بالاستمرار على ركوب الأخطار والصعاب(٣).

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾(٥).

أي بلغ الإيمان بهم إلى أن وصل إلى درجة اليقين الداعي للعمل وكمال السعي(٦).

---

(١) السيوطي، الدر المنثور في التفسير المأثور عن ابن أبي الدنيا، (بيروت: دار الفكر، تط الأولى، ١٤٠٣هـ)، (٦٢/١).

(٢) انظر: لابن القيم بتصرف، مدارج السالكين، (٤١٤/٢).

(٣) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، (بيروت: المكتبة العلمية) مصورة من طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ١٣٨٣هـ، (٤٠٠/٥)؛ ابن القيم، مدارج السالكين، (٤١٣/٢).

(٤) سورة النمل، آية ٣ .

(٥) سورة لقمان، آية ٤ .

(٦) انظر: للسعدي، تيسير الكريم الرحمن، (٤٦٤/٣).

وعن عبدالله بن عمر بن العاص – رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: " **القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض فإذا سألتم الله عز وجل أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة فإن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل**"[١].

وعن أنس -رضي الله عنه- قال: **كان أخوان على عهد النبي – ﷺ – فكان أحدهما يأتي النبي – ﷺ – والآخر يحترف فشكا المحترف أخاه إلى النبي – ﷺ – فقال "لعلك ترزق به**"[٢].

ففي الحديثين تظهر درجة من درجات اليقين وهي ("الدرجة الأولى: علم اليقين، وهو قبول ماظهر من الحق، وقبول ماغاب للحق، والوقوف على ماقام بالحق". فالصحابة رضوان الله عليهم تيقنوا خبر رسول اله ﷺ وانقادوا وأذعنوا له إيمانا وتصديقا وإيقانا، بحيث لايخالج القلب فيه شبهة، فحديث الرسول لهم يلزمهم بصدقه وأن ذلك حاصل منه إجابة دعائهم – ورزق الأخر لأنهم سكنوا إلى خير المخبر وتوثقه به)[٣].

فهذا اليقين يمثل لنا معنى من معاني التوكل وموردا من موارده في الكتاب والسنة فهو نواة الدين وبه كمال الإيمان والعزة، والمباعدة عن مواطن الذلة والضعف بمعرفة العبد ويقينه بالله تعالى .

٥- التفويض :

إن التفويض من معاني التوكل، فالتوكل شعبة منه ومعنى له، فالتوكل والتفويض كلاهما تبرءا من الحول والقوة لصاحب الأمر سبحانه .

---

(١) أحمد، ١٧٧/٢ واللفظ له، ذكره المنذري في الترغيب والترهيب، ٤٩١/٢ وقال: رواه أحمد بإسناد حسن.

(٢) الترمذي (٢٣٤٥) واللفظ له وقال: هذا حديث حسن صحيح، وقال الحاكم، ٩٣/١، ٩٤ هذا حديث صحيح على شرط مسلم ورواته عن آخرهم ثقات: ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٣) انظر: لابن القيم بتصرف، مدارج السالكين، (٤١٦/٢-٤١٨).

والتفويض " هو روح التوكل ولبه وحقيقته"[١].

قال تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[٢].

ومعنى قوله:﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾ (أي: ألجأ إليه وأعتصم، والقي أموري كلها لديه واتوكل عليه في مصالحي...)[٣].

وجاء في الحديث عن البراء بن عازب –رضي الله عنهما– أنه قال: **قال النبي ﷺ: " إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل: "اللهم أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لاملجأ ولامنجى منك إلا إليك، اللهم أمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة، واجعلهن آخر ماتتكلم به"**[٤]... الحديث.

فقوله ﷺ (وفوضت أمري إليك) أي أتبرأ من حولي وقوتي إلى حولك وقوتك وتسليم الأمر كله إلى مالك الأمر سبحانه.

---

(١) المصدر السابق، (١٢٧/٢).

(٢) سورة غافر، آية ٤٤ .

(٣) انظر: للسعدي، المصدر السابق، (٣٤٦/٤).

(٤) صحيح البخاري، (٨٣/١)، (٢٤٧)، كتاب الوضوء واللفظ له، ومسلم، (٢٠٨١/٤)، (٢٧١٠)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

المطلب الثالث : الفرق بين التوكل والتواكل :

إن التواكل صفة من الصفات الخلقية المذمومة، التي نهى عنها الشرع الحنيف، ويرفضه المؤمن اللبيب.

فالأخذ بالأسباب مع التسليم، وتفويض أمر التوفيق لله والثقة واليقين بأنه سبحانه لايضيع أجر من أحسن عملا هو من التوكل المأمور به شرعا.

أما القعود عن العمل والأسباب وعدم البذل والجهد فليس من التوكل وإنما هو اتكال وتواكل حذرنا منه المصطفى ﷺ .

وقد يظن بعض الجهال الغافلين أن ترك الكسب من التوكل، وهذا فهم سقيم مريض لأن ارتباط المسببات بالأسباب من سنن الله في خلقه .

فلايعقل أن يظهر النبات دون إلقاء الحب في الأرض والعمل على رعايته فينتج لنا الثمر والزهر.

فعن عمر بن الخطاب " **أنه لقي ناسا من أهل اليمن فقال من أنتم؟ قالوا نحن المتوكلون، فقال بل أنتم المتكلون**"[١]، إنما المتوكل الذي يلقي حبة في الأرض ويتوكل على الله.

وفي ذلك رد بليغ على من يتركون الأسباب تقاعسا بدعوة التوكل على الله، ولو صدقوا لأحسنوا العمل.

كذلك من يمرض ويظن أنه يشفى بدون تداوي فهو تارك لأسباب الشفاء فقد حض الإسلام على التداوي وأمر به النبي - ﷺ -، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: " **ماأنزل الله داء إلا أنزل له شفاء**"[٢].

" إن إثبات الدواء من الأسباب التى لاتنافي التوكل على الله لمن اعتقد أنها بإذن الله وتقديره، وأنها لاتنجح بذواتها بل بما قدره الله تعالى فيها[٣]".

---

(١) خرجه ابن أبي الدنيا، التوكل على الله، تحقيق: مجدي إبراهيم، (القاهرة: مكتبة القرآن، بدون تط)، ص٢٦ .

(٢) البخاري، الفتح، كتاب الطب، ص١٦٦، (٥٦٧٨).

(٣) ابن حجر، فتح الباري، (١٠/١٦٧). .

فإهمال الأخذ بالأسباب وترك العمل يسمى تواكلا وليس ذلك من الإيمان والتوكل على الله هو الأخذ بالأسباب مع العمل؛ لأن العمل بما أمر الله وبذل الأسباب أمر لازم لصحة التوكل على الله ، وهذا ما يفهم من قوله تعالى :

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾[1].

وقد أمر تعالى عباده بالسعي والعمل وطلب الرزق، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾[3].

---

(١) سورة النساء، آية ١٢٣-١٢٤.

(٢) سورة الجمعة، آية ١٠ .

(٣) سورة الأنفال، آية ٦٠ .

المطلب الرابع: فضل التوكل على الله:

إن التوكل على الله تعالى له مقام عظيم، وهو من أقوى الأسباب التى تدفع المرء المؤمن إلى تحمل أقدار الله .

ولاتظهر هذه المنزلة والمقام إلا عند شدة المصاب وهوله، وبهذا فإن المؤمن إذا أصابه أمر من الأمور فزع إلى الله، وتوكل عليه وأناب فالتوكل في كل خطوة من خطوات المؤمن هو حق واجب وعقيدة وخلق، فالتوكل من لوازم الإيمان .

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾، ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾[2].

والتوكل على الله هو أساس من أسس التوحيد وركن من أركانه؛ لأن أكثر العبادات تتفرع عنه .

والمرء يطمئن إلى تلك العقيدة وهذا الخلق؛ لأنه يعرف أن ما وراءه هو لصاحب الأمر والتدبير سبحانه .

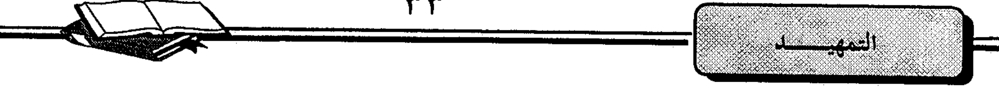
" والتوكل جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضا لايتصور وجوده بدونها"[3].

---

(١) سورة المائدة، آية ٢٣ .

(٢) سورة آل عمران، آية ١٢٢، ١٦٠ .

(٣) ابن القيم، مدارج السالكين، (١٣٦/١) .



وهو " الأصل الجامع الذي تتفرع عنه الأفعال والعبادات وهو خلاصة التقرير ونهاية تحقيق التوحيد الذي يثمر كل مقام شريف من المحبة والخوف والرجاء والرضا به ربا وإلها، والرضا بقضائه بل ربما أوصل العبد إلى التلذذ بالبلاء وعده من النعماء"(١).

ومن فضل التوكل أنه سبحانه سمى نفسه الوكيل .

قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾(٥).

ومن فضل التوكل أنه تعالى أمر به في أكثر من موطن في كتابه العزيز:

---

(١) سليمان بن عبدالله بن عبدالوهاب، تيسير العزيز الحميد، شرح كتاب التوحيد (المكتب الإسلامي، الطبعة ٤) ص١١٠ .

(٢) سورة النساء، آية ١٣٢.

(٣) سورة آل عمران، آية ١٧٣.

(٤) سورة النساء، آية ١٧١ .

(٥) سورة الإسراء، آية ٦٥ .

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(٣).

وغيرها من الآيات الكثيرة التي حثت وأمرت بالتوكل عليه سبحانه .

ومن فضل التوكل أنه من صفة الأنبياء والمؤمنين الصادقين :

قال تعالى: ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(٦).

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٥٩ .
(٢) سورة النساء، آية ٨١ .
(٣) سورة المائدة، آية ١١ .
(٤) سورة آل عمران، آية ١٢٢.
(٥) سورة آل عمران، آية ١٦٠ .
(٦) سورة الأنفال، آية ٢ .



وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾[1].

ومن فضله كذلك أنه تعالى جعله في جميع الشرائع السابقة والخاتمة:

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾[4].

---

(١) سورة الرعد، آية ٣٠ .

(٢) سورة المائدة، آية ٢٣ .

(٣) سورة الأعراف، آية ٨٨-٨٩ .

(٤) سورة يونس، آية ٧١ .

وقال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾(١).

وغيرها من الآيات الكثيرة التي تدل على فضل هذا الخلق فهو عدة المؤمنين في المعرفة والنصرة والتأييد .

ومن فضل التوكل أنه سبحانه قرن بينه وبين العبادة في مواضع عدة من كتابه:

قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾(٤).

---

(١) سورة هود، آية ٥٣-٥٤-٥٥-٥٦ .
(٢) سورة هود، آية ١٢٣.
(٣) سورة الممتحنة، آية ٤.
(٤) سورة المزمل، آية ٩ .

وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾(١).

ومن فضل التوكل أنه سبحانه قرن بينه وبين الإيمان :

قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾(٤).

وكذلك من فضله أن قرن بينه وبين الإسلام :

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾(٥).

ومن فضله أن قرن بينه وبين التقوى والهداية :

---

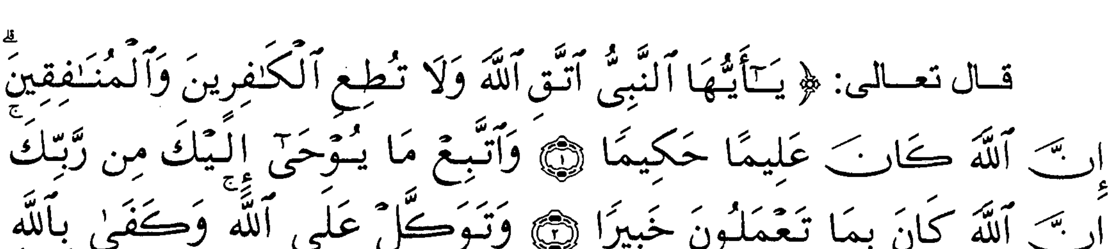
(١) سورة الرعد، آية ٣٠ .

(٢) سورة الملك، آية ٢٩ .

(٣) سورة المائدة، آية ٢٣.

(٤) سورة آل عمران، آية ١٢١-١٢٢.

(٥) سورة يونس، آية ٨٤ .



قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾[2].

وقال تعالى : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[3].

فمن خلال الآيات القرآنية يتضح لنا أن التوكل على الله فضله عظيم وهو زاد المتقين العابدين المؤمنين، والغاية القصوى لكل مؤمن هي: معرفة الله تعالى وعبادته ويدخل في ذلك التوكل، فمن عرف الله تعالى توكل عليه. قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[4].

(١) سورة الأحزاب، آية ١ –٣ .
(٢) سورة الطلاق، آية ٣ .
(٣) سورة إبراهيم، آية ١٢ .
(٤) سورة الزمر، آية ٣٦ .

المطلب الخامس : التواكل وآثاره السلبية على الفرد والمجتمع :

إن الإسلام دين ينظم الحياة البشرية في مختلف ميادينها، كما يرسم الطريق للحياة على أساس العقيدة والشريعة والأخلاق.

والإسلام يدعو إلى العمل ويبيح ويرغب في المكسب الحلال الذي لا استغلال فيه وبهذا فهو دين عمل وحياة يريد من المسلم أن يعيش حياة هنيئة في ظل الإسلام وبهذا فقد وهب الله الإنسان قوة التفكير والتدبير بواسطة العقل والعلم، وبواسطة العلم تعددت مصادر الرزق وأصبح للإنسان القوة للعمل .

ومن شرف العمل أن يكون وفق ماجاء به الإسلام، فالعمل بجد ونشاط إيمان بما ينوط بالإنسان من مسئولية .

قال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1].

وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[2].

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[3].

فالعمل الصالح هو المعيار الحقيقي للجزاء الحسن، وهو يهيأ المؤمن للدرجات العلى في الجنة .

فالعمل فريضة على كل مسلم ومسلمة بقوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم

(١) سورة التوبة، آية ١٠٥.
(٢) سورة هود، آية ١٢٣.
(٣) سورة المؤمنون، آية ٥١ .

بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾(٣).

فالمسلم هنا يطمح ويعمل دائما ليصل للأمل المنشود في الدنيا والآخرة، فبدون العمل يصبح الإنسان عاجزا لنيل أدنى مراداته.

لذلك أمرنا الإسلام بالعمل حسب شروطه حتى يكون العمل موفقا متقنا، ومن ضمن هذه الشروط هي أن يكون المؤمن متوكلا على الله في عمله أيا كان صغيرا أو كبيرا يريد به الدنيا أم الآخرة.

" فالتوكل على الله في العمل موقف ينشأ عما يقوم بنفس المؤمن من أن الله حق وماخلاه باطل، وأن هدى الله هو الهدى ليس بعده إلا الضلال، فإذا استقر هذا العلم بالنفس وصار اعتقادا جازما ويقينا حاسما أورث المؤمن حالة من الثقة المطلقة بصحة الطريق الذي يسلكه مقبلا على ربه وعاملا في سبيله، وذلك يدعوه للإقدام بثبات نحو الغاية المنصوبة أمامه على صراطها المستقيم"(٤).

فالتوكل شعبة من شعب الإيمان تهيء المؤمن في واقع الدنيا لحياة عامرة بضروب العمل الصالح مفعمة بوجوه الخير.

---

(١) سورة النحل، آية ٩٧ .

(٢) سورة الكهف، آية ١ – ٢ .

(٣) سورة الكهف، آية ٣٠ .

(٤) د.حسن الترابي، الإيمان وأثره في حياة الإنسان، (بيروت: دار القلم، ط الأولى ١٣٩٤هـ)، ص٤٠ .



والتواكل على ذلك نقيضه تماما فقد أخذ بعض الناس معتقدات، وتصورات واهية لمعنى التوكل، فقد أخذوا من التوكل معنى التعطل، ومن القضاء والقدر معنى الجبر المحتوم، فانتهوا إلى القعود والتواكل عن العمل في الحياة اعتذارا بأن القدر محتوم،ومكتوب مهما فعلوا، واتكالا على أن الله سيدبر لهم الخير مهما تركوا.

وبهذا كان القعود عن العمل تواكلا لأنهم تركوا الأسباب وعجزوا عنها فوهنت وضعفت عقيدتهم في العمل بذلك .

فالاتكال على الله لن يخرق العوائد، ويجعل السماء من فوق تمطر الذهب والفضة، والأرض من تحت تخرج الخبز والعسل، بلاجهد ولاسعي ولاتفكير ولاعمل.

ولقد جاء الأعرابي الى رسول الله - ﷺ - **فقال يارسول الله أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟ فقال رسول الله: "اعقلها وتوكل"**[(١)].

فالأعرابي سأل رسول الله ﷺ هل يطلق ناقته ويتوكل أم يعقلها ويتوكل؟ فأجابه الرسول ﷺ بالمنهج السديد الرشيد الذي يجمع بين الأخذ بالأسباب وبين التوكل على الله وذلك سمة من سمات المنهج النبوي في التربية والتوجيه للأمة، فقال النبي ﷺ قولته التي سرت مسرى الأمثال السائرة " أعقلها وتوكل".

وحديث عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله - ﷺ -: " **لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا**"[(٢)].

---

(١) الترمذي (٢٥١٧)، وهذا لفظه وقال: هذا حديث غريب من حديث أنس، والحاكم، ٦٢٣/٣، وقال الذهبي في التلخيص: إسناده جيد، البيهقي في الشعب، ١٤١٤/٣ من حديث عمرو بن أمية الضمري، وقال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء بعد أن عزاه للترمذي: رواه ابن خزيمة في التوكل والطبراني من حديث عمرو العمري وقال: إسناده جيد، وذكره الألباني في صحيح الجامع (٤٨٠٩) وقال: حسن.

(٢) الترمذي (٢٣٢٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٤١٦٤) وهذا لفظه، وأحمد، ٣٠/١ وقال أحمد شاكر، ٣٤٣/١: إسناده صحيح، والبيهقي في شعب الإيمان، ٣٧٨/٣ .

فهذا الحديث هو في الواقع حجة فإنه سبحانه لم يضمن لها الرواح ملأى البطون، إلا بعد غدوها وسعيها لامع بقائها في أوكارها.

ولكن حين يصاب المؤمن بعلة في الاعتقاد والخلق يكون عرضه لأن تعتريه النوائب.

فالتواكل لايقره الإسلام لأنه يهدم أحكام الإسلام وله من الآثار السلبية على الفرد والمجتمع الكثير الكثير فمنها :

١- البطالة ، فيصير الفرد والمجتمع الى طريق الكسل والعجز والعيش بلاهدف.

٢- تصاب عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، بالخلل، فيقعد الفرد مكتوف اليد، وهذا مالا يقبله الإسلام؛ لأنه قد حث على بذل الأسباب، ثم بعد ذلك يرضى بما قضى الله له، وماقدر عليه إيمانا بأن الله تعالى لايفعل شيئا عبثا، ولايقضي أمرا يريد به عسرا لعباده .

٣- لايكون الفرد والمجتمع قانعا بما وهب الله، فما جاء هو في حدود ماقدر له من نشاط وطموح وعمل، فيعيش الفرد والمجتمع متمنيا متطلعا إلى ماوهب لغيره.

٤- يصبح الفرد والمجتمع نتيجة للقعود عن العمل والاتكال رمزا للعجز والترزق بأفضال الناس وصدقاتهم.

٥- يصبح الفرد والمجتمع مخالفا لسنن الله الكونية، ومخالفا لتعاليم دين الإسلام الذي يرغب في العمل والكسب.

٦- يصبح الفرد والمجتمع في ذلة ومهانة ومسكنة وهذا ماتأباه النفوس العزيزة.

٧- يفتقد الفرد والمجتمع معنى العبادة لله، لأن الشمول والتكامل هو في أن يسلم المؤمن سعيه وحياته كلها لرب العالمين فيلتزم صراطه المستقيم الذي دل عليه، ولايحيد عنه بشيء من عمله مجردا وجوه سعيه جميعا نحو القبلة الواحدة التى تنتهي إلى الله .

" إن العمل للدنيا والآخرة كفتي ميزان لاترجح إحداهما إلا بمقدار ماتحمل الأخرى.

فالمطلوب من المؤمن أن يعمل ويجهد ويكافح، ويبني ويعمر ويشيد ويتلمس أسباب الرزق على أن تكون الآخرة نيته وغايته، وأمله.

فالمؤمن يتخذ الدنيا مزرعة للآخرة التي تحتاج الى عمل وسعي، ولكن الثمرة إنما تقطف كاملة في الآخرة، وإن أدرك بعضها في الدنيا.

قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[١].

ذلكم هو المؤمن يسخر الدنيا لنفسه، ولايسخر نفسه للدنيا، والمؤمن لايتخذ الدنيا ربا فتتخذه الدنيا عبدا"[٢].

٨- قلة الانتاج بقلة الأيدي العاملة، فيقل الدخل ويترتب على ذلك قلة في الادخار والاستثمار، ثم أخيرا يحصل التضخم الاقتصادي .

٩- انخفاض مستوى المعيشة، وإهمال الموارد الطبيعية لقلة العاملين.

١٠- استيراد عمالة وبذلك يصبح المجتمع في نمو سالب لاهدف له .

---

(١) سورة الأعراف، آية ٣٢.

(٢) انظر: يوسف القرضاوي بتصرف، الإيمان والحياة، (القاهرة: مكتبة وهبه، ط الخامسة ١٣٩٧هـ)، ص٢٩٥؛ الأرقام (٨ – ٩- ١٠)، مجلة الحرس الوطني، السنة الرابعة، العدد ١٢٢، ربيع الأول ١٤١٤هـ، "التوكل على الله ودعوى القعود عن الكسب" بقلم د.أحمد الجنيدل.

الفصل الأول
التوكل على الله وعلاقته بالإيمان بالله

وفيه :

تمهيد.

المبحث الأول : التوكل على الله جزء من عقيدة المؤمن .

المبحث الثاني : التوكل على الله من أعمال القلوب .

المبحث الثالث : أحوال المتوكلين .

الفصل الأول

التوكل على الله وعلاقته بالإيمان

التمهيد:

إن التوكل على الله خصلة من خصال الإيمان وثمرة من ثمار المعرفة بالله وهو نتيجة صدق التوحيد، الذي هو اعتقاد تفرد الله تعالى بالربوبية وإخلاص العبادة له، وإثبات ماله من الأسماء والصفات[١]؛ لذلك فإن التوحيد هو الغاية المحبوبة والمرضية لله سبحانه وتعالى فلابد من التصديق والتسليم والاستسلام والانقياد والإذعان .

والعقيدة هي من العقد، والتوثيق، والإحكام، والربط بقوة[٢]؛ وعلى هذا فالتوكل على الله جازم الإيمان به ولايتطرق إليه شك .

والعقيدة الصحيحة السليمة هي العقيدة التي بعث الله تعالى بها الرسل جميعا، وارتضاها الله تعالى لخلقه جميعا، وهي عقيدة واحدة لاتتجزأ؛ لأنها منزلة من عند العليم الخبير، وهي في أصليه – الكتاب والسنة- ندية طرية صافية تقنع العقل بالحجة والبرهان، وتملأ القلب إيمانا ويقينا وحياة.

ولقد خلق الخلق من أجل تحقيق هذه العقيدة، وهذا التوحيد، ولايكون ذلك إلا بتوجيه العمل والنية والعبادة لمن يستحقها، والخضوع له عن رضا وتذلل ومحبة وإخلاص.

ومن الأعمال التي لا ينبغي توجيهها إلا له سبحانه وتعالى التوكل عليه فهو من لوازم الإيمان به جل شأنه، بل هو من صميم الإيمان، فالتوكل عليه من الطاعات الواجبة فمن آمن عمل الطاعات واجتنب النواهي .

---

(١) انظر: ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق جماعة من العلماء، خرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني ومعه التوضيح، بقلم زهير الشاويش، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م)، ص٧٤-٧٦.

(٢) انظر: لابن منظور ، لسان العرب: عقد، (٣/٢٩٦) .

فا" "التوكل" نصف الدين، والنصف الثاني "الإنابة" فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة"[١].

لذلك يجب صرف العبادة والاستعانة لله تعالى حتى يتم إيمان العبد ويخلو من شوائب الشرك وأدران الجاهلية إذ أن صرفه لغير الله شرك .

" والإيمان وراء ذلك كله، وهو حقيقة مركبة من معرفة ماجاء به الرسول ﷺ علما، والتصديق به عقدا، والإقرار به نطقا، والانقياد له محبة وخضوعا، والعمل به باطنا وظاهرا، وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان"[٢].

إذ لابد في هذا التوكل أن يترجم إلى واقع عملي ملموس؛ مطبق بالقول والعمل، والسلوك، والمظهر، والقيم والمبادئ؛ لأنه عقيدة لابد أن تعبر وتعلن عنها الجوارح ويترجمها السلوك والمظهر .

فالتوكل ليس مجرد عمل قلبي بل هو مع ذلك قول باللسان، وعمل بالجوارح، إذا فالتوكل عمل القلب، ولاينافي حركة الجوارح، لأن القلب قد سكن إلى من له الأمر والتفت إليه وانقادت لذلك الجوارح فالتوكل فروعه منتشرة في كل مجال .

وبما أن التوكل تصديق وعمل فقد قرن الله تعالى الإيمان بالتوكل في آيات كثيرة مباشرة منها قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[٤].

---

(١) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، (١١٨/٢).

(٢) ابن قيم الجوزية، الفوائد، تخريج وحواشي أحمد راتب عرموش، (بيروت: دار النفائس، ط ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م)، ص ١٤٠ .

(٣) سورة المائدة، آية: ١١ .

(٤) سورة التوبة ، آية: ٥١ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [٢].

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [٣].

وقوله تعالى : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [٤].

فالآية الكريمة التي في سورة آل عمران (١٢٢) نزلت في غزوة أحد[٥] ونحن نعلم مالهذه الغزوة في نفوس المؤمنين فقد كلفتهم الكثير من الجراحات والآلام، وكلفتهم أن يروا رسولهم الحبيب وقد وقع وحصل له ماحصل في تلك الغزوة إلا أن لله حكما عظيمة في ماوقع للمؤمنين منها أنه أراد أن يمحص ويختبر صدق النفوس في القول والعمل والطاعة لله ولرسوله، ومدى تحملها للتكاليف الإيمانية، والاستعداد لالتزام الطاعة والاتباع ورد الأمر كله لله سبحانه.

لذلك جاءت الآية مناسبة للواقعة، وهي تستجيش وتربي النفس المؤمنة على الاعتماد على الله وحده **(فالتوكل هنا تفويض الأمر إلى الله تعالى ثقة بحسن تدبيره فأمر الله عباده المؤمنين أن لايتوكلوا إلا عليه وأن لايفوضوا أمرهم إلا إليه)**[٦].

---

(١) سورة المجادلة، آية: ١٠ .

(٢) سورة التغابن، آية: ١٣ .

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٢٢

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٦٠ .

(٥) انظر لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٥٩٨/١) .

(٦) علاء الدين علي بن محمد الشهير بالخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل وبهامشه تفسير البغوي، ٤ج، (بيروت: دار الفكر ط١٣٩٩هـ-١٩٧٩م)، (٤١٣/١).

وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ (١).

الجزء من الآية يتضمن حادثة المجموعة التى همت يوم الحديبية أن تغدر برسول الله ﷺ وبالمسلمين وتأخذهم على حين غفلة ولكن اطلع الله النبي ﷺ على ماتمالئوا عليه(٢).

فالله تعالى " **يحذر المؤمنين، أن يخالفوا أمره وميثاقه، فيستوجبوا بذلك العقاب، وعلى الله فلنلق أزمة أمورنا ونسلم لقضائه، ونثق بنصرته وعونه المقرون بوحدانيته ورسالة رسوله فذلك هو كمال الدين وتمام الإيمان**"(٣).

وفي الآيتين السابقتين فائدة عظيمة حينما قرن التوكل بوحدانية الله سبحانه وتعالى في لفظ الجلالة (الله) المألوه المعبود، ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين؛ وذلك لتحفيز المؤمنين على التوكل عليه سبحانه، وفي كلمة التوحيد والإيمان استجاشة وتقوية على النهوض بتكاليف الشريعة، والتكاليف العليا، وحتى يكون هناك صلة عظيمة مع الله متجردة من كل النوازع المعوقة، وفي هذا الخطاب يظهر معنى التقوية للمؤمنين وطمأنينتهم، وأن الله راعيهم وكالئهم وناصرهم على عدوهم لامحال.

قال تعالى : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَـٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ (٤).

---

(١) سورة المائدة، آية: ١١ .
(٢) انظر : ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٥١/٢)؛ أحمد مصطفى المراغي، (٧٠/٢).
(٣) ابن جرير الطبري، تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٤٧/٣).
(٤) سورة المائدة ، آية: ٢٣ .

تتضمن الآية الكريمة المعنى التالي " وعلى الله تعالى خاصة "توكلوا " بعد ترتيب الأسباب، ولاتعتمدوا عليها فإنها لاتؤثر من دون إذنه "إن كنتم مؤمنين"، المراد بهذا الإلهاب والتهييج، وإلا فإيمانهم محقق، وقد يراد بالإيمان التصديق بالله تعالى ومايتبعه من التصديق بوعده " إن كنتم مؤمنين" به تعالى مصدقين لوعده فإن ذلك مما يوجب التوكل عليه حتما"[١].

" فإن في التوكل على الله – وخصوصا في هذا الموطن – تيسيرا للأمر، ونصر على الأعداء، ودل هذا على وجوب التوكل، وعلى أنه بحسب إيمان العبد؛ يكون توكله"[٢].

كما أن هذه الآية الكريمة خبر من الله عز وجل وترغيب منه سبحانه وتعالى في المضي لأمره ثقة به وطاعة لأمره، فشرط الإيمان التوكل، ومن هنا تبرز قيمة الإيمان بالله والخوف منه، وهذه قاعدة عظيمة ومهمة في علم القلوب ومنطق الإيمان ومقتضاه هو التوكل عليه سبحانه وهو خاصية الإيمان وعلامته.

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[٣] دليل إخلاص الاعتقاد والعبادة لله عز وجل فلايمكن أن يجتمع في قلب واحد، توحيد الله، والتوكل على أحد غيره سبحانه؛ فالمؤمن الحق هو من يرجف قلبه عند ذكر ربه والقلب المؤمن يجد في آيات القرآن ما يزيده إيمانا وينتهي به إلى الاطمئنان، ثم إلي التوكل على الله وحده فنجد هنا الإيمان في صورة مشاعر وحركات فتجد الوجل، والخوف يملآن القلب، ويظهر الإيمان

---

(١) العلامة الألوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ٣٠ج (بيروت: دار إحياء التراث العربي ط الرابعة ١٤٠٥هـ–١٩٨٥م) ح(٥-٦) (١٠٧/٦).

(٢) عبدالرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٥١٥/١).

(٣) سورة الأنفال، آية: ٢.

والاتكال على الله وحده سبحانه وتعالى ذلك أن الإيمان تصديق القلب وعمل الجوارح بمعنى هو كل ماوقر في القلب وصدقه العمل، فالعمل هو الدلالة الظاهرة للإيمان الذي لابد من ظهوره في المشاعر والجوارح، والمراد من الآية:

" أن حصول الخوف من الله والفزع منه عند ذكره هو شأن المؤمنين الكاملي الإيمان، المخلصين لله فالحصر باعتبار كمال الإيمان لا بإعتبار أصل الإيمان"(١).

فالآية متضمنة التحريض والإلهاب على طاعة الله ورسوله وهذه مزية لمن كمل إيمانه، فالمعنى أن المؤمنين الكاملين هم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت آياته زادتهم وجلا يفوضون أمورهم كلها إلى مالكهم ومدبرهم خاصة لا إلى أحد سواه.

فذلك الذكر بالقول والعمل يزيدهم علما مالم يكونوا قبل ذلك علموه، وتزيدهم الآيات عملا بذلك العلم، وتزيدهم تذكرا لما كانوا نسوه، وعملا بتلك التذكرة.

فهذه الصفات المذكورة في الآية القرآنية لايجدها في نفسه وعمله إلا المؤمن الحق، فمن لم يجدها جملة لم يجد صفة الإيمان.

وقوله تعالى : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾(٢).

وقوله تعالى:﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾(٣).

---

(١) محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير، الجامع بين فني الرواية: والدراية: من علم التفسير، (بيروت: دار الفكر، الطبعة ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م)، ج٢، ص٢٨٥.

(٢) سورة التوبة، آية: ٥١ .

(٣) سورة المجادلة، آية: ١٠ .

وقولـــــه تعـالـــــــى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(١).

ففي الآيات الكريمة السابقة أن التوحيد والتوكل على الله تعالى هو اختصاص المؤمنين الموحدين المتوكلين فهم يفعلون ماهو حقهم من اختصاصه جل شأنه بالتوكل الكامل، وما هذا إلا نتاج الإيمان المتغلغل في قلوب المؤمنين(٢).

" إن الألوهية مقتضية للتبتل إليه تعالى بالكلية، وقطع التعلق بالمرة عما سواه من البرية، وذكر بعض الأجلة أن تخصيص المؤمنين بالأمر بالتوكل، لأن الإيمان بأن الكل منه تعالى يقتضي التوكل، ومن هنا قيل: ليس في الآيات لمن تأمل في الحث على التوكل أعظم من هذه الآية لإيمائها إلى أن من لايتوكل على الله تعالى ليس بمؤمن وهي على ماقال الطيبي كالخاتمه، والفذلكة لما تقدم، وكالمخلص إلى مشرع آخر"(٣).

فتوحيده سبحانه وإخلاص العمل له والتوكل عليه إيماء إلى أن المؤمن لايعتمد إلا عليه ولايتقوى إلا به في جميع أموره، فلا قادر إلا هو عز وجل فمن خلال الآيات القرآنية علم أن التوكل مقام من مقام المؤمنين الذين يعملون لتحقيق معنى التوحيد لله، وإخلاصه له سبحانه؛ فعلم أن في ربط التوكل بالإيمان وقرنه به من المبالغة في الحث عليه؛ لأنه من توابعه ومقتضياته، فالتوكل على الله له منزلته، والتوكل على الله لابد أن يصفو به اليقين ويثبت بحقائق العمل، ويثبت في عقود الإيمان؛ لأن الإيمان الصادر من القلب لايساويه في القوة والتأثير أي باعث آخر.

فالإيمان المتعمق في القلب هو في ظاهره يدل على سلامة إيمان المرء الذي يؤمن أن هناك ربا لابد من توحيد ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ونعمل بهذا

---

(١) سورة التغابن، آية: ١٣

(٢) انظر: ناصر الدين أبي سعيد عبدالله الشيرازي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (دار الجيل بدون تط) ص ٢٥٦ .

(٣) الألوسي – روح المعاني، ج (٢٧-٢٨)، (٢٨/١٢٥-١٢٦) .

التوحيد لننال سعادة الدنيا والآخرة، ولايتحقق معنى التوكل الكامل إلا على وجه يوافق الشرع، وماجاء في الأخبار الصحيحة عن رسول الله ﷺ فهو القدوة والمثل الأعلى، وهو المبين والمفسر لما أجمل وخفي على أمته، ثم من أتى بعده واحتذى بسنته، فهم من رأوا وحضروا الوقائع والأحداث ومن جاء بعدهم من السلف الصالح الذي كان يتحرى الأخبار الصحيحة فعرف وعرف ماعلموه وأوضحوه لنا.

المبحث الأول

التوكل على الله جزء من عقيدة المؤمن

إن عقيدة المؤمن مليئة بقضايا الحق البدهية المسلمة بالعقل، وذلك كاعتقاد الإنسان بوجود خالقه.

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾[١].

فقضية الخلق من القضايا المسلمة بالعقل، فهو الرب العظيم الذي خلق وربى ودبر وهدانا إلى التقوى.

قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[٢]، وبهذه الآية الكريمة نستدل على أنه سبحانه وتعالى الخالق لهذا الكون الفسيح ومنه :

" **تقرر في العقول من وجوب انتهاء الممكنات إلى واحد واجب الوجود**"[٣]، وكذلك من قضايا الحق علم الله وقدرته وغناه وإفتقار العبد إليه سبحانه وتعالى.

قال تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾[٥].

---

(١) سورة الأنعام، آية ١٠٢.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٦١ .

(٣) البيضاوي ، تفسيره، ص٥٣٣.

(٤) سورة محمد، آية: ١٩ .

(٥) سورة طه، آية: ٧ .

وقولـه تعـالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[١].

وقولـه تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[٢].

فالآيات القرآنية السابقة دالة على أن الله هو المعبود ذو العلم والقدرة المحيطة بكل شيء، والغني عن خلقه، وخلقه في حاجة إليه فبالله وحده عليه توكله واعتماده وإنابته إليه.

قال تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾[٣].

فالتوكل قضية مهمة في عقيدة المؤمن فلابد من عقد هذه القضية وتوثيقها وإحكامها وربطها بقوة في قلب المؤمن، فمنها يصلب ويشتد المؤمن ويقوى على امتثال أمر الله وسننه في الكون؛ لذا تقرر على الجماعة المسلمة في كل زمان ومكان أن تزن الأمور جميعها بميزان الإيمان والعقيدة، وأن تدرك الأمور ببصيرة المؤمن وقلبه وترى بنور الله، ولاتستهين بذلك لأنه في :

" ظل العقيدة الإسلامية الصحيحة يتحقق الأمن والحياة الكريمة، ذلك أنها تقوم على الإيمان بالله، ووجوب إفراده بالعبادة القلبية والعملية دون سواه،وذلك ـبلا شك ـ سبب الأمن والخير والسعادة في الدارين. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[٤]. فهذا مصير أهل الإيمان "[٥].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٩ .
(٢) سورة فاطر، آية: ١٥ .
(٣) سورة النمل، آية: ٧٩ .
(٤) سورة الأنعام، آية: ٨٢.
(٥) انظر: لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز، في ظل الشريعة الإسلامية يتحقق الأمن والحياة الكريمة للمسلمين، (الرياض: دار إمام الدعوة تط الأولى ١٤١٢هـ-١٩٩٢م)، ص٦-٣٠.

فمتى سلمت العقيدة يسلم معتنقها من الانحراف واتباع الهوى وينشرح صدره للنور المبين.

قال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾[2].

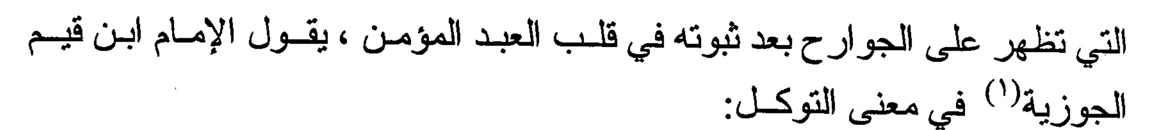
فهذا النور يلمسه المؤمن ويشعر به، ويؤمن أن هناك قوة مدفونة في قلبه ألا وهي الثقة في الله والتوكل عليه في أموره كلها .

وقضية التوكل ثابتة بالكتاب والسنة المطهرة ولابد من اليقين الجازم، والرضى، وإعلان هذه القضية العقدية الأخلاقية بالقول والعمل بمعنى أن يكون الظاهر مطابقا للباطن.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[3].

والتوكل من لوازمه أن يصدر من أعماق قلب الشخص، وتكون قوة اليقين بحسب تغلغله في القلب، وبمقدار مافيه من صدق خال من الشكوك، والعوارض المرضية فعمل المؤمن لايخرج عن اثنين: أحدهما: أعمال قلبية، وثانيهما: أعمال مختصة بالجوارح بينهما من الارتباط ماهو معلوم، فالتوكل من الأعمال والعبادات

(١) سورة الزمر، آية: ٢٢ .
(٢) سورة النساء، آية: ١٧٤.
(٣) سورة فصلت، آية: ٣٣.



التي تظهر على الجوارح بعد ثبوته في قلب العبد المؤمن ، يقول الإمام ابن قيم الجوزية[(١)] في معنى التوكل:

قال أبو تراب النخشبي[(٢)]: (**هو طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية. فإن أعطى شكر، وإن منع صبر**)[(٣)].

فالإيمان بالله تعالى من أعمال القلوب، قال تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[(٤)].

فالآية دليل على أن دخول الجنة منوط بما هو معقود من إيمان صحيح بالقلب يتبعه العمل الصالح معا، فالمؤمن برحمة ربه جدير بدخول الجنة جزاء وفاقا لإخباته، وإنابته، وتوكله، وإخلاصه لربه في السر والعلن، **وفي هذا يكون (الإيمان له ظاهر وباطن، وظاهره قول اللسان، وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب، وانقياده، ومحبته فلاينفع ظاهر لاباطن له، وإن حقن به الدماء وعصم به المال والذرية، ولايجزئ باطن لاظاهر له إلا إذا تعذر بعجز أو إكراه وخوف وهلاك. فتخلف العمل ظاهرا مع عدم المانع دليل على فساد الباطن وخلوه من الإيمان، ونقصه دليل نقصه، وقوته دليل قوته، فالإيمان قلب الإسلام ولبه، واليقين قلب الإيمان ولبه، وكل علم وعمل لايزيد الإيمان واليقين قوة فمدخول، وكل إيمان لايبعث على العمل فمدخول)**[(٥)]، **(وقد روي أن النبي ﷺ قال لسفيان بن**

---

(١) هو شمس الدين، أبوعبدالله، محمد بن أبي بكر ابن أيوب الزرعي، ولد سنة ٦٩١هـ، وتوفي سنة ٧٥١هـ، من كتاب الفوائد ترجمة في المقدمة .

(٢) أبوتراب النخشبي أحد أعلام المتوكلين؛ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصبهاني، مج (٩-١٠)، (٤٥/١٠).

(٣) ابن القيم، مدارج السالكين، (١٢١/٢).

(٤) سورة البقرة، آية: ٨٢.

(٥) ابن القيم، الفوائد، ص ١١٢.

عبدالله(١) الثقفي وقد قال له يارسول الله: " قل لي في الإسلام قولا لاأسأل عنه أحدا بعدك قال: قل آمنت بالله ثم استقم")(٢)، (فليس الإيمان بالتحلي ولابالتمني، ولكن ماوقر في القلب وصدقته الأعمال)(٣).

وقد ظهر في خطاب القرآن الكريم للمؤمنين أن معظم التكاليف والأخلاق والآداب الشرعية السلوكية مبنية على تحقق القاعدة الإيمانية لدى المخاطبين بها، فأكثر هذه التكاليف نجدها مصدرة بنداء الله عز وجل المحبب للمؤمنين: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ .

فمنها قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ ... ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾(٥) وغيرها كثير.

فالعقيدة كما اتضح لنا لها تأثير على السلوك بوجه عام فهي حافز في عمق كل مؤمن والرسول - ﷺ - هو المثل والقدوة في ذلك .

ومن وجهة نظري فإن الإيمان الحق هو الذي يشتمل على ركيزتين هامتين والله أعلم في ذلك :

---

(١) سفيان بن عبدالله الثقفي ولد سنة ٩٧، توفي سنة ١٦١؛ من كتاب تهذيب التهذيب لابن حجر،(٣ / ٤٠٠).

(٢) شرح النووي لصحيح مسلم، (القاهرة: دار الريان للتراث ١٤٠٧هـ، وبيروت : دار الكتب العلمية ١٣٤٩هـ)، (٣٨).

(٣) انظر: الخطيب البغدادي، اقتضاء العلم العمل، تحقيق ناصر الدين الألباني، (الكويت" دار الأرقم بدون تط) ص٤٣.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٧٨ .

(٥) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

أولاهما: العقيدة الثابتة التي لايخالطها شك.

وثانيهما: العمل الذي يصدق العقيدة وهو ثمرتها.

فالتوكل عمل قلبي إذا صدق ظهر على جوارح العبد المؤمن، وهذا مانراه في آيات كثيرة.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[1].

فتدل الآية على أن مقولة الناس لهم زادتهم إيمانا بالله وثقة به " **فزادهم ذلك من تخويف من خوفهم ..... يقينا إلى يقينهم، وتصديقا لله، ولوعده ووعد رسوله إلى تصديقهم ..... فقالوا ثقة بالله وتوكلا عليه..... " حسبنا الله ونعم الوكيل" يعني ..... يكفينا و"نعم الوكيل" ونعم المولى لمن وليه وكفله**"[2].

فالقلب المؤمن إذا انطوى على اليقين والوثوق به سبحانه وتعالى، تأكد من أن الله لن يضيعه، وما تلك المقولة إلا تعبير صادق عن إيمانهم. أي أن الله كافينا مايهمنا من أمر الذين جمعوا لنا فما علينا إلا العمل بما أمر، والتوكل عليه، وتفويض جميع أمورنا إليه سبحانه عز وجل .

وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٧٣.

(٢) ابن جرير الطبري، تفسيره، (٣٦٤/٢).

(٣) سورة النساء: آية: ٨١ .

وقال تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١).

ففي الآيتين بيان أن مقام التوحيد لايتحقق إلا بفعل الطاعات، وطاعتنا لأمر رسول الله ﷺ هي من العبادات؛ لأنه مرسل من رب العباد، ومقام التوحيد العظيم هو طاعة الله الذي أمر به وهو من طاعة رسوله المبلغ عنه .

قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ... ﴾(٢).

فطاعته قد تغلغلت في أعماق النفوس، وتجذرت في القلب، وبهذا يكون الإيمان والعقيدة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالنفس، وهذا ما دلت عليه الآيتان .

والقرآن العظيم كله دعوة إلى التربية والأخلاق التي لايمكن الاستغناء عنها بل هي من الأمور الأساسية التي لابد منها لاستقامة الإنسان في الحياة لينال سعادة الآخرة.

قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(٣).

فالله تعالى يرغب عباده في العمل الصالح المبني على الإيمان بالله الذي هو أساس في قبول الأعمال، ويترتب عليه سعادة الدارين، فالعمل إذا لم يكن مقرونا بالإيمان لاينفع صاحبه.

ومن هذه الأعمال والأخلاق والعبادات ماتدعو إلى صفاء النفس وتهذيبها أو إلى حسن السلوك مع الآخرين.

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٤٩ .
(٢) سورة الحشر، آية: ٧ .
(٣) سورة النحل، آية: ٩٧ .

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣ ﴾[(١)].

" فهذه آيات أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين، فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام...[(٢)]؛ فالسورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وهي إما مع الله تعالى، أو مع الرسول ﷺ أو مع غيرهما من أبناء جنسهم..."[(٣)].

فهذه الآداب والأخلاق قواعد يتعامل بها المؤمنون مع أنفسهم أولا، ثم مع الآخرين ولاسيما إذا كان من يتعاملون معه هو الرسول النبي الأمي ذو المكان والمقام الرفيع عند الله تعالى.

والآداب القرآنية كما ذكرنا كثيرة وفي اتجاهات عديدة، ولهذا نرى الإسلام يأمر بالأدب في المأكل والمشرب والمشي وفي التواضع، وعند الكلام، وعند المقابلة، وتجميل الباطن وتحسينه، والسعي إلى معالي الأمور مثل الأعمال العلمية، وعمل الخيرات ومكارم الأخلاق التي يمدح فيها الناس.

قال تعالى: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴾[(٤)].

---

(١) سورة الحجرات، آية: (١-٣).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٣١٥/٤).

(٣) انظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، (بيروت: دار الفكر، ط الثالثة ١٤٠٥هـ)، (مج١٤) (١١٨/٢٨).

(٤) سورة المطففين، آية: ٢٦ .

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ... ﴿١٩﴾ ﴾[(١)].

وقال الرسول الكريم لأبي سلمة " ياغلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك "[(٢)].

وعن الكلام، قال تعالى: ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾[(٣)].

وعند المقابلة والنهي عن تصعير الخد، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾[(٤)].

فهذه الآداب إذا ركزت فهي قواعد، وإذا صلبت فلن تحيد ولن تضطرب وإذا لم يهتم الإنسان بتلك القواعد ولم يعرها اهتمامه فستحكم حياته الفوضى ويعمها اللامبالاه وذلك لأن الحافز والمؤثر الأساسي مفقود.

فالأخلاق السابقة عظيمة تدعو إلى الإيمان مع ربطها بخلق إسلامي عظيم فإن أخلاق الإسلام منتشرة في رحاب كتاب الله الخالد إلى يوم القيامة تدعو إلى أنبل قصد وأسمى غاية، ونخص بالذكر هنا خلق التوكل، فالقرآن يدعو إليه بشتى الأساليب.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[(١)].

---

(١) سورة لقمان، آية: ١٨-١٩ .

(٢) فتح الباري لابن حجر العسقلاني، (٤٥١/١١)، كتاب الأطعمة.

(٣) سورة لقمان، آية: ١٩ .

(٤) سورة لقمان ، آية: ١٨ .

ففي الآية المؤمن الحق هو المؤمن المتوكل على الله إذا هم أن ييأس تذكر أن الله وليه فيفر اليأس منه، ويعلم أن الله له ملكوت كل شيء.

" فكفاية الله تجلت في الهدوء والطمأنينة فأصبح ضبط النفس وسماحة القلب، وإقامة العدل ميسورة، ويستحي المسلمون أن لايفوا بميثاقهم مع الله، وهو يرعاهم ويكلؤهم، ويكف الأيدي المبسوطة إليهم "[٢].

وهناك أساليب دعت إلى التوكل على الله مستوحاة من التربية القرآنية نذكر منها هنا مايفيد البحث على سبيل الإيجاز والقصر فمن أهمها:

١- الأمر الصريح بالتوكل على الله تعالى.

٢- ثناء الله على المتوكلين .

٣- أنه من صفات الأنبياء والمرسلين .

٤- وعد الله بكفاية من توكل عليه .

٥- كونه شرطا في تحقيق الإيمان .

أولا: الأمر الصريح بالتوكل على الله :

التوكل من خلق رسولنا الكريم ﷺ فقد رسخ عقيدة وخلقا، فأمر تعالى رسوله بالتوكل عليه، فسأذكر آيات فيها أسلوب الأمر على سبيل الإيجاز لا الحصر.

---

(١) سورة المائدة، آية: ١١ .

(٢) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ٨مج (جده: دار العلم للطباعة، تط ١٢-١٤٠٦هـ-١٩٨٦م)، (٢/٨٥٤).

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾(1).

وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾(2).

وقال تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(3).

وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(4).

والتوكل من خلق رسولنا الكريم ﷺ فقد رسخ عقيدة وخلقا وربى الرعيل الأول رضوان الله عليهم على التوكل على الله فرسخ وتمكن من قلوبهم.

فالآيات الكريمة السابقة جميعها أمر من الله تعالى لنبيه بالتوكل عليه وللمؤمنين تبع له.

فالآية من سورة النساء أمر من الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم بالإعراض عن المنافقين .

" فاعرض عنهم قلل المبالاة بهم أو تجاف عنهم وتوكل على الله في الأمور كلها لاسيما في شأنهم وكفى بالله وكيلا يكفيك معرتهم وينتقم لك منهم"(1).

---

(1) سورة آل عمران، آية ١٥٩.
(2) سورة النساء، آية ٨١ .
(3) سورة الأنفال، آية ٦١.
(4) سورة هود، آية ١٢٣.

والآيـة مـن سـورة هـود أمـر بـالتوكل فـالله تعـالى كـافي رسـوله كـل مـايكره ومعطيه كل مايحب، والفاء لترتيب الأمر بالعبادة، والتوكل على أن مرجـع الأمـور كلها إلى الله سبحانه[٢].

فها هو القرآن منـهج تربيـة للنفس والمجتمـع ولاسـيما إذا كـانت تلـك النفس هي نفـس محمـد ﷺ ومجتمـع كمجتمـع الصحابـة رضـوان الله عليهم أجمعين، فالآية تتضمـن معنـى " **لاتـهتك سترهم ولاتفضحـهم ولاتذكرهـم بأسمـائهم، وإنمـا أمـر الله ستر أمـر المنـافقين إلـى أن يستقيم أمر الإسلام، ثـم قـال (وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ) فـي شـأنهم، فـإن الله يكفيك شرهم وينتقم منهم (وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا) لمـن توكل عليه**"[٣].

والرسول ﷺ من أكثر الناس توكلا على ربه العلي القدير وهـذا مـايدل عليـه موقفه ﷺ يوم الخنـدق ومابلغـهم مـن تـآمر قريـش وأحزابـهم وحلفائـهم، فوقـف ﷺ موقف المتوكل على الله في اموره وأحواله.

قـــال تعـــالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣ ﴾[٤].

---

(١) البيضاوي، تفسيره، ص ١١٩ .
(٢) الشوكاني، فتح القدير، (٢/٥٣٥).

(٣) الفخر الرازي،التفسير الكبير،مفاتيح الغيب، (١٠/٢٠١).
(٤) سورة الأحزاب، آية ١-٣.

" واكتف بالله وكيلا أي حافظا موكولا إليه كل أمر. أو المعنى: وكفى به وكيلا لمن توكل عليه وأناب إليه"[1].

(١) ابن عاشور، الأساس في التفسير، (دار السلام، تط الثانية، ١٤٠٩هـ)، (٨/٤٣٨٦).

ثانيا: ثناء الله على المتوكلين :

إن القرآن تنزيل من رب العالمين، وفيه مايثير النفس ويدعو للتتبع والتأمل ففي ثناء الله مايدعوا إلى الحث على فعل الشيء والقرآن حين يستخدم أسلوب الثناء فإنه يخبر بأن العاقبة حسنة في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[1].

إن الله تعالى إذا أحب عبدا رزقه طاعته فيمتلئ قلب العبد معرفة بالله وخوفا ومهابة وإنابة وتوكلا ولايبقى في القلب إلا الله ولاتستطيع الجوارح إلا موافقة المحبوب.

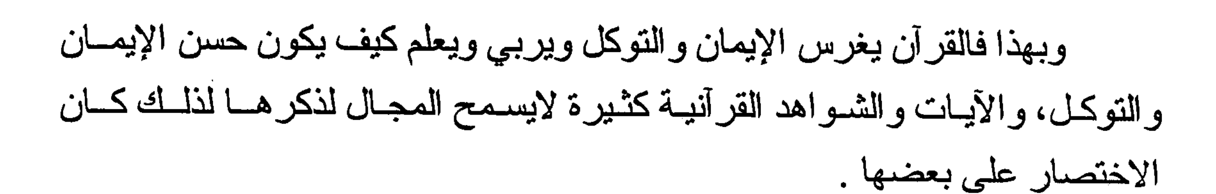
فالله تعالى يحب الراضون بقضائه والمستسلمين لحكمه المتوكلين عليه في أمورهم جميعها[2].

وقال تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾[3].

" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ففوض أمرك إلى الله يامحمد، وثق به فيها، فإنه كافيك "إنك على الحق المبين" لمن تأمله، وفكر مافيه بعقل، وتدبره بفهم، أنه الحق"[4].

فالآية فيها تعليل صريح للتوكل عليه بكونه عليه الصلاة والسلام على الحق المبين[5].

(١) سورة آل عمران، آية ١٥٩.
(٢) ابن جرير الطبري، جامع البيان، (٣٥٥/٢).
(٣) سورة النمل، آية ٧٩ .
(٤) المصدر السابق، (٥٨١/٥).
(٥) أبي السعود، إرشاد العقل السليم، مزايا الكتاب الكريم، (٢١٥/٤).



وبهذا فالقرآن يغرس الإيمان والتوكل ويربي ويعلم كيف يكون حسن الإيمان والتوكل، والآيات والشواهد القرآنية كثيرة لايسمح المجال لذكرها لذلك كان الاختصار على بعضها .

ثالثا : كونه من صفات الأنبياء والمرسلين :

أمر تعالى الأنبياء السابقون بالتوكل عليه وجعلوه نبراس حياتهم ليمضوا في طريق الدعوة.

قال تعالى:﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾[1].

وقال تعالى على لسان موسى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[2]، وفي الآية من قول نوح :

" خبره مع قومه إذ قال لقومه إن عظم عليكم وشق كوني إقامتي بينكم مدة مديدة أو قيامي على الدعوة وتذكيري إياكم بآيات الله (فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ) وثقت به (فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ) فاعزموا عليه وشركاءكم أي مع شركائكم فاجمعوا من الجمع والمعنى أمرهم بالعزم أو الاجتماع على قصده والسعي في إهلاكه على أي وجه يمكنهم ثقة بالله وقلة مبالاة بهم، ثم لايكن أمركم في قصدي عليكم غمة ستورا، واجعلوه ظاهرا مكشوفا من غمة إذا ستره (ثُمَّ لَا

---

(١) سورة يونس، آية: ٧١.

(٢) سورة يونس، آية: ٨٤-٨٥.

يَكُنْ) حالكم عليكم غما إذا أهلكتموني وتخلصتم من ثقل مقامي وتذكيري ثم (ٱقْضُوٓاْ) أدوا إلي ذلك الأمر الذي تريدون ثم انتهوا إلى بشركم أو ابرزوا إلي (وَلَا تُنظِرُونِ) ولاتمهلوني فإن أعرضتم عن تذكيري فما سألتكم من أجر يوجبُ توليكم إن أجري وثوابي على الدعوة والتذكير إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين المنقادين لحكمه لا أخالف أمره ولا أرجو غيره"(١).

وفي الآية الثانية من نفس السورة قول موسى: " ياقوم إن كنتم آمنتم بالله عليه توكلوا فثقوا به واعتمدوا عليه إن كنتم مسلمين مستسلمين لقضاء الله مخلصين له، ولأنهم كانوا مؤمنين مخلصين قالوا توكلنا على الله، وفي تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغي أن يتوكل أولا لتجاب دعوته"(٢).

وأمر هود عليه السلام، قال تعالى: ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٣).

وأمر شعيب عليه السلام، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾(٤).

---

(١) البيضاوي ، تفسيره ، ص ٢٨٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٨٦.

(٣) سور ة هود، آية ٥٦.

(٤) سورة هود، آية ٨٨ .

وأمر إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1].

وأمر يعقوب عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[2].

وأمر نبي الرحمة المهداة محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾[3].

فالآيات جميعها دالة على أمر الله تعالى لأنبيائه بالتوكل والاعتماد عليه سبحانه في سبيل نشر دعوتهم دعوة الحق وبذل الجهد والسعي لأجل إعلائها.

---

(١) سورة الممتحنة، آية ٤.

(٢) سورة يوسف، آية ٦٧ .

(٣) سورة الرعد، آية ٣٠ .

رابعا : وعد الله بكفاية من توكل عليه :

إن القرآن الكريم بهذا الاسلوب يدعوا إلى التمسك بالتوكل على الله، فمن أصاب التوكل في أعماله جاءته بعد ذلك كل الوعود التي وعد بها سبحانه عباده لمن تمسك بالتوكل وجعله صبغة أفعاله، فالمؤمن يتلقى أوامر ربه ويلقيها على جميع جوارحه، فإن أطاعته هذه الجوارح وخضعت نال مراده من رب العباد عاجلا أم آجلا.

قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[1].

فالله تعالى في هذه الآية يكفل لحبيبه ﷺ أموره تجاه مخالفيه وأعدائه من أهل الكتاب والمنافقين .

"(وتوكل) أنت يامحمد "على الله" يقول أو فوض أنت أمرك إلى الله، وثق به في أمورك، وولها إياه، "وكفى بالله وكيلا" يقول وكفاك بالله . أي: وحسبك بالله. "وكيلا" أي فيما يأمرك، ووليا لها، ودافعا عنك وناصرا"[2].

وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[3].

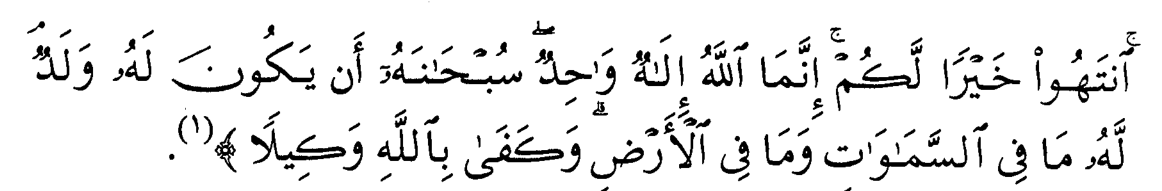
وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ

---

(١) سورة النساء، آية ٨١ .

(٢) ابن جرير، جامع البيان، (٥١٢/٢).

(٣) سورة النساء، آية ١٣٢.


ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾[1].

ففي الآيتين معنى اتخاذه سبحانه وكيلا ولانتوكل على غيره[2].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴾ [3].

وقال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾[4].

وفي الآيتين معنى أنه سبحانه متصرف بكيفية كفايته تعالى للمؤمنين في سلب قدرة الأعداء من الإنس والجن على الإغواء[5].

" أن الوكيل: من يتوكل عليه، فتفوض الأمور إليه، ليأتي بالخير ويدفع الشر، وهذا لايصح إلا لله وحده جل وعلا، ولهذا حذر من اتخاذ وكيل دونه، لأنه لانافع ولاضار، ولاكافي إلا هو وحده جل وعلا، عليه توكلنا، وهو حسبنا ونعم الوكيل"[6].

فأقول وبالله التوفيق: إن التوكل على الله هو أن يعلم المؤمن أن الله قد ضمن وكفي له الرزق وغيره فيصدق الله فيما ضمنه وكفاه إياه ويثق بقلبه ويحقق الاعتماد عليه سبحانه فيما ضمنه وكفاه.

---

(١) سورة النساء، آية ١٧١.

(٢) انظر: ابن جرير، المصدر السابق، (١٧٠/٢).

(٣) سورة الإسراء، آية ٦٥.

(٤) سورة الأحزاب، آية ٣ .

(٥) أبوالسعود، إرشاد العقل، (٣٤١/٣)؛ ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، (المكتب الإسلامي، تط الثالثة ١٤٠٣هـ)، (٦٠/٥).

(٦) الشنقيطي، أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن، (بيروت: عالم الكتب)، (٤٠٤/٣).

خامسا: كونه شرطا في تحقيق الإيمان وشعبه:

إن المتتبع لآيات القرآن الخاصة بالتوكل يلحظ أن الله تعالى كثيرا ما ربط التوكل بالإيمان وبالإسلام.

ففي قوله تعالى: :﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٥).

وقوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٢٢.
(٢) سورة المائدة، آية: ١١.
(٣) سورة المائدة، آية: ٢٣.
(٤) سورة الأنفال، آية: ٢.
(٥) سورة الأنفال، آية: ٤٩ .

أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾[١].

وقولـــه تعـــالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[٢].

فمن خلال هذه الآيات التي استعرضناها نجد أن الله تعالى قد قرن بين التوكل ومراتب الدين: الإيمان، والإسلام، والإحسان، فعلى ذلك نقول إن التوكل هو جماع الإيمان، وماهذا إلا إشارة إلى علو منزلة التوكل على الله، والتوكل كما أشرنا عمل قلبي، والقلب موضع الإيمان الأصلي .

" فأصل الدين في الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال، وأن الأعمال الظاهرة لاتنفع بدونها؛ والدين القائم بالقلب من الإيمان علما وحالا هو الأصل، والأعمال الظاهرة هي الفروع، وهي كمال الإيمان، فالدين أول مايبتديء بأصوله ويكمل بفروعه"[٣].

وكذلك الآيات دالة على أن المؤمن الحق هو من يتذكر أن الله تعالى وليه ووكيله، فينصره بما يستفيد من الإيمان والذكر والتقوى، ولاتحصل حقيقة التوكل إلا بالسير على سنن الله في نظام الأسباب والمسببات؛ لأن من يوكل الأمر إلى الله يجب أن يطاع، ومن تنكب سنن الله سبحانه وتعالى في العالم خالف شرعه فيما أمر به من عمل نافع ونهى عنه من عمل ضار لايصح أن يسمى متوكلا عليه واثقا به فكل من تابع وأطاع أمر الرسول ﷺ ووافقه فسيكون الظفر والنصر وكلما دخل الكم الهائل من طاقة لطاعة الرسول في القلوب فسوف يصل إلى الكسب؛ لأن الأمر منه وإليه

---

(١) سورة يونس، آية: ٧١ .

(٢) سورة يونس، آية: ٨٤-٨٥.

(٣) أحمد بن تيميه شيخ الإسلام، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد (ط الأولى ١٣٩٨هـ)، (١٠/١٥).

سبحانه وتعالى، " **فعلى الله وحده يتوكل المؤمن، وهذه خاصة الإيمان وعلامته، وهذا منطوق الإيمان ومقتضاه**"[١].

قال تعالى: ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[٢]، إن خلق التوكل لايكون إلا بعد بذل الوسع في مراعاة السنة وامتثال الأمر، والله تعالى هو الموكول إليه كل شيء ولايكون ذلك إلا بالإيمان والإذعان والاستسلام والاطمئنان، قال تعالى: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[٣]، والتوكل هنا بالتفويض وترك الاختيار.

كذلك ربط الله سبحانه وتعالى آيات الوحدانية والعبادة له وإخلاص الأمر والتقوى بالتوكل.

قال تعالى: ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٤].

والمعنى في جملة " إني توكلت" تعليل المضمون " فكيدوني" وهو التعجيز والاحتقار بمعنى أنه واثق بعجزهم عن كيده؛ لأنه متوكل على الله، فهذا معنى ديني قديم، وأجرى على اسم الجلالة صفة الربوبية استدلالا على صحة التوكل عليه في دفع ضرهم عنه، لأنه مالكهم جميعا يدفع ظلم بعضهم بعضا وجملة {مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ} في محل صفة لإسم الجلالة أو حال منه، والغرض منها مثل الغرض من صفة الربوبية ... وجملة {إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ} تعليل لجملة {إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ} أي توكلت عليه لأنه أهلٌ لتوكلي عليه، لأنه متصف بإجراء أفعاله على طريق العدل والتأييد لرسله[٥].

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، (٢/٨٧٠).
(٢) سورة هود، آية: ١٢٣.
(٣) سورة هود، آية: ٨٨ .
(٤) سورة هود، آية: ٥٦ .
(٥) انظر لمحمد طاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٢/١٠٠-١٠١).



فذكر التوكل أولا لأنه من أعلى مقامات التوحيد ومن لوازمه ومقتضياته.

قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

وقال تعالى ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾[3].

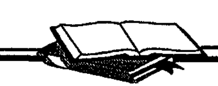
وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[4].

فهذه المواضع جمعت العبادة والتوكل والاستعانة، فالله تعالى لم يأمر بالتوكل فقط، بل أمر بالتوكل وبعبادته التي تتضمن فعل ماأمر وترك مانهى فالعابد لله عبودية تامة متوكل عليه فهذا هو من عرف الطريق ولزم الجادة[5]، فالتوكل لن يكون صحيحا إلا إذا وجدت العبادة الحقة لله سبحانه، وقام العبد بخصائصها على أكمل وجه.

قال تعالى: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[6].

---

(١) سورة هود، آية: ١٢٣.
(٢) سورة الممتحنة ، آية: ٤ .
(٣) سورة الرعد، آية: ٣٠.
(٤) سورة الشورى، آية: ١٠.
(٥) انظر: لشيخ الإسلام ابن تيمية، مجموع الفتاوي، (٥٢٧/٨).
(٦) سورة إبراهيم، آية: ١١-١٢.



ومفهوم الآية أن المؤمن لن يبلغ ماله من خلافة إلا بإذن ربه؛ لأن جماع الأمر كله بيده سبحانه. وقد قرن التوكل بالمؤمنين تأكيدا على اقتران التوكل بالإيمان تأكيدا على اقتران التوكل بالإيمان وبه تخلص الأعمال من وساوس الشيطان.

وليس للشيطان سبيل على المؤمنين المتوكلين وهذا مادلت عليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(١).

" إنه لا تسلط للشيطان على الذين يصدقون بلقاء الله ويفوضون أمورهم إليه، وبه يعوذون وإليه يلتجئون، فلا يقبلون مايوسوس به ولايطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته"(٢).

إن الاعتراف بالعبودية لله تعالى وتوحيده عز وجل لهو مخرج لكل إنسان من الابتلاء، ولاسيما إذا كان هذا العبد هو المؤمن، فما من سراء أو ضراء إلا ويعلم المؤمن أنها من الله ويحسبها على الله تعالى وهذا هو خلق المتوكلين، وهذا مادلت عليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٍ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(٤).

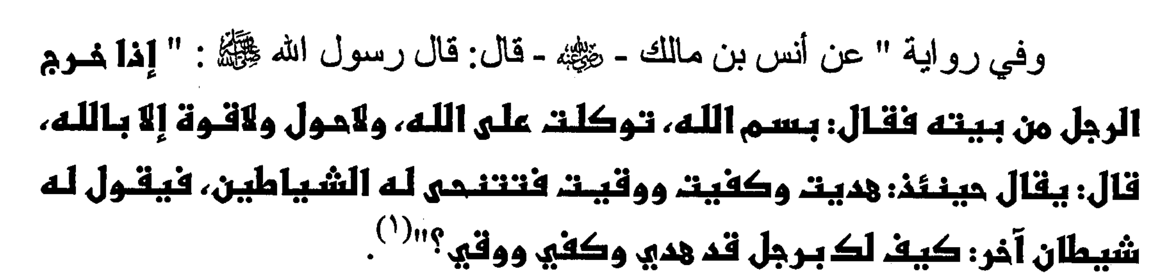
---

(١) سورة النحل، آية: ٩٩ .

(٢) المراغي، تفسيره، (١٤٠/٥).

(٣) سورة الزمر، آية: ٣٨ .

(٤) سورة الشوري، آية: ٣٦.



وفي رواية " عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ : " **إذا خرج الرجل من بيته فقال: بسم الله، توكلت على الله، ولاحول ولاقوة إلا بالله، قال: يقال حينئذ: هديت وكفيت ووقيت فتتنحى له الشياطين، فيقول له شيطان آخر: كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي؟**"(١).

فجميع المواضع التي ذكرت التوكل مقرونا بالوحدانية والعبودية في القرآن فيها معنى عظيم؛ أنه بعد إقرار الوحدانية والعبودية له سبحانه وتعالى، لاتمنع التوكل عليه، بعد أن أرانا الهدى والطريق القويم وعلى ذلك فليس للشيطان ولاية ولاطاعة على العبد المؤمن لأنه قد آمن وأقر بألوهية الله سبحانه وتعالى وأخلص له الجناب، وهذا كله من أحوال القلب وأعماله ومايكون من لوازم الإيمان الثابتة فيه لذلك فإن التوكل محض العقيدة الصحيحة؛ لأنه فريضة على العباد.

قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾(٢) ، وفي هذا أمر لرسول ﷺ ولأمته من بعده إلى يوم القيامة.

" **فالعبادة هي مايراد به وجه الله من كل عمل لايكمل إلا بالتوكل الذي يكمل به التوحيد**"(٣).

والناس تتفاضل في التوكل، وكذلك في الإيمان، ويكون ذلك على قدر اليقين الذي عندهم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(٤).

---

(١) أبوداود (٥٠٩٥) واللفظ له؛ الترمذي (٢٤٢٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وقال محقق " جامع الأصول" ٤/٢٧٤: وهو حديث صحيح .

(٢) سورة الفرقان، آية: ٥٨.

(٣) محمد رشيد رضا،تفسير المنار ،١٢مج (بيروت : دار الفكر ، ط الثانية بدون)، (١٩٧/٢).

(٤) سورة الأنفال، آية: ٢ .

فعلى قدر الإيمان واليقين يزيد التوكل رسوخا وثباتا في القلب " **والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والهداية**"[١] وصية منه لعباده المؤمنين بالتوكل الذي هو ذروة الإيمان، ومن أعلى درجاته، فعلينا أن نقيم العهد على رسوخه والعمل به في أمورنا كلها دينية ودنيوية، فهو يهيئ صاحبه للفوز بصحبة الأخيار في الفردوس الأعلى " **فاللهم لك الحمد وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولاحول ولاقوة إلا بك**"[٢] .

فالتوكل عقيدة لابد من الحرص على سلامتها ونبذ كل شبهة؛ لأن العقيدة لاتسلم إلا بإخلاص العبودية لله تعالى ويكون المرء بعد ذلك محققا مضمون تلك العبودية إرادة ومحبة وتوكلا، وإنابة وإخباتا وخشية ورجاء، كما حققها سلفنا الصالح رضوان الله تعالى عليهم علما وعملا.

---

(١) ابن قيم الجوزية، طريق الهجرتين وباب السعادتين، مجلد (الرياض: المطابع الإسلامية العربية، تط ١٤١٣هـ)، ص٢٥٥.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (١١٣/١).

المبحث الثاني

التوكل على الله من أعمال القلوب

لما كان القلب للأعضاء كالملك المتصرف في الجنود، كانت جميع الأعمال صادرة منه يستعملها فيما شاء فكلها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم[(١)]، " وسمي القلب قلبا لتقلبه في الأمور، أو لأنه خالص مافي البدن، وخالص كل شيء قلبه، أو لأنه وضع في الجسد مقلوبا وفي الحديث " **عن النعمان بن بشير يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول .... الا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**"[(٢)].

" **فالقلب خص في الحديث لأنه أمير البدن، وبصلاح الأمير تصلح الرعية وبفساده تفسد، وفيه تنبيه على تعظيم قدر القلب، والحث على إصلاحه**"[(٣)].

فالأصل في الاتقاء والوقوع هو ما كان بالقلب، لأنه عماد ذروة البدن؛ قال تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[(٤)].

---

(١) انظر: لابن رجب الحنبلي، وابن القيم، أبي حامد الغزالي، تزكية النفوس وتربيتها كما يقرره علماء السلف، جمع أحمد فريد، تحقيق ماجد بن أبي الليل (بيروت: دار القلم ط الأولى، ١٤٠٥هـ)، ص٢٤.

(٢) انظر: لصحيح البخاري مع فتح الباري، (١/١٦٨) كتاب الإيمان ، ومسلم في المساقاة من حديث النعمان بن بشير.

(٣) انظر: لابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (١/١٧١).

(٤) سورة الحجرات، آية: ١٤ .

فالآية: دليل على أن الإيمان من عمل القلب والإسلام من عمل اللسان، وإذا كان عمل القلب لم يدخل ويستقر فليس ذلك إيمان لأنه سبحانه وتعالى قد عبر بكلمة " في " وهي دالة على أن الإيمان لابد أن يغشي القلوب ويأسرها[١].

فالقلب ملك، منفذ يأمر النفس، وهو المسئول عنها؛ لأن كل راع مسئول عن رعيته ويستدل من قوله تعالى: ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾[٣]، **"على أن العقل في القلب، وعبر عنه بالقلب لأنه محل استقراره، وعلى تعلق جميع الأعمال بالقلب، فمن هنا يمكن أن ترد جميع الأحكام إليه"**[٤]؛ لأن القلب يوصف بالحياة وضدها، وهو بذلك ثلاثة أقسام:

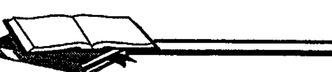
(الأول: القلب الصحيح السليم، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾[٥]، وهو القلب الذي خلص لله في عبوديته إرادة، ومحبة، وإنابة، وإخباتا، واستعانة، وتوكلا.

الثاني: القلب الميت وهو القلب الذي لايعرف ربه، ولا يأتمر بأمر الله، لايستجيب إلا لشيطانه وهواه .

الثالث: القلب المريض وهو القلب الذي به حياة وبه علة تمده هذه مرة وهذه أخرى. وهو لما غلب عليه منهما وفيه ماهو مادة حياته من محبة الله، والإيمان به، والاخلاص له والتوكل عليه، وفيه ماهو مادة هلاكه وفساده من محبة الشهوات، وإيثارها، والحرص على تحصيلها) [٦].

---

(١) انظر: للإمام الرازي، مفاتيح الغيب، مج١٤، (١٤٢/٢٨).
(٢) سورة الحج ، آية: ٤٦ .
(٣) سورة ق ، آية: ٣٧ .
(٤) انظر: لابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (١٧٢/١).
(٥) سورة الشعراء، آية: ٨٨-٨٩.
(٦) انظر: لجماعة من العلماء، تزكية النفوس، ص ٢٥ .



فالقلب الأول : حي مخبت، لين واع، والثاني: يابس ميت، والثالث: مريض؛ فإما إلى الفلاح أدنى، وإما إلى الهلاك أدنى فمن أراد صفاء قلبه وإخباته وسلامته فليؤثر الله على شهوته وشيطانه فالقلوب آنية الله في بدن المؤمن فإذا غذي ونضح هذا الإناء بالتذكر، وسقي بالتفكر ونقي من الفساد، رأي العجائب وألهم الحكمة[1].

فالقلب يمرض ويهلك من الغفلة، ويعمر ويحيا من الخشية والذكر فالقلوب تمرض وشفاؤها في الرجوع إلى الله، وتعرى ولباسها التقوى وتجوع وطعامها المحبة والإنابة والتوكل على الله، وتكسل ونشاطها في العمل، وعمل القلب المقصود منه هو النية، والإخلاص والانقياد، والإذعان، والإقبال، والإنابة، والاعتصام والتوكل على الله سبحانه ولوازم ذلك وتوابعه.

قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾[4].

وماهذا الإخلاص إلا القصد بالعبادة إلى أن يعبد الله وحده دون سواه، ويكون هذا الإخلاص والقصد بالقلب، والعمل، والتبري عن كل مادون الله تعالى، فإذا اجتمع في المرء المؤمن قول القلب، وعمله، وقول اللسان، وعمل الجوارح تكون النتيجة الحتمية التصديق المطلق.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[5].

---

(١) انظر: لابن القيم في الفوائد، ص١٢٨.
(٢) سورة الزمر، آية: ٣ .
(٣) سورة البينة، آية: ٥ .
(٤) سورة الزمر، آية: ١٤ .
(٥) سورة الزمر، آية: ٣٣ .

هذا كله نابع من محبة العبد المؤمن لربه عز وجل فمتى تمكنت المحبة القلب فهي لاتنبعث إلا على طاعة الرب سبحانه " **إن أعمال الجوارح لاتستقيم إلا باستقامة القلب، ومعنى استقامة القلب أن يكون ممتلئا من محبة الله تعالى، ومحبة طاعته وكراهة معصيته ... فحركات الجسد تابعة لحركة القلب وإرادته، فإن كانت حركته، وإرادته لله وحده فقد صلح وصلحت حركات الجسد كله لحركة القلب وإذا كانت حركته، وإرادته لغير الله فسد وفسدت حركات الجسد بحسب فساد القلب**"[(١)].

وهذا مايدل عليه الحديث " عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "**إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وماتقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ومايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وماترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت، وأنا أكره مساءته**" "[(٢)].

فالتوكل على الله عمل قلبي يستقر أولا في القلب حتى يستولي على جوارح العبد المؤمن وهذا ثانيا.

فسر التوكل على الله هو اعتماد القلب على الله وحده، ولاينفع قول العبد "توكلت على الله" مع اعتماده على غيره سبحانه وتعالى وركونه إليه وثقته به، فتوكل اللسان شيء، وتوكل القلب شيء، وهذا كمن تاب عن المعصية ويصر عليها،

---

(١) انظر: لابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم (المدينة المنورة: مكتبة طيبة، تط الأولى، ١٤٠٨هـ)، ص٧٤.

(٢) ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (٦٥٠٢/١١).

ويرتكبها، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾(١).

والتوكل على الله عمل قلبي مستور، عن أعين العباد، لأن العبد يتوكل على الله قائما، وقاعدا، ومضطجعا، وهذا لايكون إلا لأولي الألباب، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، فهم أهل إنكار الإعلان عن أعمالهم الذين عبدوا الله عبادة لم تظهر منهم.

فالله تعالى أمر بالعمل الصالح النافع لأنه الترجمة العملية للإيمان بالله، وصورة من أفضل صور عبادته ودائرته تتسع لتشمل الحياة كلها، ولايكفى أن يؤدي المؤمن عمله، بل عليه أن يتقنه، ويحسنه، ويتفوق فيه، ويتوكل به على الله؛ فالله مطلع عليه ويحاسبه ويجازيه؛ وعلى ذلك فإن المسلمين إن أهملوا العمل، وتجويده، وتحسينه، وإتقانه فقد خالفوا أمر دينهم، وتخلفوا عن غيرهم فيتسلط عليهم من لايؤمن بالله ولا بدينه فتضيع دنياهم وآخراهم، والعمل الواجب على كل مسلم يختلف من شخص لآخر تبعا لقدرته، ومايتقنه فلنعزم على العمل المأمور به من الله تعالى بشروطه، وأركانه، وواجباته؛ حتى نصل إلى سعادة الدنيا والآخرة.

والتوكل على الله تعالى يجمع في ذاته أصلين هما: " **(علم القلب)، وعمله، أما علم القلب: فيقينه بكفاية: وكيله وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لايقوم مقامه في ذلك، وأما عمل القلب، فسكونه إلى وكيله وطمأنينته إليه، وتفويضه، وتسليمه أمره إليه، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه، فبهذين الأصلين يتحقق التوكل، وهما جماعه**"(٢).

فكلما كان القلب على الحق، وعلى طريقه كان واثقا بالله منيبا إليه متوكلا عليه، ساكنا إليه سبحانه وإذا كان على الباطل لم يكن مطمئنا ولامتوكلا ولا ساكنا إليه.

---

(١) سورة الحديد، آية: ١٦.

(٢) ابن قيم الجوزية، طريق الهجرتين وباب السعادتين (الرياض: المطابع الإسلامية العربية، بدون تط)، ص٢٥٧.

قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(١).

قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾(٢).

فالآيتان دليل على استسلام القلب والخضوع والإخلاص لله تعالى، والإخبات إليه، والتوكل عليه، واليقين بما عنده.

فالعبد كلما كان أكثر معرفة واستحضارا لمعاني أسماء الله وصفاته كان أشد استسلاما، وإنابة له عز وجل – وقد أفردت مبحثا بهذا الشأن في معرفة أسماء الله وصفاته سيأتي ذكرها بإذن الله – " **قال بعض الحكماء صفة أولياء الله تعالى : ثلاث خصال " الثقة بالله في كل شيء، والفقر إلى الله في كل شيء، والرجوع إلى الله في كل شيء**"(٣)، فهذه الخصال ليست حصرا لخصال أولياء الله تعالى، ولكن سبقت هنا هذه الثلاث بحسب المقام المذكور .

فالثقة بالله في كل شيء هو الإيمان؛ قال تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾(٤).

> فالآية: دلالة واضحة على الثقة بالله " **أي فزادهم قول الناس لهم إيمانا بالله وثقة به من حيث خشوه ولم يخشوا الناس الذين خوفوا منهم بأنهم جمعوا لهم الجموع واعتمدوا على نصره ومعونته، وإن قل عددهم، وضعف جلدهم فإنه هو العزيز القوي وذلك من شأن المؤمنين..... وكان من قوة إيمانهم وزيادته أن أقدموا وهم عدد**

---

(١) سورة الملك ، آية: ٢٩ .

(٢) سورة الرعد، آية: ٣٠ .

(٣) انظر: للشيخ نصر بن محمد السمرقندي، تنبيه الغافلين وبهامشه بستان العارفين (بيروت: دار المعرفة للطباعة بدون تط)، ص١٦٩.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٧٣ .

قليل قد أثخنوا بالجراح على محاربة الجيش الكبير، فالزيادة كانت في الإذعان النفسي، والشعور القلبي، وتبعتها الزيادة في العمل، بعد ذلك القول الدال على ماانطوت عليه النفس من اليقين بوعد الله ووعيده، والشعور بعزته وسلطانه"(١).

والله العلي القدير لايضيع من وثق، وحسن ظنه به، ففقر العبد المؤمن إلى ربه ، أمر نابع من عجز الإنسان، وضعفه الفطري فلاحول ولاقوة إلا بالله.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾(٢).

" فالله سبحانه يخبر بغنائه عما سواه، وبافتقار المخلوقات كلها إليه، وتذللها بين يديه .... فهم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو تعالى الغني عنهم بالذات .... فهو المتفرد بالغنى وحده لاشريك له، وهو الحميد في جميع مايفعله ويقوله، ويقدره، ويشرعه"(٣).

أما الرجوع إلى الله في كل شيء فما من عبد إلا ويعلم أنه إلى ربه راجع محتاج إليه في كل لحظة كيف لا؟! ووجودهم به، وبقاؤهم به.

قال تعالى:﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾(٤).

فإلى الله مصير أمر جميع خلقه، الصالح منهم والطالح، والمحسن، والمسيء، فيجازي كلا على قدر استحقاقهم منه الجزاء بغير ظلم منه لأحد، فهو

---

(١) انظر: لمحمد رشيد رضا، تفسير المنار، (٤/٢٤٠).
(٢) سورة فاطر، آية: ١٥.
(٣) لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٣/٨٧٧).
(٤) سورة آل عمران، آية: ١٠٩.

المالك للعباد المتصرف في شؤونهم فالحكمة كل الحكمة أن ترجع الأمور جميعها إليه، فهذه من سننه التي لها غاية: تنتهي إليها لاتبديل لها ولاتحويل(١).

إن أولياء الله تعالى لهم من الخصال التي لايسع المجال لذكرها وماذكر كان في معرض التمثيل.

فنعود ونقول إن العبد المؤمن يستوجب الثواب إذا كان عمله خالصا، ويكون ذلك في المقصود والنية؛ ولذا يأتي العمل على قدر النية: إما مخلصا، وغير مخلص، فمن كان قصده من عمله الرياء أو شابته شائبة دنيوية خرج العمل عن الإخلاص، ومن قصد التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص عابد.

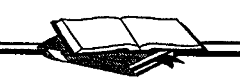
فكل عمل استراح إلى حظ الدنيا زال بذلك إخلاص عمل المرء ومن انتهز لحظة من عمره خالصة لوجه الله، نجا؛ لأن تنقية القلب أمر عسير إلا لمن يسره الله تعالى له.

فالآيات التي وردت في قضية وموضوع التوكل تدل دلالة أكيدة على أن التوكل على الله لابد أن يكون صادرا من القلب.

" فالتوحيد قول القلب، والتوكل عمل القلب، فلابد فيه من قول القلب وعمله، ثم قول البدن وعمله، ولابد فيه من عمل القلب، مثل حب الله ورسوله، وخشية الله، وحب مايحبه الله ورسوله، وبغض مايبغض الله ورسوله، وإخلاص العمل لله وحده، وتوكل القلب على الله وحده، وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله وجعلها من الإيمان، ثم القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، ولايمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح – السابق الذكر –" إن الله قال لي من عاد لي وليا فقد آذنته بالحرب، وماتقرب إلى عبدي بشيء

---

(١) انظر: لابن جرير، جامع البيان، (٣٠٣/٢)؛ ولمحمد رشيد رضا، تفسير المنار، (٥٥/٤).



أحب إلي مما افترضته عليه، ومايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به..."[1].

وقال تعالى:﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[3].

وبهذا فإن التوكل على الله إيمان مرتبط ارتباطا وثيقا بالقلب، والإيمان قول وعمل لاينفكان عن بعضهما ، فالإيمان بالله وسيلة لطلب معرفته، ولحبه، وتعظيمه، وطاعته، وخشيته، والإنابة إليه والتوكل عليه بعزم وإرادة قوية متينة.

---

(١) انظر: للإمام أبي حامد الغزالي سلسلة إحياء علوم الدين، (٣٦٨/٤).

(٢) سورة هود، آية: ٨٨ .

(٣) سورة المائدة، آية: ٢٣ .



المبحث الثالث

أحوال المتوكلين

قال الغزالي: أن التوكل هو اعتماد القلب على الموكل[١].

فالتوكل عند المؤمن تتفاوت أحواله في قوة الطمأنينة والثقة بالله تفاوتا لاينحصر إلى أن ينتهي إلى الأمر والعلم اليقيني.

قال تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[٢].

ففي الآية إشارة إلى أنه لاينبغي أن يتوكل إلا على من يستحق العبادة لأن غيره ليس بيده الأمر[٣]، وعلى هذا فإن النفس تسكن إلى الله عز وجل وتطمئن بذكره وتنيب إليه وتشتاق إلى لقائه وتأنس بقربه فتطمئن.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾[٤].

والمؤمن يطمئن إلى قدر الله فيسلم له ويرضى، فلايسخط، ولايشكو، ولايضطرب إيمانه، وتلك الطمأنينة هي طمأنينة كذلك إلى امتثال أمره إخلاصا ونصحا، فإذا اطمأن المؤمن من الشك إلى اليقين ومن الجهل إلى العلم، كانت نفسه مطمئنة.

قال تعالى: ﴿ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾[٥].

---

(١) الغزالي، كتاب التوحيد والتوكل، ص٤٢.

(٢) سورة الفاتحة، آية: ٥ .

(٣) انظر: لمحمد الأمين الجكني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (بيروت: عالم الكتب بدون تط) (٣٥/١).

(٤) سورة الرعد، آية: ٢٨.

(٥) سورة هود، آية: ٨٨ .

ولايأتي التوكل الحق والإخلاص فيه والعمل بمضامينه إلا بعد المحبة التامة التي تستلزم الإرادة والقوة في حصول الأوامر.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (١).

فالرسول ﷺ لايأمر إلا بما يحب الله ولاينهى إلا عما يبغضه الله ولايفعل إلا مايحبه، ولايخبر إلا بما يحب الله التصديق به؛ لذلك فإن القلب المؤمن لايطمئن إلا بعبادة ربه وحبه وتوكله وإنابته لربه عز وجل، ولو حصل له كل مايلتذ به أو لم يحصل لم يطمئن ولم يكن إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه من جهة العبادة، ومن جهة التوكل والاستعانة .

فالأمة أحوالهم في التوكل مختلفة:

١ - منهم من لايتوكل إلا على الله وحده. وهؤلاء هم المؤمنون الخلص. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٢).

٢ - ومنهم من لايتوكل على الله البته وهؤلاء هم الملحدون الخلص .

٣ - ومنهم من يتوكل على الله وعلى غيره فهؤلاء هم المخلصون فمنهم المشرك ومنهم دون ذلك.

ففي هذه الأقسام نرى أن الحالة الأولى هي لمن لزم الحق والصواب ولم يبقى في القلب تشويش أو إضطراب.

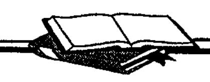
قال تعالى: ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٣).

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٣١ .

(٢) سورة الأنفال، آية ٢ .

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٢٢.



وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾(١).

فموافقة المؤمنين وامتثالهم لأمر الله ورسوله واستجابتهم لله ولرسوله ﷺ جعلهم في حالة يقينية بحتة إلى درجة أن جعلوا الله حسبهم وكفيلهم وكانوا على كلمة التوحيد، والإخلاص، والتوكل " حسبنا الله ونعم الوكيل" والمؤمن الحق من يخشى الله ويتقيه حق التقوى والخشية فيكون تبعا لذلك الأثر في سكون، وقوة الاعتماد، وحسن الظن بالله تعالى، أنه ناصرهم لامحالة إن عاجلا أو آجلا، وهذا مجمل معنى الآية الكريمة التى يرد في نصها قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾(٣).

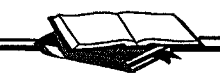
فحال المؤمن أن يأوى ويلجأ إلى ربه لأنه عالم بقوته وخزائنه ملأى فسبحان الله العلي العظيم .

فلا يدفع الشر ولا ينصر إلا الله ومن أظهر العجز لله وقام بما عليه ضمن الله له ماوعده إياه(٤).

فالمؤمن إذا اعتقد أنه لايضر ولاينفع إلا الله اعتمد قلبه واتكل عليه، فإذا لم يكن به ذلك فهذا سبب لضعف اليقين الذي يمازج القلب، ويشوب النفس؛ وماهذا إلا لجهل العبد، وعدم معرفته لله سبحانه؛ ومن هنا يأتي الاضطراب والفوضى والتخبط في العبادة، وفي الاستعانة والإنابة، والتوكل، فلابد من معرفة وعلم بالله نابعة من الطريق الصحيح حيث تنزل المعرفة والعلم في سويداء القلب فيوقن بصدقها العبد؛

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٧٣.
(٢) سورة المائدة، آية: ٢٣ .
(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٩ .
(٤) انظر للإمام أبي الفرج جمال الدين الجوزي البغدادي، زاد المسير في علم التفسير، (٤٥٠/١، ٤٧/٤) .



لذلك فكلما ارتقى علم الإنسان ومعرفته بالله ازداد بصيرة ويقينا يغنيه عن غير الله وينزع من قلبه الإنابة والتوكل على من سواه .

قال تعالى:﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾(١).

" فأول ما أراد الله تعالى من العباد أن يعرفوه عن الوجوه التي تعرف إليهم منها، فإنه قد تعرف إليهم من خلقه للخلق، وتدبيره في الخلق، ومن قدرته على الخلق، وتكلفه بأرزاق الخلق، وإماتته الخلق، وإحيائه للخلق ألا له الخلق والأمر تبارك الله أحسن الخالقين"(٢).

لذلك فإن المعرفة هي أساس وأصل كل شيء، ويأتي بعدها الإرادة وهي لازمة لاتنفك عن المعرفة. والإرادة: هي تحقيق العمل والأخذ والعطاء، والحب، والكره في الأعمال كلها، ولنعلم أنه سبحانه جعل نجاة العبد أولا في المعرفة، ثم في الإرادة.

قال تعالى:﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(٤).

" فالمراد أنه سبحانه دل على وحدانيته وسائر كمالاته بأفعاله الخاصة التى لايقدر عليها غيره"(٥).

وقال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٦).

---

(١) سورة هود، آية: ١٢٣.
(٢) عبدالله الحارث المحاسبي، آداب النفوس، دراسة وتحقيق عبدالقادر عطا، (بيروت: دار الجيل تط، ١٩٨٤م)، ص١٦٢.
(٣) سورة البقرة، آية: ٢٨٢.
(٤) سورة آل عمران، آية: ١٨ .
(٥) الألوسي، روح المعاني، (١٠٤/٢).
(٦) سورة الأعراف، آية: ٥٤ .

فالله سبحانه وتعالى تفرد بالوحدانية والألوهية وتعظم بتفرده الربوبية.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾(١).

" فالاختلاف في تفسير هذه الآية كله محتمل، فقيل: المعنى ماعرفوا الله تعالى حق معرفته؛ وقيل: ماعظموا الله تعالى حق تعظيمه، وقيل:ماوصفوه حق صفته"(٢).

فالعباد جميعهم مختلفون ومتفاضلون في الإيمان والاعتقادات والأخلاق والمعاملات؛ لذلك هم يختلفون كذلك في التوكل، وتتفاوت أحوالهم فيه من ناحية قوة الطمأنينة والثقة وتتفاوت في القوة والضعف .

والتوكل في ذلك ثلاث محطات: التوكل، ثم التسليم، ثم التفويض، فالمتوكل يسكن إلى وعده سبحانه، والمسلم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه، وهذا إشارة إلى تفاوت درجاته ومحطاته، فإن العلم هو الأصل، والوعد يتبعه، والحكم يتبع الوعد، ولايبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شيء من ذلك .

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٩١ .

(٢) المصدر السابق، (١٠٤/٢).



التوكل على الله وعلاقته بالجانب الأخلاقي

وفيــه :

تـمهيد .

المبـحث الأول: التـوكل على الله من أخلاق الأنـبيـاء .

المبـحث الثـانـي: التـوكل على الله من أخلاق المؤمـنـين.

الفصل الثاني

التوكل على الله وعلاقته بالجانب الأخلاقي

التمهيد:

إن التوكل على الله خلق من أعظم أخلاق الإيمان وهو خلق رباني، فقد أمر الله به سبحانه وتعالى وحث عليه.

قال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(١).

فالخلق : السجية والطبع، والمروءة والدين، والخلق الطبيعة وجمعها أخلاق وحقيقته أنه وصف لصورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه، وأوصافها، ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة(٢).

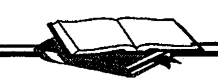
وفي ضوء ذلك يمكن تحديد مفهوم الأخلاق بأنه: " **عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث يصدر عنها الأفعال الجميلة عقلا وشرعا بسهولة، سميت الهيئة: خلقا حسنا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة: خلقا سيئا"(٣)، فالقرآن يوضح تكاليف الإيمان ويدعونا للقيام بتكاليفه والتزام الطاعة في كل خطوة من الخطوات، وفي كل أمر، وفي كل اتجاه حتى تكون هناك نتيجة عظيمة تستقر في قلوب الجماعة المسلمة من خلال تلك التوجيهات القرآنية، وقد كانت لنا عبر ودروس مستفادة من قصص الأنبياء، وما كانوا يتحلون به من أخلاق عظيمة بها اختيروا ليكونوا قدوة لجماعتهم، وأقوامهم، وأممهم، فكان رسولنا ﷺ من أعظم الناس خلقا، كان قرآنا يمشي على الأرض.**

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦٠.

(٢) انظر: للفيروزآبادي، القاموس المحيط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ت‍ط ١٤١٣هـ)، ص١١٣٧؛ انظر لابن منظور، لسان العرب، كلمة الخلق فيه.

(٣) الجرجاني علي بن محمد بن علي، التعريفات، حققه إبراهيم الابياري، (بيروت: دار الكتاب العربي، تط الرابعة ١٤١٨هـ)، ص١٣٦ مادة رقم ٦٦٧.



قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾[1].

" عن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - أن سعد بن هشام سألها فقال: ياأم المؤمنين: أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ، قالت: أليس تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: " فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن "[2]، فمنه ﷺ نأخذ ونتعلم وندرس.

ومن أخلاق المؤمنين الاتباع والاقتداء بالأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين في سلوكهم، وعاداتهم فعلم أن التوكل عمل قلبي متعلق ومرتبط بالجوارح، فاستقامة هذه الجوارح مرهون بسلامة القلب واستقامته؛ وعلى هذا فإن هناك تلازماً عميقاً بين أعمال القلوب؛ وأعمال الجوارح؛ فالجوارح ترجمان لما في قلب العبد المؤمن.

" فما من عمل أو خلق إلا وارتبط بالإيمان لأنه الأصل، ثم يذكر العمل الصالح، فإنه أيضاً من تمام الدين فلابد منه، فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح"[3].

والجانب الأخلاقي من قضية التوكل أمر بالغ الأهمية، وقد أخذ حقه من العناية: في القرآن الكريم، ومن هنا تكمن عظمة الإسلام وشريعته في تكامل كل التعاليم والأخلاق الإنسانية الشاملة التى تسمو بالمؤمن إلى آفاق العلا، وقد تجسدت هذه الأخلاق في شخص رسولنا الكريم الحبيب ﷺ، ومن سبقه من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وعموم القول أن القرآن الكريم يأمر

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١ .

(٢) أبوداود (٤٨٠٠) واللفظ له، قال النووي (٢٣٣) حديث صحيح بإسناد صحيح، وقال محقق رياض الصالحين (٢٣٣): سنده قوي وله شاهد من حديث معاذ بن جبل عند الطبراني في الصغير(١٦٦).

(٣) شيخ الإسلام ابن تيميه، الإيمان، تحقيق محمد الزبيدي، (بيروت: دار الكتاب العربي ط الأولى، ١٤١٤هـ)، ص١٨٦.

بكل خلق فاضل، وينهى عن كل خلق ذميم، وخلق التوكل الذي نحن بصدد الكلام عنه هو خلق إسلامي أمر الله به رسله الكرام، وأمر به المؤمنين عامة، وجعله من الأوصاف الأساسية للمؤمنين الصادقين، فهو الركن والحصن الذي يلوذ به المؤمن في مواجهة الصعاب وتذليلها.

فالتوكل هو سجية العبد المؤمن وسلوك ينغرس في قلبه ويتعمق بقدر إيمانه فهو عقيدة عظيمة، والتوكل على الله من الأخلاق العقدية التعبدية؛ التى تربط العبد المؤمن بربه فهو يتصف بذلك الخلق لأنه تعالى قد أمر بالتوكل:﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾(١)، وحث عليه رسولنا ﷺ في مارواه (**عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا"**)(٢).

فلزم علينا الطاعة، والحرص، والاستمرار على العمل وتعظيم هذا الخلق العقدي التعبدي، والتسليم، والرضا بالقدر، ونوطن أنفسنا عليه قدر المستطاع حتى نظفر بما وعدنا به الله عز وجل من ثواب وجزاء .

(١) سورة الفرقان، آية: ٥٨ .

(٢) سبق تخريجه، ص ٣٢ .



المبحث الأول

التوكل على الله من أخلاق الأنبياء

إن التوكل على الله سبحانه وتعالى لايتحقق إلا بالفعل، والعمل، والسعي والحركة حتى يعتاد المؤمن على ذلك الخلق الرباني، ويمارسه باستمرار في جميع جوانب حياته حتى يكون خلقا، وعقيدة دائمة لاتنفك عنه، وسمة واضحة عليه، ولاسيما إذا كان هذا العبد المؤمن هو من صفوة خلقه نبي أو رسول، ولقد ذكر القرآن الكريم صفات، وأخلاق الأنبياء السابقين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وضمن هذه الأخلاق خلق التوكل عليه سبحانه وتعالى، فقد حثوا عليه أقوامهم تبعا لأمر خالقهم جل وعلا، من نوح أول المرسلين إلى محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ .

يقول تعالى على لسان نوح عليه الصلاة والسلام:﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾(١).

فالمعنى " إن كان عظم عليكم مقامي بين أظهركم وشق عليكم، "تذكيري بآيات الله" يقول: ووعظي إياكم بحجج الله، وتنبيهي إياكم على ذلك. " فعلى الله توكلت" يقول: إن كان شق عليكم مقامي بين أظهركم، وتذكيري بآيات الله فعزمتم على قتلى أو طردي من بين أظهركم فعلى الله اتكالي وبه ثقتي وهو سندي، وظهري "فأجمعوا أمركم"، يقول: فأعدوا أمركم، واعزموا على ما تنوون عليه في أمري"(٢).

---

(١) سورة يونس، آية: ٧١ .

(٢) ابن جرير الطبري، تفسيره، (٤/٢٢٨).

فنوح عليه السلام كان يقابل بغضهم وتجمعهم عليه بالتوكل على الله تعالى، يقول صاحب كتاب مفاتيح الغيب في قوله: ﴿ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾:-

" يعني إن شدة بغضكم لي تحملكم على الإقدام على إيذائي، وأنا لاأقابل ذلك الشر إلا بالتوكل على الله، واعلم أنه عليه السلام كان أبدا متوكلا على الله تعالى، وهذا اللفظ يوهم أنه توكل على الله في هذه الساعة، لكن المعنى أنه إنما توكل على الله في دفع هذا الشر في هذه الساعة"[1].

فالحلقة التي تعرض هنا من قصة نوح هي الحلقة الأخيرة حلقة التحدي الأخير، بعد الإنذار الطويل، والتذكير الطويل، والتكذيب الطويل ولايذكر في هذه الحلقة موضوع السفينة، ولا من ركب فيها، ولا الطوفان ولا التفصيلات في تلك الحلقة؛ لأن الهدف هو إبراز هذا التحدي، والاستعانة بالله وحده فعليه وحده هو حسبه دون النصراء والأولياء، فنجى الله نوحا ومن معه من جميع الأخطار، والله موف وعده لرسوله وللمؤمنين[2].

فنوح صلوات الله وسلامه عليه قد بلغ الغاية في التوكل، قاطعا بأنه لايصل إليه من مكرهم شيء، ولن ينفذ بإذن الله فكان مستسلما لكل مايصل إليه من الله استسلام المؤمن لله لأجل الدعوة مع أنه في قلة، وضعف، وقومه في كثرة ومنعة، وكان بينهم وحيدا فريدا، ولكن وحدته ماكان يوهنها، ويكسرها إلا توكله على العزيز المقتدر، ومن هنا أخذ نوح عليه الصلاة والسلام خلق التوكل ومارسه في دعوته لله عز وجل إلى أن وافاه الأجل ولقي ربه .

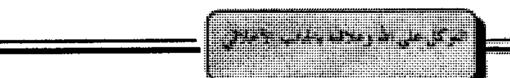
وهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام يقول:﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[3].

---

(١) الإمام محمد الرازي ، مج٩ ، (١٤٣/٧).

(٢) انظر: السيد قطب، في ظلال القرآن، (١٨١٠/٣-١٨١٢).

(٣) الممتحنة، آية: ٤ .



" فالله تعالى يخبرنا أن إبراهيم عليه السلام ومن معه فارقوا قومهم وتبرءوا منهم، فلجأوا إلى الله، وتضرعوا إليه فقالوا: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ، أي توكلنا عليك في جميع الأمور وسلمنا أمورنا إليك وفوضناها إليك، وإليك المصير أي المعاد في الآخرة"[1].

وهناك معنى آخر تضمنته الآية: الكريمة : **" يقول جل ثناؤه : مخبرا عن قول إبراهيم وأنبيائه صلوات الله عليهم:﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾ يعني: وإليك رجعنا بالتوبة مما تكره إلى ماتحب وترضى ﴿ وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾، يقول: إليك مصيرنا، ومرجعنا يوم تبعثنا من قبورنا، وتحشرنا في القيامة إلى موقف العرض"**[2].

ومن هذا المعنى نفهم، ونستدل على استسلام إبراهيم عليه السلام لخالقه، ومنجيه سبحانه.

" ففي إبراهيم عليه السلام لنا الأسوة والقدوة في كل شيء فعله، قوله، خلقه... وقد كان من دعائه {ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير} وفي هذا القول تعليم للأجيال المؤمنة وتتميم لما وصاهم به، واتساء بإبراهيم عليه السلام"[3].

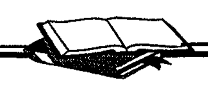
" فها هو الماضي الطويل الذي لنا فيه أسوة ممتدة على آماد الزمان راجع إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام في عقيدته، وتجاربه فهي إذا قافلة ممتدة في شعاب الزمان من المؤمنين بدين الله الواقعين تحت راية الله، ومالهم غير التسليم المطلق لله، وهنا يثبت أن إبراهيم فوض الأمر كله لله، وتوجه إليه بالتوكل والإنابة والرجوع إليه على

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٥٤٣/٤).

(٢) ابن جرير الطبري، تفسيره، (٢٧٥/٧).

(٣) الإمام الرازي، تفسيره، مج١٥، (٣٠٠/٢٩-٣٠٢).



كل حال، وهي السمة الإيمانية الواضحة في إبراهيم يبرزها هنا؛ ليوجه إليها قلوب أبنائه المسلمين كحلقة من حلقات التربية الخلقية، والتوجيه بالقصص والتعقيب عليه بإبراز مافي ثناياه من ملامح، وسمات، وتوجيهات على طريقة القرآن الكريم"[1].

فما علينا إلا الاقتداء بهذه الأسوة ليتحقق لنا وعد الله، فالتوكل من المقومات الكبرى في العقيدة والأخلاق.

وقال تعالى على لسان هود عليه السلام :﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2].

والمعنى أنه سبحانه بيده الملك والتصرف قاهر حاكم، عادل قيم على جميع خلقه فسبحانه، فمن كانت هذه صفاته فعليه توكلت[3].

فقد دعا هود عليه الصلاة والسلام قومه أولا إلى التوحيد، ودعاهم إلى الاستغفار في هذا المقام، ولكن اشتغلوا بغير ذلك من تكذيب، وكيد له فقد بين سبحانه وتعالى أن تصريف الأمور كلها بيده فما من أحد إلا وهو تحت قدرته ومنقاد له، فهنا ترغيب في التوكل على الله على لسان نبي الله هود عليه السلام، وقد ظهر من خطابه لقومه مدى ثبات إيمانه، وتوحيده فهو لايقول ذلك: " **" فكيدوني جميعا ثم لاتنظرون" إلا إذا كان واثقا بأن الله يحفظه ويصونه من كيد الأعداء"**[4].

" إن الثقة بالله والاعتصام به هو ما واجه به هود عليه السلام قومه فعقب التوكل عليهما تقريرا لهما، والمعنى أنكم وإن بذلتم غاية: وسعكم لم تضروني فإني متوكل على الله واثق بكلائه"[5].

---

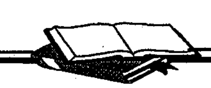
(١) انظر: لسيد قطب، في ظلال القرآن، (٣٥٤٢/٦).

(٢) سورة هود، آية: ٥٦.

(٣) انظر: لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٦٩٦/٢)؛ ولابن جرير، جامع البيان عن تفسير آي القرآن، (٢٨٦/٤).

(٤) انظر الإمام الرازي، مفاتيح الغيب، مج ٩، (١٤/١٨).

(٥) الإمام البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ص٢٩٩.



هذا المقام نستشعر منه قوة إيمان هود عليه السلام، وعزته، واستعلائه مع ثقة الإيمان، واطمئنانه "**وحقيقة ربوبية الله، وصورة القهر، والقدرة، وسر الاستعلاء، وسر التحدي؛ فهو رب الخلائق قوي قاهر**"(١)، وفي هذا بيان أنه قادر على كل شيء، ولايعامل إلا بالإحسان، والعدل فمن اعتمد عليه فقد اعتمد على الصراط المستقيم، ومن سلكه سيكون له السطوة، والغلبة، فكل من اعتمد وتوكل على الله الخالق القاهر سينال ماوعد به من الله تعالى.

وهذا نبي الله يعقوب عليه السلام آمن وصدق ولاعجب من ذلك فهو ابن أبي الأنبياء، إن دعوة جميع الرسل هي الإيمان بالله تعالى وتوحيده، وكذلك الإيمان بأقدار الله خيره وشره؛ لأن ذلك من أصول الإيمان، فمن آمن بقدر الله لايأسى صاحبه ولايصيبه الحزن؛ لأنه يلجأ إلى خالقه لمعرفته بعجزه، وحاجته لخالقه، وتراه صادقا في توكله على ربه يطلب العون من ربه على ماأعجز من تنفيذه، يردد في يقين قوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(٢)، وهذا ماكان من نبي الله يعقوب عليه السلام، مع علمه أن الحكم، والاعتماد كله لله، وعلى الله، وهو على علم أن إرادة الله نافذة، فقد أوصى أبناءه بقوله: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾(٣).

> **" صرح يعقوب عليه السلام بأنه لاحكم إلا لله سبحانه لالغيره ولايشاركه فيه مشارك في ذلك فعليه التوكل في كل إيراد وإصدار لاعلى غيره فعليه الاعتماد والوثوق لا على غيره"**(٤).

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، (١٨٩٩/٤).
(٢) سورة التوبة، آية: ٥١ .
(٣) سورة يوسف، آية: ٦٧ .
(٤) محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، (٤١/٣) .



" إن هذا التدبير إنما هو تشبث بالأسباب العادية التي لاتؤثر إلا بإذن الله تعالى، وأن ذلك ليس بدافع للقدر بل هو إستعانة بالله تعالى وهرب منه إليه .... (عليه توكلت) أي عليه دون غيره، ودون حولي وقوتي اعتمدت في كل ماأتى وأذر وفي هذا إيماء إلى أن الأخذ بالأسباب ومراعاة اتباعها لاينافي التوكل"(١).

لقد تضمنت الآية: معاني جمة، فجميع الممكنات معتمدة على قضاء الله، وقدره ومشيئته، وحكمه إما بواسطة أو بغير واسطة، فثبت من الآية: أن الإصابة بالعين كلام حق لايمكن رده(٢).

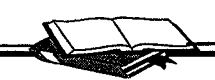
وعلى ذلك نقول إن بالتوكل، يحصل المطلوب، ويندفع المكروه كما حصل لنبي الله يعقوب عليه السلام الذي خفي عليه، - وهو أهل علم -، من الحكمة فقد أبنائه، فجمع الفرقة بعد سنين، وما أتمه الله ليوسف من تمكين، فحصل المطلوب، واندفع المكروه.

وقال تعالى على لسان شعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾(٣).

إن قصة شعيب عليه السلام تضمنت الدعوة إلى الله، ومناقشة قومه، ورده عليهم، وإنذاره بالعذاب، ووقوعه، ونجاة المؤمنين، فشعيب عليه السلام طلب من الله تعالى التوفيق لإصابة الحق، والاستعانة، والإقبال عليه سبحانه، فها هو يقول لقومه: **أرأيتم ياقوم** { إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى } **أي على بصيرة فيما أدعو**

---

(١) المراغي، تفسيره، مج٥، (١٧/١٣) .
(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٧٤٩/٢)؛ وانظر: للإمام الرازي، مفاتيح الغيب، (١٧٨/١٨-١٧٩)؛ وانظر: لعبدالرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٤٣٨/٢).
(٣) سورة هود، آية: ٨٨ .



إليه "ورزقني منه رزقا حسنا" قيل أراد النبوة، وقيل أراد الرزق الحلال، ويحتمل الأمرين،{ مـا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْـهَـٰكُمْ عَنْـهُۚ} أي لاأنـهاكم عـن شيء وأخالف أنـا فـي السـر فافعلـه خفيـة عنكـم، {إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ} أي فيمـا آمركم وأنـهاكم إنمـا أريـد إصلاحكـم جـهدي وطـاقتي {وَمَا تَوْفِيقِىٓ} فـي إصابـة الحق فيمـا أريده {إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} فـي جميـع أموري {وَإِلَيْـهِ أُنِيبُ} أي أرجع [1].

فهذا بيان أن إصابة الحق والإصلاح هو بتوفيـق الله، فـهو المعيـن علـى ذلك فعليه وبه نثق، ونفوض، ونعتمد عليه في أمورنا كلها صغيرها، وكبيرها.

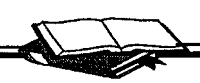
> **إن شعيبا عليه السلام " بين بهذا أن توكلـه، واعتمـاده فـي تنفيذ كل الأعمال الصالحة على توفيق الله تعالى وهدايته، واعلم أن قوله عليـه الصلاة والسلام "توكلت" إشارة إلى محض التوحيد، لأن قولـه عليـه السلام توكلت يفيد الحصر، وهو أنه لاينبغي للإنسـان أن يتوكل علـى أحد إلا على الله تعالى، وكيف وكل ماسوى الحق سبحانه ممكن لذاته، فـان بذاتـه، ولايحصل إلا بإيجاده وتكوينـه، وإذا كـان كذلـك لـم يجـز التوكل إلا على الله تعالى"[2].**

فقد تضمنت الآية: معاني عظيمة، وهي أن كل ماآتـاه الله تعـالى لنبيـه شـعيب عليه الصلاة والسـلام مـن العلـم والهدآيـة:، والديـن والنبـوة، والمـال مـن الله القـادر المعطي لامن غيره فلايسع شعيبا عليه السلام وغيره من البشر إلا أن يطيـع الله عز وجل في أمره لتبليـغ الرسـالة لقومـه، وقـد أقـر قومـه لـه بـالحلم والرشـد، وقـد كـان مشهورا به في قومه فكان من اللازم لهم أن يتبعوه فهو لن يـترك الرسـالة، والدعـوة العظيمة، وهذا ماأفاده قولـه {وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْـهَـٰكُمْ عَنْـهُۚ}، لأنه سيواظب، ويداوم على دعوته غير تارك لها فـي شـيء مـن الأحـوال، وبيـن أن

---

(١) انظر: ابن جرير الطبري، جامع البيان، (٣٠٣/٤) ؛ وانظر: لابن كثير، تفســير القــرآن العظيم، (٧٠٦/٢) .

(٢) الإمام الرازي، مفاتيح الغيب، مج٩، (٤٨/١٨).



عمله كله هو بتوفيق الله عز وجل، وفي الآية: نوع من تزكية النفس، وهذا في قوله {وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ} أي مايحصل من التوفيق لفعل الخير بحول الله وقوته لابحولي ولا قوتي.

كذلك التوكل والإنابة من أنواع العبادة التي بها تستقيم أحوال العباد.

لقد كان شعيب عليه السلام يدعو قومه إلى المعاملة العادلة، والأمانة، وشرف البيع والشراء، والأخلاق العظيمة الاجتماعية، وحين اختاره الله تعالى لتبليغ رسالته زاده ذلك إلى أن يسند تلك المعاملات والأخلاق إلى أصل ثابت يحكم بها تلك المعاملات والأخلاق، فصار عليه الصلاة والسلام يتلطف مع قومه ويشعرهم أنه على حق ولاينهاهم عن شيء، ثم يفعله إنما هي دعوة للإصلاح.

" فالإصلاح العام للحياة، والمجتمع الذي يعود صلاحه بالخير على كل فرد وكل جماعة فيه، وإن خيل إلى بعضهم أن اتباع العقيدة والخلق يفوت بعض الكسب الشخصي، ويضيع بعض الفرص القذرة، ويعوض عنها كسبا طيبا، ورزقا حلالا، ومجتمعا متضامنا، متعاونا لاحقد فيه، ولاغدر، ولاخصام، وماتوفيقي إلا بالله، فهو القادر على نجاح مسعاي في الإصلاح بما يعلم من نيتي، وبما يجزي على جهدي " عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ " عليه وحده لا أعتمد على غيره "وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ" إليه وحده أرجع فيما يجزيني من الأمور، وإليه وحده أتوجه بنيتي، وعملي، ومسعاي"[١].

ومضى عليه السلام في دعوته ومارس جميع أساليبها، وأخيرا تنصل من الإعتزاز برهطه، وقومه لسوء خلقهم، وعدم أدبهم مع الله تعالى فأنذرهم بالعذاب الذي ينتظر أمثالهم وطويت صفحتهم بصاعقة من الله تعالى، نعم! لقد قام عليه الصلاة والسلام بكل مافي طاقاته من الأعمال الكسبية مع التوكل على الله فقال

(١) انظر: لسيد قطب، في ظلال القرآن، (١٩٢١/٤).

أخيرا ﴿... وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾(١).

" فإلى الله وحده وكلنا أمورنا مع قيامنا بكل ماأوجبه علينا من الحفاظ على شرعه ودينه، فهو الذي يكفينا تهديدكم، وماليس في استطاعتنا من جهادكم: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ **، إذ من شروط التوكل الصحيح القيام بالأحكام الشرعية، ومراعاة السنن الكونية والاجتماعية، فمن يترك العمل بالأسباب فهو الجاهل المغرور لا المتوكل المأجور"**(٢).

وقال تعالى حكاية: عن موسى وقومه ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾(٣).

إن وعد الله ماض لرسله وأقوامهم، وهذا موسى عليه السلام، وقومه يخبر الله تعالى عنهم **وقال موسى لقومه قوموا بوظيفة الإيمان بالله واعتمدوا عليه، والجأوا إليه واستنصروه فقالوا ممتثلين لذلك** {عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا} **فالله تعالى كاف كل من توكل عليه**(٤).

وهذه الأمور موقوفة على امتثال أمر الله، والثقة، وحسن الظن بالله تعالى، ولن يخلف الله وعده أبدا " **إن كنتم آمنتم بالله حق الإيمان فعليه توكلوا وبوعده فثقوا إن كنتم مستسلمين مذعنين؛ إذ لايكون الإيمان يقينا إلا إذا صدقه العمل وهو الإسلام، ... ذاك أن التوكل على الله وهو أعظم علامات الإيمان لايكمل إلا بالصبر على الشدائد، والدعاء**

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٨٩ .

(٢) المراغي، تفسيره، مج٣، (٦/٩).

(٣) سورة يونس، آية: ٨٤-٨٥.

(٤) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٦٦٣،٢)؛ وانظر: للسعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٣٥٤/٢).



لايستجاب إلا إذا كان مقرونا باتخاذ الأسباب بأن تعمل ماتستطيع عمله، وتطلب إلى الله أن يسخر لك مالاتستطيع(١)، ويصرف الشيطان حتى لايكون له حظ لأن التوكل لايكون مع التخليط"(٢).

فموسى عليه السلام يعلم قومه ويريد من قومه التحمل والصدق بالله وترك الأمور بيد الله تعالى، وبذل الجهد على التحمل والصبر، والرضا بقضائه وقدره، وحثهم على التوكل، وكرر الشرط تأكيدا لينالوا المقصود.

فهؤلاء الأنبياء جميعهم من أولهم إلى آخرهم اتفقوا على عقيدة التوكل لأنها لازمة ويستشعر بها العارف ربه المقرب إليه يعلم علم اليقين أن التوكل بعد الإيمان به، فإنه يتحكم بكل مايحدث لهم، فوجب التوكل لأنه يعد أمرا يقينيا له مسوغاته الواقعة وقد فعلوا عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

فهؤلاء هم صفوة الخلق، وهاهي أخلاقهم، وهاهو توكلهم على ربهم العلي العزيز، التي ترى من خلال تلك الآيات التى وصفت خلق التوكل في أنبياء الله السابقين، وربطه بالعقيدة، وماهذا إلا من منطق ومقتضى الإيمان أن يكون المؤمن متوكلا على ربه لا على غيره فالمؤمن دائما يسعى إلى التحلي بالأخلاق القرآنية، ومحاسن السجايا حتى يكتمل إيمانه.

" فكأنه تعالى يقول للمسلم حال إسلامه إن كنت من المؤمنين بالله فعلى الله توكل....، لأن الإسلام عبارة عن الاستسلام، وهو إشارة إلى الانقياد للتكاليف الصادرة عن الله تعالى، وإظهار الخضوع وترك التمرد، وأما الإيمان عبارة عن صيرورة القلب عارفا بأن واجب الوجود لذاته واحد....، وإذا حصلت هاتان الحالتان فعند ذلك يفوض العبد جميع أموره إلى الله تعالى، ويحصل في القلب نور التوكل على الله......، والتوكل على الله عبارة عن تفويض الأمور بالكلية إلى الله تعالى، والاعتماد في كل الأحوال على الله تعالى.

---

(١) المراغي، تفسير المراغي، (١٤٤/٤-١٤٥).

(٢) انظر للشوكاني، فتح القدير، (٤٦٦/٢) .

واعلم أن من توكل على الله في كل المهمات كفاه الله تعالى كل الملمات لقوله ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[(١)] ... إن هذا الذي أمر موسى قومه به، وهو التوكل على الله هو الذي حكاه الله تعالى عن نوح عليه السلام حيث قال { فعلى الله توكلت} وعند هذا يظهر التفاوت .... بين التوكل عند نوح عليه السلام أنه قال {فعلى الله توكلت} وعند موسى فنوح عليه السلام كان تاما، وموسى عليه السلام فوق التمام"[(٢)]، وهذه من لطائف القرآن الكريم في معان التوكل عند الرسل الكرام.

وقد عشنا مع أنبياء الله من خلال بعض الآيات القرآنية نهلنا من تجاربهم وتعلمنا من أخلاقهم، فهم القدوة، وتاريخهم تاريخ حافل بالعظمة، وحياتهم مليئة بالكفاح، وفي شخصهم سمو النفس، وكمال الخلق، وفي عقيدتهم رسالة الهدى والخير فكانوا بحق مفخرة الأزمان، وأهلا لقيادة الأمم.

فمن خلال قصصهم نستلهم الصبر والعظات، ونستضيء ونسير على منهجهم خاصة في مقام الدعوة إلى الله ، وفي الدعوة إلى الأخلاق ، قال تعالى : ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[(٣)]، وفي قصصهم ذكر عاطر يصفهم به الله تعالى بأسمى الصفات، والمواهب العقلية، والخلقية كل ذلك ليدل على أنهم الصفوة المختارة من خلق الله، والمثل الأعلى الكامل للبشرية فالقرآن الكريم حين يتحدث عن الأنبياء الكرام ينعتهم بأكمل الأوصاف فيصفهم تارة بالطاعة، وتارة بالإنابة، وتارة بالتوكل، فكل ذلك يشير إلى علو شأنهم، ورفعة مكانتهم، فكانوا هداة العالم، وقادة البشرية.

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾[(٤)].

---

(١) سورة الطلاق، آية: ٣ .
(٢) الإمام الرازي، مفاتيح الغيب، مج٩، (١٥٢/١٨).
(٣) سورة الأعراف، آية: ١٧٦.
(٤) سورة ص، آية: ٤٧ .



هذا هو توكل الأنبياء والرسل حكاه عنهم القرآن الكريم، فتحدوا أقوامهم وملوكهم، فواجهوهم بقوة التوكل، ثابتين واثقين.

قال تعالى: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[١].

إن موقفهم عليهم السلام من عدم التراجع، وعدم اليأس من روح الله جعلهم يمضون في طريقهم موقنين أن الله ولي المؤمنين كافيهم مايهمهم، فرسل الله صلوات الله وسلامه عليهم قدوتنا في الحياة فما بالنا بخاتمهم نبي الرحمة نموذج الكمال البشري، عنوان الفضل، حامل مشعل النور والضياء، قائد سفينة البشرية المؤمنة على مدى الدهر، أفضل الرسل وخاتمهم محمد ﷺ، ختم الله به النبوة والرسالة، فكان ختام مسك، إذ هو آخر المرسلين، وأولهم رتبة، سيد ولد آدم.

قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[٢].

اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون أكمل البشر خلقا وخلقا، أفضلهم علما، أشرفهم نسبا، فكان القدوة، والأثر الحسن، فكان المربي، والموجه والمرشد لكل خلق جميل "**عن أبي هريرة** رضي الله عنه **قال: قال رسول الله** ﷺ "**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**"[٣].

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ١٢ .

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٤٠.

(٣) رواه أحمد (٢/٣٨١)، واللفظ له، والحاكم (٢/٦١٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه؛ ووافقه الذهبي؛ وقال محقق جامع الأصول (٤/٤): قال الزرقاني: رواه أحمد وقاسم بن أصبغ والحاكم والخرائطي برجال الصحيح عن محمد بن عجلان... عن أبي هريرة، وقال ابن عبدالبر: هو حديث مدني متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة.

فقد حرص عليه الصلاة والسلام على توكيد وترسيخ الأخلاق، خاصة الأخلاق التعبدية في قلب أمته، فهو عليه الصلاة والسلام من خير المتوكلين وأفضلهم، وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكل في آيات كثيرة منها :

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(٣).

وقال تعالى لخليله محمد - ﷺ - : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾(٥).

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.
(٢) سورة النساء، آية: ٨١ .
(٣) سورة الأنفال، آية: ٦١ .
(٤) سورة هود، آية: ١٢٣.
(٥) سورة الفرقان، آية: ٥٨.

وقال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[٤].

فهذه تسع آيات بينات أمر الله تعالى فيها حبيبه، وخليله، وصفيه رسول الله ﷺ بالتوكل في كتابه العزيز؛ ذلك أنه ﷺ أكبر قدوة للبشرية في تاريخها الطويل، وكان مربيا، وهاديا بسلوكه الشخصي قبل أن يكون بالكلام الذي ينطبق عليه فقد أحسن سبحانه وتعالى تأديبه وتربيته فكان المثل الأعلى في الكمال البشري، وفي كل خلق وسلوك فقد كان قرآنا يمشي على الأرض وكان تطبيقا حيا، ومشاهدا، فالآيات الكريمة **هي حسب رسولنا الكريم ويكفيه ولآية:، ونصر، وإعانة الله تعالى له بعد توكله، وإنابته له سبحانه وتعالى**[٥].

فكان ﷺ في كل أمر قصده، وأمضاه توكل على الله، ورسولنا الكريم يعلم أنه لاناصر له إلا الله، وأن من نصره الله فلاغالب له، ومن خذله لاناصر له، لذلك فوض أمره إليه وتوكل عليه، ولم يشتغل بغيره[٦].

فالآيات المشيرة إلى التوكل **ماهي إلا توجيه وتطمين، وعزم، وحسم في التوكل على الله، وفي كلاءة الله وحفظه، فقد كان ﷺ يأخذ توجيهاته من لدن حكيم عليم، وخلق التوكل استمده ﷺ من تلك**

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٢١٧.
(٢) سورة النمل، آية: ٧٩ .
(٣) سورة الأحزاب، آية: ٣ .
(٤) سورة الأحزاب، آية: ٤٨ .
(٥) انظر لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (١/ ٨٠١).
(٦) انظر للشوكاني، فتح القدير، (١/٣٩٤).



التوجيهات والأوامر الربانية، فالتوكل على الله هو الأصل في استشعار القلب لجلال الله، والاستسلام المطلق لإرادته، واتباع المنهج الذي اختاره فإن رد الأمر إلى الله في النهاية:، والتوكل عليه وحده هو القاعدة الثابتة المطمئنة التي يفيء إليها القلب، فيعرف عندها حدوده، وينتهي إليها ويدع ماوراءها لصاحب الأمر والتدبير، في ثقة، وفي طمأنينة وفي يقين[1].

فرسولنا الكريم وقدوتنا ومعلمنا وأسوتنا من خلال سلوكه ﷺ يتعلم الحاكم أن في المشاورة خير يليه العزم فالتوكل على الله .

ويتعلم الداعي إلى الله أن في التوكل على الله الكفاية: والنصير. ويتعلم المحارب والمقاتل أن في التوكل على الله النصرة والغلبة، ويتعلم العبد المؤمن أن في التوكل على الله الخير الكثير لأنه عبادة لرب العالمين، وفي التوكل يجد المؤمن الركن الركين، والحصن الحصين يلوذ به في مواجهة الصعاب وتذليلها، وعلى هذا فإن الرسول ﷺ يعلم أصحابه وأمته من بعده، وهو إمامنا ونبينا مثلا أعلى للخلق الذي يدعو إليه فيغرس الخلق السامي من خلال سيرته العطرة، عطره بحكمه، وعظاته، ونصائحه.

وقد أمر الله تعالى رسوله - ﷺ - بالتوكل في أسلوب الإعلان، والدعاء، قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾[2].

إن الله تعالى هنا أمر نبيه ورسوله محمد - ﷺ - بعد أن مضى في رسالته ولقي الصد والإعراض والكفر من قومه أن يتوكل عليه لما لقيه منهم من المواقف، والحوادث، والقوارع فصمد لها نبي الأمة لاعتماده وارتكازه على ربه مطمئنا إلى حماه معتمدا على الله وحده، والمعنى :

---

(١) انظر: لسيد قطب، في ظلال القرآن، (٤٩٦/١)، (٧٤٠/٢)، (٢٨٣٢/٥).

(٢) سورة الرعد، آية: ٣٠ .

فهو خالقي، وأنا مؤمن به معترف له مقر له بالربوبية والألوهية عليه لا على غيره، توكلت في جميع أموري وإليه أرجع، وأنيب، وأتوب فإنه لايستحق العبادة والإيمان سواه وهو متولى أمري ومبلغي مراتب الكمال(١).

قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾(٢).

فدعاء الحسبلة دعاء رسولنا الكريم ﷺ ، ودعاء كل عبد مؤمن استقرت في قلبه الحقيقة حقيقة لاكاشف للضر، ولامانع للرحمة إلا هو العلي القدير، فدعاء رسولنا هذا جاء بعد ذكر السموات والأرض وخلقهن، فالله تعالى خلق السموات والأرض وهي أعظم وأكبر من خلق الإنسان، قال تعالى :﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٣)، إن الإنسان لضعيف أن يلجأ إلى الله تعالى ويكل أموره، ويصرفها لله العلي بلى! إن الإنسان مأمور بتصريف أموره كلها لخالقه، ورازقه فهذا رسولنا الكريم - ﷺ - يدعو ربه، ولابد أن يكون هذا حال العبد المؤمن يدعو الله، ويلجأ إليه متى استقر في قلبه الإيمان وحقيقته، فهو سبحانه الحامي وكاشف الضر، ومنزل رحمته على عباده، والمعتمد عليه والمعتصم به هو الله، والمتوكل عليه هو الله ﴿ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾(٤).

---

(١) انظر لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٧٩٦/٢)؛ وللشوكاني، فتح القدير، (٨٢/٣)؛ وللمراغي، تفسيره، (١٠٤/٥).
(٢) سورة الزمر، آية: ٣٨ .
(٣) سورة غافر، آية: ٥٧.
(٤) سورة الزمر، آية: ٣٨ .



" إنه متى استقرت هذه الحقيقة في قلب مؤمن، فقد انتهى الأمر بالنسبة إليه، وقد انقطع الجدل، وانقطع الخوف، وانقطع الأمل، إلا في جناب الله سبحانه، فهو كاف عبده، وعليه يتوكل وحده، ثم إنها الطمأنينة بعد هذا والثقة، واليقين، والطمأنينة التي لاتخاف، والثقة التى لاتقلق، واليقين الذي لايتزعزع، والمضى في الطريق على ثقة بنهاية: الطريق "[١].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾[٢].

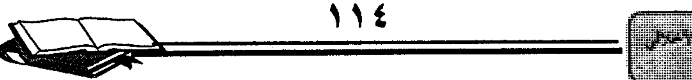
ومااختلفتم أيها الناس فيه من شيء فتنازعتم بينكم فإن الله هو الذي يقضي بينكم، ويفصل فيه الحكم قل لهؤلاء المشركين بالله هذا الذي هذه الصفات صفاته ربي لا آلهتكم التي تدعون من دونه، التي لاتقدر على شيء " عليه توكلت" في أموري، وإليه فوضت أسبابي، وبه وثقت "وإليه أنيب" وإليه أرجع في أموري وأتوب من ذنوبي[٣].

" فالقرآن يحكي قول الرسول ﷺ ، مسلما أمره كله لله منيبا إلى ربه بكليته فتجيء هذه الإنابة، وذاك التوكل، وذلك الإقرار بلسان رسول الله ﷺ في موضعها النفسي المناسب، للتعقيب على تلك الحقيقة في أن المرجع إلى كل اختلاف هو الحكم الإلهي، فها هو رسول الله، ونبيه يشهد أن الله هو ربه، وأنه يتوكل عليه وحده، وأنه ينيب إليه دون سواه"[٤].

فالمؤمن يجب أن تستقر هذه الحقيقة في قلبه حتى يضاء الطريق أمامه وتتحدد معالمه فرسلنا الكرام من أولهم إلى آخرهم هم القدوة والمثل والأسوة الحسنة الصالحة للبشرية؛ أمرنا الله عز وجل بالاقتداء والسير على منهاجهم، وجعلهم نماذج

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، (٥/٣٠٥٤).
(٢) سورة الشورى، آية: ١٠ .
(٣) انظر لابن جرير، جامع البيان عن تفسير آي القرآن، (٦/٤٨٢-٤٨٣).
(٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، (٥/٣١٤٦).



للكمال، وعنوانا للفضل؛ لأنهم أكمل الناس عقلا وخلقا، وأطهرهم سلوكا، وأشرفهم رتبة ومنزلة.

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ... ﴾(٢).

إن رسولنا الكريم مأمور بالاقتداء بمن سبقه من رسل؛ قد هداهم الله هداية: كاملة في الأخلاق والصفات، فكان ﷺ مهتديا بهداهم كلهم، فكانت مناقبه، وفضائله الكسبية أعلى من مناقبهم، وفضائلهم؛ لأنه اقتدى بها كلها فاجتمع له من الكمال ماكان متفرقا فيهم، وشهد ربه بذلك فقال﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(٣).

فهذا رسولنا الكريم يقتدي، ويهتدي بمن سبقه، فما بالنا نحن، فلزم علينا الاقتداء والامتثال لأمر الله تعالى، والسير على نهج الأنبياء، والعلماء من الكسب، والعمل، والأخلاق لنكون على طريق الحق، والاستقامة ونمضي ونسير عليه(٤).

فالمؤمن تزيد قيمته عند ربه بقدر عمله بالعبادات ومدى إخلاصه فيها؛ لأن العبادات من أهم مايميز المؤمن عن غيره.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ ﴾(٥).

فكل من احترم إنسانيته وكرامته وأعطاها حقها من اتباع الأمر واجتناب النهي، وأعطى الله حقه، ويتبعون طريق الخير فإن الله بهذا يرفع كل ذي فضل على قدر فضله ويؤتي أجره بقدر مايعمل من الأعمال والعبادات.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١ .
(٢) سورة الأنعام، آية: ٩٠ .
(٣) سورة القلم، آية: ٤ .
(٤) انظر للمراغي ، تفسيره، (٣/١٨٤-١٨٥).
(٥) سورة التين، آية: ٤ – ٦ .



قال تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴾(١).

فهذا التوكل من الأعمال والعبادات التي يأخذ المؤمن أجره فيه من الله تعالى في الآخرة وفي الدنيا فإن للتوكل قيمة عملية، فهو يدعو الإنسان أن يكون نشيطا مجدا يكسب رزقه بشرف، ويدعو إلي الجلد، والصبر، والثقة بالنفس وقوة الإرادة، والسعي لمزيد من الإنتاج لمزيد من الانفاق والخير، وكل ذلك يؤدي إلى الصبر والشجاعة دون تبرم أو ضجر.

فمما سبق أشرنا إلى هدي الرسل الكرام في توكلهم على الله تعالى، فكتاب الله تعالى يطالعنا بصور ونماذج لم يخلق الله أجمل منها في هذا الكون... ونرى أسلوب القرآن في الحديث عن الرسل الكرام، الصفوة المختارة من البشر يتدفق بالحياة، ويفيض بالبشر، وينم عن الحب والإيثار فيذكر بالثناء العاطر، ويصفهم بأسمى الصفات، والمواهب العقلية والخلقية، والتعبدية؛ كل ذلك ليدل على أنهم الصفوة، من خلق الله ... ولنقرأ ماقال تعالى في حقهم:﴿ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾(٢).

هكذا نجد القرآن العظيم حين يتحدث عن الأنبياء والرسل الكرام، يصفهم بأسمى الصفات العالية، وتظهر من خلال سطوره معالم الحب والتكريم والاصطفاء والاجتباء، فيصفهم تارة بالطاعة والإنابة، وأخرى بالتوكل والإيمان، ويذكرهم في بعض المواطن بالصدق والنزاهة والصبر والتحمل؛ فكل ذلك ليشير إلى علو شأنهم، ورفعة مكانتهم، وسمو الرسالة التي بعثوا من أجلها، فكانوا هداة وقادة البشرية؛ لأنهم كما أسلفنا الذكر هم أكمل البشر خلقا، وأفضلهم علما، واقتضت حكمته أن يحفظهم بعنايته، ويكلأهم برعايته، ويربيهم على عينه تبارك وتعالى، كما قال جل

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٣٢.
(٢) سورة الأنبياء، آية: ٧٣ .



ثناؤه مخاطبا سيد الرسل الكرام ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾(١)، وكما قال لموسى عليه السلام ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾(٢)، هؤلاء هم الرسل الكرام سادة البشر، استحقوا أن يحملوا اللواء في سبيل عزة الإنسانية، وانتشالها من براثن الشرك، والضلال، إلى نور التوحيد والإيمان.

---

(١) سورة الطور، آية: ٤٨.
(٢) سورة طه، آية: ٣٩.



المبحث الثاني

التوكل على الله من أخلاق المؤمنين

إن مقتضى الإيمان بالله تعالى أن يكون المؤمن ذا خلق، ولقد وجدنا أن الإسلام ربط بين الإيمان والأخلاق والسلوك بوجه عام، والسلوك والأخلاق بوجه خاص ربطا لا انفصام فيه، ونجد ذلك في نصوص كثيرة يصعب حصرها.

فلفظ الإيمان إذا أطلق في القرآن والسنة يراد به مايراد بلفظ البر، وبلفظ التقوى، وبلفظ الدين، فكل مايحبه الله يدخل في اسم الإيمان، وأصل الإيمان هو تصديق بالقلب وعمل القلب، وإذا كان هذا حال القلب تصديق وعمل سرى ذلك إلى البدن بالضرورة؛ لأن الظاهر تابع للباطن لازم له فمتى صلح الباطن صلح الظاهر وإذا فسد فسد(١).

والإيمان شعب كثيره، فلفظ الإيمان يطلق على سلوك، وأخلاق ...الخ.

(**فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان"**)(٢).

(**وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه"**)(٣). وغيرها من الأحاديث كثير.

وقال تعالى:﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾(٤).

---

(١) انظر لشيخ الإسلام ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (١٧٩/٧- ١٨٦).

(٢) البخاري مع فتح الباري لابن حجر، ح(٩)؛ مسلم (٣٥) (٦٣/١) كتاب الإيمان، وعند مسلم بلفظ آخر هو (الإيمان بضع وسبعون شعبة).

(٣) البخاري مع فتح الباري لابن حجر، ح(١٣) (١٣/١) (١٣/١)؛ ومسلم (٤٥)، (٦٧/١) كتاب الإيمان.

(٤) سورة البقرة، آية: ٤٣-٤٤.

وقال تعالى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[(١)].

ولهذا كان المسلمون الأوائل إذا سمعوا بنزول أمر أو واجب سارعوا إليه وإذا نزل تحريم أمر انتهوا عنه فمن هنا نستطيع أن نعرف مدى إيمان المرء بمقدار مايتحلى به من مكارم الأخلاق، فعندما يطالب القرآن أتباعه بالتوكل، بذكر وصف الإيمان؛ فهو إشارة إلى أن الإيمان يقتضي التوكل، إلى أن من يؤمن هو من يتوكل على الله لا على غيره .

والإيمان في القرآن الكريم يقترن كذلك بالعمل الصالح لفظا أو معنى ويراد به الإذعان والتصديق.

قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[(٣)]، وقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[(٤)].

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٧٧ .
(٢) سورة البقرة، آية: ٢٥ .
(٣) سورة البقرة، آية: ٢٧٧ .
(٤) سورة المائدة، آية: ٩ .

فإيثار صيغة أمر الغائب وإسنادها إلى المؤمنين؛ لإيجاب التوكل على المخاطبين بالطريق البرهاني؛ للإيذان بأن ماوصفوا به عند الخطاب من وصف الإيمان داع إلي ما أمروا به من التوكل والتقوى والخير وازع عن الإخلال بهما[١].

فالتوكل على الله خلق تعبدي يصل بين المرء وربه فهذه العبادة الخلقية هدفها وغايتها السمو الخلقي بالمؤمن، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[٢].

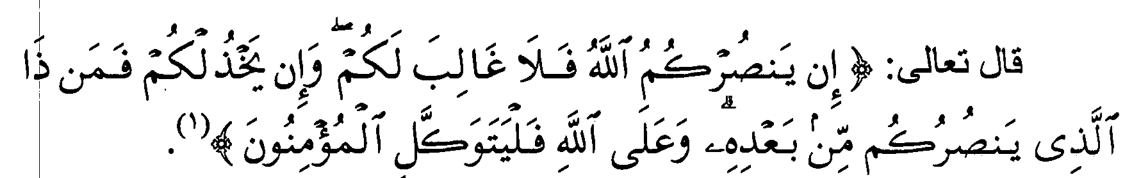
ومما أشرنا إليه في المبحث الأول نرى أن الله تعالى قد ربى في أنبيائه جميعهم بخاتمهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين على الخلق الحسن، والعبادة الحقة له سبحانه، وأعطاهم على ذلك الجزاء وأوفاهم بالمثوبة وأخبرهم بها، وهكذا كان على المؤمن أن يتحلى ويقتدي بأفعالهم حتى ينال الثواب، فقد حث سبحانه وتعالى في كثير من آياته الكريمة إلى التوكل بأسلوب المثوبة المادية، والمعنوية لتحقيق منهج لغرس هذا الخلق العظيم، فالتوكل على الله يسطع شعاعه على جوارح العبد المؤمن، وقلبه أشد مايكون تألقا في الشدائد المحرجة، فالإنسان عندها ينسلخ من أهوائه، ويتبرأ من أخطائه، ويقف في ساحة الله أوابا، يرجو رحمته ونصرته.

قال تعالى: ﴿ إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[٣].

إن الأمر بالتوكل جعل شرطا لكمال الإيمان، وجعله سبحانه وتعالى من السمات الأساسية للمؤمنين الصادقين لذلك **فإن وصف الإيمان من دواعي التوكل وموجباته**[٤].

---

(١) انظر لأبي السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (٢/١٥).
(٢) سورة المائدة، آية: ١١ .
(٣) سورة آل عمران، آية: ١٢٢-١٢٣.
(٤) انظر: للألوسي ، روح المعاني، مج (٣-٤) (٤/٤٣)؛ انظر لأبي السعود، المصدر السابق، (١/٤٠٨) .



قال تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[2].

إن التوكل على الله تعالى متعلقه واسع جدا، وشامل لكل مايطلبه الخلق من أمور دينية، ودنيوية، فالتوكل على الله تعالى داخل في أمور الحرب والقتال، وهذا مادلت عليه آيتا آل عمران فعلى كل محارب ومقاتل أن يلزم نفسه بالتوكل على الله والرضى بمقدوره إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، ويطمئن بوعد الله تعالى ويثق به، فالمؤمن يتوكل على ربه أن ينصره على ظالمه وعدوه وهذا من مكارم أخلاق المؤمنين؛ لأن مواطن التوكل كثيرة؛ والتوكل مطلوب في كل شؤون الحياة، فطلب النصر والفرج من الله والتوكل عليه هذا موطن، وموطن آخر في الإعراض عن الأعداء، وليكن التوكل رفيقا وصاحب درب، وإذا تكالب الأعداء ونصبوا شباكهم فالتوكل له هنا مكان، فليكن التوكل أيها المؤمن لك، وعليك ليكون الله لك في شؤونك كلها صغيرها وكبيرها.

وفي آية المائدة يأتي التوكل بعد ذكر التقوى، فهي آية الإيمان الصحيح والعقل السليم الذي يدفع إلى كل خلق كريم؛ لأن التقوى **"عند أهل الحقيقة هي الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته وهي صيانة للنفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك"**[3].

فمن هنا فالتقى هو من يتوكل على ربه، ويعرف المؤمن من ذلك أن من كان تقيا متوكلا هو الأقوى إيمانا وحبا لله، وهو الأحرى بمزيد فضله، وعظيم أجره

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦٠ .
(٢) سورة المائدة، آية: ١١ .
(٣) الجرجاني، التعريفات، ص ٩٠ .



سبحانه وتعالى، وبهذا كان التقي ملازما للآداب والأخلاق الشرعية وبجانب كل مايبعده عن الله تعالى .

ومن المهم هنا أن نشير إلى ارتباط التوكل مرة بالإيمان؛ ومرة بالتقوى فلايعتقد أحد أن الإيمان غير التقوى، فالإيمان فعل وعمل وإقرار[١]، والتقوى هي الإخلاص في العمل[٢]، فكل مؤمن على هذا تقي وكل تقي مؤمن.

فالمتوكل مؤمن تقي، لأن في عمله يقر ويصدق ويخلص في توكله على ربه سبحانه وتعالى.

إن إقبال الأنبياء والرسل الكرام والمؤمنين على التوكل ديدنهم، وكذلك الدعاء الذي هو من مضامين التوكل سمتهم فالفتح والنصر كله بيد الله تعالى، فالدعاء منهجهم عليهم الصلاة والسلام بعد أن شعروا من أقوامهم الكبر والعصيان لعبودية الله وحده والخضوع لرب العالمين.

فبدون التوكل على الله لا تستطيع أمة ولا جماعة ولا فرد أن تحقق هدفا يفرضه الإسلام أو تتخلص من أوضاع ظالمة[٣] مثل الإغترار بالرضاء، والاستهزاء بالإنذار واستعجال العذاب، والطغيان والتهديد، وإيذاء المؤمنين.

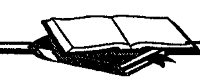
فإن جميع رسل الله يعرفون مصدر قوتهم، وملجأ الأمان ويعلمون أن الله -سبحانه وتعالى- هو الذي يفصل بالحق بين الإيمان والكفر، ويتوكلون على ربهم وحده في خوض معركة لهم لامفر منها مع أقوامهم إلا بدعاء وفتح من الله، فكل مؤمن داعيا إلى الله تعالى في حاجة ماسة إلى التوكل واللجوء لله سبحانه وتعالى، فقد أطلق كل الدعاة المؤمنين الحقيقة الدائمة، وهي على الله وحده دون سواه يكون التوكل ولا لجوء، ولاعون، ولاإنابة إلا له العزيز الحكيم، فعلى كل داعية أن يواجه

---

(١) انظر للكفوي، الكليات، معجم في المصطلحات والفروق الفردية، قابله على نسخة خطية عدنان درويش ومحمد المصري،(بيروت: مؤسسة الرسالة، تط الأولى ١٤١٢هـ)، ٥ مج، (٢١٣/٣-٢١٧).

(٢) الجرجاني، التعريفات، ص٩٠.

(٣) سعيد حوى، الأساس في التفسير، ١٢ مج (القاهرة: دار السلام تط الثانية، ١٤٠٩هـ)، (٢٤٩٩/٥).



الكبرياء بالإيمان، والأذى بالإعراض فالتوكل هي كلمة المؤمنين الذين ملئوا قلوبهم بالثقة من نصر الله تعالى وتاييده، والمؤمنون هم الذين يشعرون ويحسون أن يد الله تعالى تقودهم وتهديهم إلى الصراط المستقيم .

" وهذه الحقيقة ـ حقيقة الارتباط في قلب المؤمن بين شعوره بهداية: الله وبين بديهية التوكل عليه لا تستشعرها إلا القلوب التى تزاول الحركة فعلا في مواجهة طاغوت الجاهلية، التي تستشعر في أعماقها يد الله سبحانه وتعالى وهي تفتح كوى النور فتبصر الآفاق مشرقة، وتستروح أنسام الإيمان والمعرفة، وتحس الأنس والقربى وحينئذ لاتحفل بما يتوعدها به طواغيت الأرض، ولاتملك أن تستجيب للإغراء ولا للتهديد، وهي تحتقر طواغيت الأرض، ومافي أيديهم من وسائل البطش والتنكيل، وماذا يخاف القلب الموصول بالله على هذا النحو؟ وماذا يخيفه من أولئك العبيد؟![(١)].

هذا ما دلت عليه الآية الكريمة في سورة إبراهيم :

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[(٢)] .

إن نبوة ورسالة جميع الرسل وأنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كانت منة من الله، أذن لهم بها وأيدهم بالحجة وتوكلوا على الله وقصدوه فإنه سبحانه لم يضيرهم وهو أعلم بما ينفع أولياءه، فكل شيء متعلق بأمر ومشيئة الله وإذنه، فالطاعات أذن بها الله تعالى وأمرنا بالسعي والتوكل عليه فيها حتى تكون على أكمل وجه لنرضي بها خالقنا.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، (٢٠٩٢/٤).

(٢) سورة إبراهيم، آية: ١١-١٢.

فرسل وأنبياء الله توكلوا في جميع أمورهم على الله تعالى، فكيف بنا إذن؟! فالأولى والأحرى أن نكون نحن أيضا من المتوكلين على الله؛ ليهدينا إلى أقوم الطرق وأوضحها وأبينها[١] وقد أمر الرسل المؤمنين كافة بالتوكل وقصدوا به أنفسهم قصدا أوليا.

هكذا كان الإسلام وسيظل بعقائده وحقائقه وأخلاقه وأعماله يحث على كل ماهو نافع مزك للقلوب مطهر للأخلاق والسلوك نافع للدين والدنيا، والقرآن الكريم يربي في النفوس ويعدها لأدوار عظيمة ضخمة لبناء مجتمع إسلامي ذي أخلاق وعادات ترفع من لواء المؤمنين جميعا، فهو يخاطب المؤمنين بنداء حبيب إلى نفوسهم {يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} لينهاهم أو ليأمرهم بأمر ما، فما على المؤمن إلا اتباع تعاليم ومنهجية الشارع سبحانه وتعالى فيما أمر ونهى، وتقرير موقفه من ربه وثقته به وتوكله عليه.

قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[٢].

عليه لا على غيره أصلا لعلمنا بأن ماعداه كائنا ماكان بمعزل من النفع والضر وعليه توكلنا في جميع أمورنا[٣].

والتوكل على الله أساسا أمر مبني على أسس أخلاقية، وهذا ماكان في قول حاتم الأصم[٤] "**عندما سأله رجل علام بنيت أمرك في التوكل على الله؟ قال: على خصال أربع: علمت أن رزقي لايأكله غيري فاطمأنت به نفسي، وعلمت أن**

---

(١) انظر لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٨١٣/٢).

(٢) سورة الملك، آية: ٢٩ .

(٣) انظر لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٦٢٤/٤)؛ ولأبي السعود، إرشاد العقل السليم، (٧٥١/٥).

(٤) حاتم الأصم، أبو عبد الرحمن، التقى بالإمام أحمد، وقال عنه الإمام أحمد بعد أن سمع كلامه "وما أعقله من رجل"؛ وفيات الأعيان، (٢٧/٢)؛ حلية الأولياء، مجلد (٧-٨)، (٧٣/٨) رقم ٣٦٩.

عملي لايعمله غيري فأنا مشغول به، وعلمت أن الموت يأتيني بغتة فأنا أبادره، وعلمت أني لا أخلو من عين الله حيث كنت فأنا مستحي منه"[١].

فالأساس الأول : الرزق، فالمؤمن لابد أن يوقن أن الله تعالى قد كتب لكل مخلوق رزقه، ولاتموت نفس حتى تستوفي رزقها الذي كتبه الله عليها، ولايمكن لمخلوق أن يأخذ رزقا قد كتبه الله لمخلوق آخر، والإنسان يعيش ويمارس هذه الحقائق الكبرى فتطمئن بذلك نفسه، ولايقلق بكثرة الانشغال والخوف على رزقه.

الأساس الثاني : العمل ، فالتوكل على الله في الأعمال الصالحة من أشرف أنواع التوكل إذ أن القائم فيها لايبتغى عرضا من أعراض الدنيا بل يريد وجه الله، قال تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[٢].

الأساس الثالث: الموت، فهذا الأساس له صلة بالأساس السابق، من حيث المؤمن حينما يستيقن ويستحضر دائما أن الموت يأتي من غير ميعاد، فإنه دوما سيكون مستعدا ويسابق الموت بالأعمال الصالحة، فإذا ماجاء الموت، كان المؤمن قد أعد الزاد ليوم الرحيل.

الأساس الرابع: المراقبة، لايمكن للمؤمن أن يتوكل على الله حق توكله حتى يشعر رقابة الله عليه، مما يجعله يستحي أن يفوض أمره لغيره وهو يؤمن بقدرته على قضاء حوائجه، لهذا كان هذا الأساس من أهم الأسس الذي ينبني عليه أمر التوكل، والقرآن مليء بالآيات التي توصل مراقبة الله في نفس المؤمن، حتى لايتجه إلى غير الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[٣].

---

(١) أبو الفرج بن الجوزي ، صفة الصفوة، (حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ت ط ١٣٩٢هـ)، (٤/١٦١).

(٢) سورة النجم، آية: ٣٩.

(٣) سورة المجادلة، آية: ٧ .

فالتوكل على الله من أخلاق المعاملة، معاملة المؤمن لربه عز وجل، فلابد أن ترتقي هذه المعاملة، ورقيها نابع من طاعة المرء لربه، ولرسوله ﷺ.

قال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[1].

فأمر الله بطاعته ورسوله فيما شرع وفعل مابه أمر وترك ماعنه نهى وزجر ... فسبحانه يخبر أنه الأحد الصمد الذي لا إله غيره فقال " الله لا إله، فالأول خبر عن التوحيد ومعناه معنى الطلب أي وحدوا الإلهية له وأخلصوها لديه وتوكلوا عليه وحده فهذا هو أثر التصور الإيماني في القلوب، وفي هذا (إيماء) إلى أن المؤمن لايعتمد إلا عليه، ولايتقوى إلا به؛ لأنه يعتقد أنه لاقادر في الحقيقة إلا هو وفي الآية: دليل على أن من لايتوكل عليه ليس بمؤمن[2].

إن من يرزق وينعم بطاعة الله والتوفيق لما يحبه ويرضيه سبحانه فهو دائم التقوى والخوف من العزيز الحكيم، وتبرز من هنا قيمة الإيمان، والطاعة؛ لأن بعد هذا لاخوف ولامهابة إلا منه عز وجل، فالله لايجمع في قلب واحد بين مخافتين: مخافته جل جلاله، ومخافة الناس، فيرسخ بذلك الإيمان، ولايسع المؤمن إلا أن يتوكل على الله وحده؛ لأن ذلك منطق الإيمان، ومقتضاه وهذا مادلت عليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[3].

---

(١) سورة التغابن، آية: ١٢-١٣.

(٢) انظر: لابن كثيربتصرف، تفسير القرآن العظيم، (٥٨٧/٤)؛ ولسيد قطب بتصرف، في ظلال القرآن، (٣٥٨٩/٦)؛ وللمراغي بتصرف، في تفسيره، (١٢٧/١٠-١٢٨).

(٣) سورة المائدة، آية: ٢٣.



فالعبد يجد الإيمان في قلبه بعد طاعة ربه، ويزيد إيمانه بقدر فعله للطاعات، وقد عرض القرآن الكثير من الطاعات التي تزيد إيمان المرء بربه منها على سبيل الذكر لا الحصر، مخافته سبحانه والإنابة إليه، ذكره سبحانه، التوكل عليه.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[1].

فالمؤمن هو الذي لايخالف الله ورسوله ولايترك اتباع ما أنزله إليه في كتابه من حدود وفرائض، وهو الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، وانقاد لأمره، وخضع لذكره، خوفا منه، وهربا من عقابه، وإذا قرئت عليه آياته أيقن بها وازداد تصديقا لها، تصديق فضل عن تصديقه بما كان قد بلغه منه قبل ذلك، وذلك هو زيادة ماتلي عليه من آيات الله إياه إيمانا " وعلى ربهم يتوكلون" أي يوقنون، في أن قضاءه فيهم ماض، فلايرجون غيره، ولايرهبون سواه[2].

وقال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾[4].

فالإيمان يزيد في قلب وحياة صاحبه، يزيد ويزيد حتى يملأ قلب ووجود صاحبه، ويكون نورا يضيء له حياته، ويكون هو قد تمثل الإيمان عمليا في حياته، وتجسد الإيمان به وحل في كيانه، كلامه إيمان، ونظره إيمان، وسمعه إيمان، وذهنه

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢ .

(٢) انظر: ابن جرير الطبري، تفسيره، (٤/٩-١٠).

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٧٣.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٢٢.



إيمان، قيامه قعوده إيمان، نومه ويقظته إيمان، حركته سكونه إيمان، أنفاسه ودقات قلبه إيمان، أو لنقل: إنه هو الإيمان.

فسمة التوكل على الله من صفات من هم في إيمان. " **لايرجون سواه، ولايقصدون إلا إياه، ولايلوذون إلا بجنابه سبحانه ولايطلبون الحوائج إلا منه، ولايرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده لاشريك له ولامعقب لحكمه وهو سريع الحساب**"(١).

فالتوكل على الله مقتضى الإيمان والإسلام، وهذه حقيقة لايرتاب أحد فيها، فيتضح لنا أن القرآن الكريم قد عرض في آياته الكريمة من صفات أهل الإيمان أهمها وأشهرها، ودعت المؤمنين أن يتصفوا بها حتى يعيشوا حياة إيمانية، وينالوا جنة الله وثوابه، ونعيمه والمؤمن حريص على أن يكون مع ربه، وهذه الصفات تتفاوت قلة وكثرة قصرا وطولا ، والتوكل على الله من أهم هذه الصفات؛ لأنه صفة متصلة برب العباد مباشرة، وقد أكد عليها القرآن في آياته، واستمرار عرضها في سور مكية ومدنية يدل على أهمية اتصاف المؤمنين بها وتحققها فيهم، وأهمية التذكير المستمر بالتوكل على الله حتى لاينسى ولايهمل.

فهذا خلق التوكل جلي أمامنا فما علينا إلا أن نقبل عليه، ونتحلى به لنكون من أهل الإيمان.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٤٥٢/٢).



الفصل الثالث

التوكل على الله وعلاقته بالأسباب

وفيه :

تمهيد .

المبحث الأول: أركان التوكل على الله .

المبحث الثاني: التوكل على الله من أسباب النصر.

المبحث الثالث: القدرة والمشيئة والأسباب .

المبحث الرابع : الأعمال التي يعملها العباد في تحقيق التوكل.

المبحث الخامس: مجال التوكل على الله .



الفصل الثالث
التوكل على الله وعلاقته بالأسباب

التمهيد :

إن التوكل على الله تعالى من أقوى الأسباب في حصول المراد، وهو كجعل الإسلام والإيمان، والإحسان أسبابا مقتضية لسعادة الدنيا والآخرة، وهو كجعل سائر أعمال القلوب والجوارح أسبابا مؤدية، ومقتضية لما رتب عليها من الجزاء، والكمال كل الكمال في القيام بهذه الأسباب .

فتحقيق التوكل على الله لاينافي الأخذ بالأسباب التي قدر الله سبحانه وتعالى المقدرات بها، وجرت سنته في خلقه، فالله سبحانه أمر بالأخذ بالأسباب، والتوكل عليه، فمن سعى بجوارحه كانت له طاعة مع إيمان القلب.

فالأسباب : **هي الطريق للوصول إلى الحكم غير مؤثر فيه، وقيل مايكون طريقا إلى الشيء غير أن يضاف إليه وجود، وسمي سببا مهيئا نحو مايكون طريقا للوصول إلى الحكم من غير أن يضاف إليه وجوب الحكم أو وجوده؛ أي لايكون ثبوته به ولاوجوده عنده، بل يتخلل بينه وبين الحكم علة لاتصاف وجودها إلى ذلك الطريق، فهو بذلك كالحبل بين شيئين لننال به المطلوب**[1].

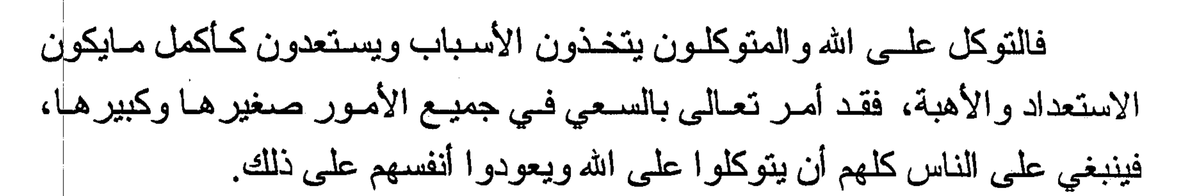
فالتوكل على الله قوة وطاقة روحية تدفع المؤمن إلى العمل والإنتاج، غير أنه يجب أن يكون في الاعتبار أن الاعتماد على الأسباب ليس معناه الثقة الكاملة المطلقة في أنها تؤدي إلى الخير، بل يجب الإيمان بأنها ومايراد منها مردهما إلى الله أولا وأخيرا، فهو خالق الأسباب والمسببات .

" فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها، ولكنه لايجعل الأسباب هي التي تنشيء النتائج فيتكل عليها،إن الذي ينشيء النتائج-كما ينشيء الأسباب-هو قدر الله"[2]**، ولاعلاقة بين السبب والنتيجة في شعور المؤمن فاتخاذ السبب عبادة.**

---

(١) انظر: للفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص١٢٣؛ ولابن منظور، لسان العرب؛ ولأبي البقاء الكفوي، الكليات، (٣/٢٠).

(٢) سيد قطب "حديث الشهيد سيد قطب وعلى ربهم يتوكلون"، مجلة المختار الإسلامي، القاهرة، ٦٠٧.



فالتوكل علـى الله والمتوكلـون يتخـذون الأسـباب ويسـتعدون كـأكمل مـايكون الاستعداد والأهبة، فقد أمر تعالى بالسعي في جميع الأمور صغيرها وكبيرها، فينبغي على الناس كلهم أن يتوكلوا على الله ويعودوا أنفسهم على ذلك.

ولابد من ربط الأسباب بالمسببات والأخذ بالأسباب المشروعة أو المباحة في مختلف شؤون الحياة، ونرضى بعدها بأقدار الله تعالى المنزلة علينا، فلايحدث شيء إلا بقدرة الله ومشيئته.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ... ﴿٢٤﴾ ﴾[1]، فما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن .

فالمؤمن يؤمن ويصدق قدر الله في نتائج أعماله، فما عليه إلا أن يردد في يقين قول الله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[2].

---

(١) سورة الكهف، آية: ٢٣-٢٤.

(٢) سورة التوبة، آية: ٥١ .



المبحث الأول

أركان التوكل على الله

إن لكل أمر وشأن أركانا ودعائم يقوم عليها بناؤه، فالإسلام له أركانه الخمسة، فلايقوم بناء إلا على هذه الدعائم حتى يسلم هذا البناء من الخلل.

والتوكل على الله له أركانه وركائزه التى يقوم عليها ليكون توكلا حقيقيا لاتشوبه شائبة.

فجميع الأمور التي تصدق بها النفوس وتطمئن إليها القلوب، وتكون يقينا فهي متمكنة من القلوب راسخة لاتتزلزل، وعلى هذا ربى رسول الله ﷺ ، الرعيل الأول، فاليقين الثابت هو محط الإيمان.

قال تعالى: ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ﴾[1].

فأركان التوكل ودعائمه هي الأشياء التي يتقوى، ويتوقف الإيمان، والعمل عليها، ولايقوم ذلك العمل، والإيمان إلا بها، وإذا فقد ركن أو لم يتحقق انهدم الإيمان والعمل معا.

فلزم من ذلك تقوية هذه الأركان قدر المستطاع وبشتى الأساليب، وهذا قائم على اليقين والإيمان بالله تعالى، فالمؤمن يزيده إيمانا طاعته لربه، فما من عمل إلا وله ركائز يعمل بها، ويكون بها صائبا، ومنها ماهو قلبي، ومنها ماهو عملي، وترك أي منها يوجب الهدم أو النقصان، والتوكل له أركان خمسة هذا ماستخلصته. والله أعلم.

فالركن الأول : اليقين والثقة بما عند الله تعالى، إن اليقين والثقة هما الركن الأول في التوكل وهما بمثابة القاعدة الأساسية؛ لأن اليقين والثقة تزيد المرء المؤمن من ربه قربا وحبا، ومعرفة، ورضى، وخضوعا، واستكانة، وكلما ازداد اليقين

---

(١) سورة المدثر، آية: ٣١.

والثقة في قلب المرء المؤمن سلك بهما طريق السلامة إلى دار السلام، وبهما يكون التوكل على الله صحيحا سليما.

" فاليقين ملاك القلب، وبه كمال الإيمان، وباليقين عرف الله، وبالعقل عقل عن الله"(١).

قال تعالى:﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾(٣).

وقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾(٥).

فمن خلال هذه الآيات نستشعر يقين المؤمن بالله تعالى وثقته بالله، فالمؤمن واثق أن الله تعالى وحده الكافي فلايحتاج معه إلى أحد، فعلى الله التوكل فهو المعين

---

(١) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز،(٥/٣٩٨).

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٦٠.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٧٣.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٦٤ .

(٥) سورة الزمر، آية: ٣٨.



والمانع من العدو ولن يغلب المؤمن بعد عون الله – فخشيته، ويقينه بالله زاده تصديقا، ويقينا في دينه وإقامة على نصرة عدوه[١].

فمتى نزل اليقين والثقة في نفس المؤمن كان من أكثر الناس توحيدا بربه من أصدق الناس طلبا وقوة في الإرادة، وكمال الانقياد، فيعكف القلب على محبة الله، وذكره بالإجلال والتعظيم، وتكون جوارحه على الطاعة، والإخلاص، فعلى قدر نزول اليقين واستقراره في النفس يظهر اللطف عند النوازل، فإن كمل العبد القيام بالأوامر ظاهرا وباطنا ناله اللطف ظاهرا وباطنا، وإن قام بصورها دون حقائقها ناله اللطف في الظاهر وقل نصيبه من اللطف في الباطن، فلنقو اليقين والثقة بذكره ومعرفته والاتصال به، والتعلق به وحده سبحانه[٢].

الركن الثاني: فهو قطع كل مؤمل دون الله تعالى :

قال تعالى:﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[٣].

المؤمن لايكمل إيمانه إلا بتوكله، فالآية دليل على ذلك، فليس بعد الله أحد فهو الناصرو المؤمل، والملاذ والملجأ. فالله تعالى شملت رحمته الوجود كله، ويعجز الإنسان عن إحصائها في ذات نفسه، وتكوينه، وماسخر له من حوله، ومن فوقه، وتحته، وماأنعم به عليه، مما يعلمه، ومما لايعلمه، فرحمته سبحانه شملت البر والفاجر، فكيف بمن هذه صفاته سبحانه لأنقطع المؤمل دونه، فقد قطع إبراهيم عليه السلام الأمل في غير الله، ووجد الأمل في الله تعالى وسط النار، ووجدها يوسف عليه السلام في غياهب الجب، وفي غياهب السجن، ووجدها يونس عليه السلام في بطن الحوت ووجدتها أم موسى في قلبها حين قذفته في اليم، وهي لاتملك له حولا، ولا طولا، ووجدها موسى في قصر عدوه المتربص به فرعون كما وجدها أهل

---

(١) انظر لأبي عبدالله القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (دار النشر بدون ت ط)، مج٢، (٢٥٤/٤).

(٢) انظر: لابن القيم، الفوائد، ص ٢٦٠.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٦٠.



الكهف في كهفهم، وأخيرا وجدها محمد رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار، ووجدها كل آمل في الله، لاجيء إلى الله وحده يائس ممن سواه سبحانه.

فالمرء المؤمن يأمل في الله، ويحسن الأمل، والرجاء في قبول طاعته، ولكن الإنسان أو المرء المؤمن العاقل البصير الذي يحب النجاة لنفسه لايسرف في الأمل، كما أن عليه أن لاييأس من روح الله؛ ذلك أن الياس من روح الله كبيرة من الكبائر، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[1].

إن قطع كل مؤمل دون الله تعالى يورث في النفس اليقين في الله تعالى وزيادة في الإيمان، وبهذا يحصل الفرج والتنفيس؛ لأن من أمل في الله هو المؤمن الذي يرجو دائما فرج الله تعالى، فسبحان من كان قيما على خلقه مدبرا لهم.

الركن الثالث: القيام بالأحكام الشرعية، ومراعاة السنن الكونية والاجتماعية:

قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴾[2].

> **" فإلى الله وحده وكلنا أمورنا مع قيامنا بكل ماأوجبه علينا من الحفاظ على شرعه ودينه، فهو الذي يكفينا تهديدكم وماليس في استطاعتنا من جهادكم "ومن يتوكل على الله فهو حسبه" إذ من شروط التوكل الصحيح القيام بالأحكام الشرعية ومراعاة السنن الكونية والاجتماعية"**[3].

(١) سورة يوسف، آية: ٨٧ .

(٢) سورة الأعراف، آية: ٨٩ .

(٣) انظر: للمراغي، تفسيره، مج٣، (٦/٩).

ولقد علم المرء المؤمن من خلال القرآن والسنة أن البشرية في أجيالها المتعاقبة لها أحكام، وشرائع سماوية تضمن حق الإنسان. والمسلم الحق يؤمن بالشريعة الإسلامية منهج حكم، ونظام حياة.

قال تعالى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[١].

فعلى المؤمن أن يأخذ من دنياه لآخرته، فهي الباقية الدائمة، يأخذ منها على حسب شرع الله، مراعيا بذلك السنن الكونية والاجتماعية الشرعية .

فالدنيا ومافيها من ثروات هي متاع، لكنه متاع لأيام قليلة معدودة، وماعند الله من الثواب خير للذين صدقوا بالله ووحدوه وتوكلوا على ربهم وفوضوا إليهم أمورهم[٢].

فالمؤمن يسارع في الخيرات، ويتسابق إليها، ويقدم لله تعالى عبادته وطاعته، وحسناته، ويخشى أن لايتقبلها الله منه.

قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١ ﴾[٣].

فالمؤمن جاد في طلب مرضاة ربه مخلص في عبادته لايجعل فيها لغير الله شركا لوثن ، ولالصنم ولايرائي بها أحدا من الخلق ويجعل أعماله لوجه الله خالصة وإياه يقصد بالطاعة والعبادة دون كل شيء سواه، ويبادر في الأعمال الصالحة، ويطلب الزلفة عند الله بطاعته، فهذا هو من سبقت له من الله السعادة[٤].

---

(١) سورة الشورى، آية: ٣٦ .
(٢) انظر: لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (١٧٧/٤) .
(٣) سورة المؤمنون، آية: ٥٧-٦١ .
(٤) انظر: لابن جرير الطبري، جامع البيان، (٣٧٠/٥).



كذلك المؤمن يأخذ الأحكام ويتحرك ويعمل ويسعى بها لمواجهة الناس، ويتفاعل مع الأحداث ويتأثر ويؤثر، ولكن بالإيمان الذي رسخ ونمى فيه ومارسه، والمؤمن الحق لاينظر، ولاينطق، ولايبطش، ولاينهض حتى يرى على طاعة قدم أم على معصية فإن كانت الأولى تقدم وإن كانت الثانية تأخر، ولن تكون الطاعة إلا لقلب المؤمن الطاهر(١).

الركن الرابع: العمل والعزيمة مع الأخذ بالأسباب :

قال تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾(٣).

فأمر الله نبيه - ﷺ - على المضي في الأمر والعزم عليه والمعنى " **أي عزمت لك ووفقتك وأرشدتك .... للتوكل على الله – .... فقد امتثل رسول الله لأمر ربه فقال "لاينبغي لنبي يلبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله" أي ليس ينبغي له إذا عزم أن ينصرف؛ لأنه نقض للتوكل الذي شرطه الله عز وجل مع العزيمة"**(٤).

فهذا رسول الأمة وسيد ولد آدم أمره الله تعالى بالتوكل عليه وشرع له الأخذ في الأسباب بجوانب الحياة كلها، إن الأمر بالتوكل من صميم العقيدة، وخالص التوحيد، وجوهر العبودية لله؛ لأنه يعني إظهار العجز لجلاله، وعدم الركون إلى الأسباب من كل وجه، وإن لم ينقطع عنها.

---

(١) انظر: لابن رجب الحنبلي، كتاب التوحيد، تحقيق صبري شاهين (الرياض: دار القاسم ط الأولى ١٤١٥هـ)، ص ٦٥ .

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٥٩ .

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٩ .

(٤) انظر: للقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مج٢، (٤/٢٥٢).

وكما أن التوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها العبد على مطلوبه، وحيث يكون قلبه معلقا بالله لا بالأسباب، وسنة الله في دنيا الناس وأخراهم تؤكد مشروعية الأخذ بالأسباب، وعدم الإخلال بها؛ لأن كثيرا من يعتقد أن التوكل على الله يقتضي ترك العمل والعزم عليه وعدم السعي والأخذ بالأسباب لطلب أمر ما، وإن فعل شيء من ذلك قادح في التوكل، وهذا فهم خاطيء، فالله تعالى أمر "عباده" بالسعي.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾[١].

وأمر حتى المجاهدين إذا صلوا صلاة الخوف أن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم فقال تعالى: ﴿ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾[٢].

فالسعي في السبب لاينافي التوكل على الله في جميع الأقطار والأقاليم والأرجاء لأخذ المكاسب والتجارات[٣].

فالعمل والعزيمة والسبب أمور دعى الخالق بالأخذ بها مع الاعتماد عليه سبحانه، وهي أمور مطلوبة في الحياة، فالمؤمن الواعي اليقظ هو من يفطن لهذه الأمور، ويضعها أمام عينيه، ويستغل صحته، وماله، وقوته في العمل الصالح، الذي يحقق به الخير، والحياة الطيبة في الدنيا، " **فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "إن خير الكسب كسب يدي عامل إذا نصح"** "[٤]، وقد كان ﷺ يؤثر أن يقوم بنصيبه من العمل بنفسه كأي واحد من أصحابه - رضوان الله عليهم أجمعين – مع مكانته العظيمة الكريمة.

---

(١) سورة الملك، آية: ١٥ .

(٢) سورة النساء، آية: ١٠٢ .

(٣) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٤/٦٢١).

(٤) مسند أحمد (٢/٣٥٧، ٣٥٨)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح، وقد أورده السيوطي في الجامع الصغير (٤٥٢٧) وحسنه الشيخ الألباني (٣٢٧٨).

الركن الخامس: سكون القلب إلى ماقسم وقدر الله :

قال تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾(٢).

إن مشيئة الله وقدره ماضية لامحال "**له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره لايسأل عما يفعل وهم يسألون**"(٣)؛ فهذا الركن بحسب اجتهادي والله أعلم أنه هو نهاية التوكل؛ لأن من سكن قلبه ورضي وسلم لله تعالى بتدبيره له كان حقا على الله تعالى أن يرضي عبده.

فسكون النفس إلى ماقسم وقدر الله سواء كان هذا القدر على مراد العبد أو على خلافه لازم مأمور به العبد؛ لأن السكون والرضى من الإيمان، فالمؤمن ساكن راض متلق أقدار ربه بالانشراح والتسليم وطيب النفس، كذلك فإن الرضى والسكون روح التوكل، وروح اليقين، والرضى والسكون يقوم مقام كثير من التعبدات التى تشق البدن؛ لأن السكون يفتح باب حسن الخلق مع الله تعالى ومع الناس، فكل من سكن قلبه إلى ماقسم وقدر الله فقد أقام الإيمان، وفرغ يديه ورجليه لكسب الخير.

وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(٤).

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦٠ .

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٠٧.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٢/٢٦٢).

(٤) سورة التوبة، آية: ٥١.

" **فالجميع تحت مشيئته وقدره فهو سيدنا وملجؤنا ونحن متوكلون عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل**"(١).

وقوله تعالى:﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾(٢).

إن الله تعالى أوجد كل شيء على كيفية خاصة وفي وقت، وترتيب خاص بحسب علمه، وإرادته، وهذا هو قدر الله وقضاؤه، والله تعالى عدل في قضائه وقدره، حكيم في تصريفه وتدبيره، وأن ماشاء الله كان، ومالم يشأ لم يكن فعلى المسلم أن يسكن ويرضى قلبه بما قسم الله، وقدر من خير أو شر حلو أو مر، فهو في سكينة، وطمأنينة، ورضى، وقد أمرنا تعالى بالسعي في الأرض بجد واجتهاد، والأخذ بجميع الأسباب، وحسن التوكل على الله، فإن سكون القلب والاستسلام، والرضى بقدر الله من خير أو شر من جملة ثمرات المعرفة " **فسبحان من ناط الأمور بالأسباب، ليحصل ذل العارف بالحاجة إلى التسبب**"(٣)، فالإيمان بالقضاء والقدر شرط من شروط الإيمان وركن من أركان التوكل على الله، فهذه الدعائم الخمس لها أهمية عظمى في حياة المؤمن كفرد وفي حياة المؤمنين كمجتمع، وبها يكتمل التوكل وتحصل مرادات العبد النفسية، والاجتماعية والدينية، والدنيوية، فكل مايجرى على المرء من أقدار الله تعالى لايعلق عليها سواء بفوات محبوب أو حصول مكروه .

أخيرا فإن هذه الأركان والركائز متداخلة متلازمة عند أدائها، فينبغي الالتزام بها، وأخذها بقوة وفقا للأدلة النقلية، والعقلية، والواقعية .

---

(١) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٥٦٤/٢).

(٢) سورة الكهف، آية: ٢٣ .

(٣) ابن الجوزي، صيد الخاطر، راجعه وحققه علي الطنطاوي، ناجي الطنطاوي، (سوريا: دار الفكر، ط١٤٠٧هـ)، ص١٦٢، باب ١١٦ الرضى بالقدر.

المبحث الثاني

التوكل على الله من أسباب النصر

قال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١)، الآية الكريمة وعد من الله للمؤمنين بالنصر، وهو وعد لايتخلف.

كان هذا الوعد مع ضعفهم وقوة أعدائهم، وفقرهم، وثروة أعدائهم، وقلتهم وكثرة أعدائهم بحيث يستحيل العادة نصرهم، فالتوكل على الله من أسباب النصر، وقد ربط تعالى التوكل بالنصر في آيات عدة من كتابه العزيز.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾(٢).

فالآية نزلت في وقعة أحد، وقد أرصد كفار قريش أموالهم وجمعو الجموع والأحابيش وأقبلوا قريبا من أحد تلقاء المدينة فعلم بهم رسول الله وخرج في نحو ألف ورجع عبدالله بن أبي بثلث الجيش واستمر رسول الله ﷺ سائرا حتى نزل الشعب من أحد عدوة الوادي(٣)، وقد كان لهذه الغزوة عوامل وأسبابا ظاهرة بعد أن ظفر المسلمون بالنصر على أعدائهم في غزوة بدر الكبرى أرادت قريش الثأر لصناديدها الذين ألقوا في القليب قليب بدر، وسبب آخر هو أن الذين تخلفوا عن بدر من المهاجرين والأنصار كانوا يسألون الله أن تتيح لهم فرصة لقتال المشركين، والفتك بهم ليعوضوا مافاتهم من الأجر، والغنيمة يوم بدر، وقد بدأت المعركة وانتهت بدروس قاسية للمسلمين في نهاية المعركة بعد أن كان في أولها نصر مؤزر.

" ولكن ما أصيب به المسلمون فيه من الدروس والفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة: منها تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية

---

(١) سورة الروم، آية: ٤٧ .
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٢١-١٢٢.
(٣) انظر: لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٥٩٨/١).

وشؤم ارتكاب النهي؛ لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم الرسول أن لايبرحوا منه، ومنها أن عادة الرسل أن تبتلى وتكون لها العاقبة....، والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائما دخل في المؤمنين من ليس منهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو أنكسروا دائما لم يحصل المقصود من البعثة، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب، وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفيا عن المسلمين، فلما جرت هذه القصة (غزوة أحد)، وأظهر أهل النفاق مأظهروه من الفعل والقول عاد التلويح تصريحا، وعرف المسلمون أن لهم عدوا في دورهم فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم، ومنها أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضما للنفس وكسرا لشماختها، فلما ابتلي المؤمنون صبروا وجزع المنافقون، ومنها أن الله هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لاتبلغها أعمالهم، فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها، ومنها أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقها إليهم، ومنها أنه أراد إهلاك الأعداء فقيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك من كفرهم وبغيهم وطغيانهم في أذى أوليائه، فمحص بذلك ذنوب المؤمنين، ومحق بذلك الكافرين"[(١)].

فمنها نرى أن السبب الأول والرئيس في الهزيمة هو الرغبة في الدنيا وطلبها، بمعصية الله ورسوله فهذا سبب كل بلاء وهزيمة ومحنة تصيب المسلمين في كل زمان ومكان.

فالآية تتحدث عن اضطراب المؤمنين ومن معهم فكاد الفشل أن يكون حليفا لهم، ولكن الله تعالى ثبتهم، ومكنهم بالنصر على أنفسهم .

(" وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ" أي ناصرهما وحافظهما ومتولي أمرهم بالتوفيق والعصمة، فإن قلت: " الهم" العزم على فعل الشيء، والآية تدل على أن الطائفتين قد عزمتا على الفشل وترك القتال وذلك معصية

---

(١) انظر: لابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (٤٤٠/٧).

فكيف مدحهما الله تعالى بقوله: "وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا" – بنو سلمة ، وبنو حارثة – قلت " الهم " قد يراد به العزم، وقد يراد به حديث النفس، وإذا كان كذلك فحمل " الهم " على حديث النفس هنا أولى والله تعالى لايؤاخذ بحديث النفس، ويعضده قول ابن عباس (أنهم أضمروا أن يرجعوا فلما عزم الله لهم على الرشد ثبتوا مع رسول الله ﷺ فمدحهم الله تعالى بقوله: {وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا}.... وقوله تعالى: { وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ} التوكل: تفعل من وكل أمره إلى غيره إذا اعتمد عليه في كفايته والقيام به، وقيل التوكل: هو العجز والاعتماد على الغير، وقيل: هو تفويض الأمر إلى الله تعالى ثقة بحسن تدبيره فأمر الله عباده المؤمنين أن لايتوكلوا إلا عليه، وأن لايفوضوا أمرهم إلا إلى الله"[١].

فالله سبحانه نصر المؤمنين، وصدق وعده للمؤمنين بالنصر إذ ظهر ذلك في أول النهار.

قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾[٢].

فالآية دليل على أن وعد الله للمؤمنين بالنصر مشروط بقيام المؤمنين بأوامر الله في كل شؤونهم فمتى حققوا اللجوء الخالص لله تعالى – ومن مقتضياته التوكل عليه سبحانه وتعالى وحده دون سواه - تحقق لهم ماوعدهم الله تعالى من النصر[٣]، **" فالمعنى لقد حقق الله وعده لكم بالنصر، حتى إذا جبنتم، واختلفتم في تنفيذ الأمر، وعصيتم أمر رسولكم، بسبب خلل نيات بعضكم بإن لم تتمحض للأخرة منعكم الله نصره"[٤].**

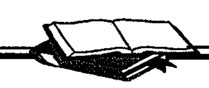
---

(١) انظر: الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل وبهامشه تفسير البغوي، ٤مج (بيروت: دار الفكر تط ١٣٩٩هـ)، (٤١٢/١-٤١٣).

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٥٢.

(٣) انظر: لسعيد حوى، الأساس في التفسير، (٩٠٠/٢).

(٤) المصدر نفسه، (٩٠١/٢) .



إن إرادة الدنيا وحدها غير معصية، ولكن ماترتب عليها من ترك لطاعة الله ورسوله ﷺ ، وماعقبه من آلام وجراحات، وقتل، وهزائم وفوات خير كبير، ومع ذلك فالله تعالى أراد حكمة عظيمة خفية في تلك الهزيمة التى ظاهرها النقمة وباطنها النعمة، والعبرة أن قوانين النصر المادية من تفوق بالعدة والعدد، وفن القتال، لاتعمل عملها إلا إذا بذل الجهد والدخول إلى المعركة بتوكل على الله صحيح ليظهر الله سنته من النصر، فمن هذه الوقعة علم المؤمنون أن النصر والهزيمة يتمان بحسب سنن إلهية فما أصبحوا بعد هذه الحادثة المؤلمة يغفلون تلك السنن أو يهملونها وإن فعلوا تراجعوا سريعا عن ذلك .

قال تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(١) .

والمعنى : " **إن يعنكم الله بنصره ويمنعكم من عدوكم كما فعل يوم بدر﴿ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ يعني من الناس؛ لأن الله تعالى هو المتولى نصركم " وَإِن يَخْذُلْكُمْ " كما فعل يوم أحد فلم ينصركم، ووكلكم إلى أنفسكم لمخالفتكم أمره وأمر رسوله ﷺ ﴿ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ ، أي من بعد خذلانه "وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ لاعلى غيره لأن الأمر كله لله ولاراد لقضائه، ولادافع لحكمه فيجب أن يتوكل العبد في كل الأمور على الله تعالى، لاعلى غيره وقيل التوكل أن لاتعصى الله من أجل رزقك، ولاتطلب لنفسك ناصرا، ولا لعملك شاهدا سواه**"(٢).

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٩-١٦٠.

(٢) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، (٤٣٩/١) .



فالآيتان من سورة آل عمران تضمنت حقيقة كبرى يجب العمل بها دائما والإيمان بها أولا، أن النصر بيد الله، والخذلان كذلك فلايطلب نصر إلا منه تعالى، ولايرهب خذلان إلا منه عز وجل، وطلب نصره هو بإنفاذ أمره، وطاعته، وتقواه، والاستعانة به، والتوكل عليه ، لأن من شأن المؤمنين التوكل والتفويض لله سبحانه؛ لعلمهم أنه لاناصر سواه؛ ولأن إيمانهم يقتضي ذلك.

قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾[١].

> **"﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ معبرين عن إيمانهم، "حَسْبُنَا ٱللَّهُ"؛ أي: هو كافينا مايهمنا من أمر الذين جمعوا لنا، "حَسْبُنَا" بمعنى محسبنا فهو من أحسبه إذا كفاه كما قالوا ﴿ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ الذي توكل إليه الأمور فإنه لايعجزه أن ينصرنا عليهم، على قلتنا، وكثرتهم، أو يلقي الرعب في قلوبهم، ويكفينا شر بغيهم، وكيدهم، وقد كان الأمر كذلك، فإن الله تعالى ألقى الرعب في قلب أبي سفيان وجيشه على كثرتهم فولوا مدبرين وأعز الله بذلك رسوله والمؤمنين"**[٢].

نعم! اد لهمت الأمور على المؤمنين فازدادوا توكلا على الله، وإيمانا به والله عند حسن ظن عباده به، فكفاهم الله شر المشركين، وسجل لهم النعمة من السلامة، وفرار الكافرين، وعودة الهيبة للمؤمنين، ورجوع الروح المعنوية العالية للمسلمين[٣].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٧٣-١٧٤.

(٢) انظر: لمحمد رشيد رضا، تفسير المنار، (٤/٢٤٣).

(٣) انظر: لسعيد حوى، الأساس في التفسير، (٢/٩٣٩).

فالله تعالى يكفي المؤمنين شر المشركين والأعداء، ويكفيهم مايهمهم بعد التوكل عليه فهو حسبهم ونعم الوكيل.

قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ ﴾[1].

فالآية الكريمة " إخبار من الله تعالى بشأن المنافقين الذين يظهرون الموافقة والطاعة، والله تعالى عالم بما يضمرونه ويسرونه فيما بينهم ومايتفقون عليه ليلا، من مخالفة الرسول ﷺ فاصفح عنهم واحلم عليهم ولاتؤاخذهم ولاتكشف أمورهم ولاتخف منهم فكفى بالله وليا وناصرا ومعينا لمن توكل وأناب إليه"[2].

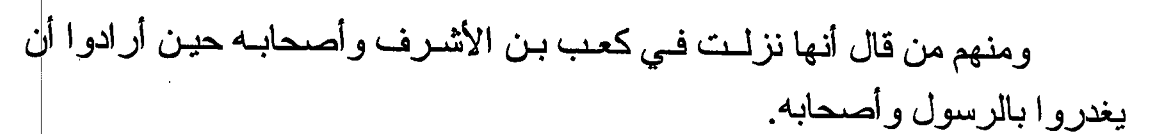
فجاء الأمر بالتوكل هنا مقرونا بالصفح والحلم والاعراض عن الأعداء، وعدم الاهتمام بهم، لأن في ذلك نصرا متينا على الأعداء، خاصة أن الله سبحانه قد تكفل بالمؤمنين، فأرشد الله تعالى رسوله الكريم وصحبه أن لايبالوا بشرذمة المنافقين؛ لأنه حسبهم وكافيهم لما يبيتونه من الشر .

وقال تعالى ممتنا على رسوله الكريم - ﷺ - والمؤمنين تبعا ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[3].

فالآية وإن اختلفت الأقوال في سبب نزولها فمنهم من قال أن قوما من اليهود وضعوا طعاما لرسول اله ﷺ وأصحابه فأوحى الله بشأنهم لرسوله ﷺ .

---

(١) سورة النساء، آية: ٨١ .
(٢) انظر: لابن كثير بتصرف، تفسير القرآن العظيم، (١/٨٠١).
(٣) سورة المائدة، آية: ١١ .



ومنهم من قال أنها نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه حين أرادوا أن يغدروا بالرسول وأصحابه.

ومنهم من قال أنها نزلت في شأن بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس الرسول الرحى، لما جاءهم يستعينهم في دية العامريين، ووكلوا عمرو بن جحاش بن كعب بذلك، فأطلع الله النبي ﷺ على ماتآمروا عليه[1].

فهي مشعره بأن التوكل من أسباب الكف والنصر على الأعداء، ودفعهم عن الرسول والمؤمنين وبين ماأرادوا من كيد.

" فعن جابر أن النبي ﷺ نزل منزلاً، وتفرق الناس في العضاه يستظلون تحتها، وعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله ﷺ فأخذه، فسله، ثم أقبل على النبي ﷺ، فقال: من يمنعك مني؟ قال: " الله " قال الأعرابي مرتين أو ثلاثا من يمنعك مني؟، والنبي ﷺ يقول: " الله " قال: فشام الأعرابي السيف، فدعا النبي أصحابه، فأخبرهم خبر الأعرابي، وهو جالس إلى جنبه ولم يعاقبه)[2].

فالرسول الكريم توكل على الله، فكفاه الله ماأهمه، وحفظه من شر الأعداء، وعصمه؛ لأنه ﷺ القائل: **(اللهم أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك، لاملجأ ولامنجى منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت)**[3].

ففي الآية قصر حقيقي، وهو أن التوكل لايكون إلا على الله إذ لاكافي إلا هو سبحانه وتعالى.

---

(١) انظر: المصدر السابق، (٢/٥١).

(٢) رواه البخاري في الجهاد، باب: من علق سيفه بالشجر، ح: ٢٩١٠، والفتح (٦/١٣٣).

(٣) البخاري في الفتح (١/٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠).

وقال سبحانه في حق الرجلين اللذين أنعم الله عليهما من بني إسرائيل﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(١).

فقد أنعم الله تعالى عليهم بتنوير بصائرهم بمعرفة الله عز وجل وماله من حقوق واجبة، قاموا بها وحثوا قومهم عليها منها الحث على التوكل على الله واتباع أمره، وموافقة رسوله، وأرشدهم إلى الفعل الذي سيكون به النصر حليفهم والظفر والتأييد، ودخول البلاد التى كتبها الله لهم؛ وهو الإيمان الذي يقتضي التوكل على الله وقطع العلائق القلبية مع غير الله وترك التملق بالباطل للخلائق(٢)، فما كان هذا الحث والإرشاد إلا من الإيمان بالله والوثوق بوعد الله وبنصره وتأييده(٣).

قال تعالى في معرض الحديث عن غزوة بدر ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٤).

فالمؤمن المتوكل على الله الذي يعلم أنه مامن حول ولاقوة ولانصر إلا من الله وبالله، والمنافقون لايدركون القوة الكامنة في نفوس المؤمنين.

فكل من أسلم أمره إلى بارئه وخالقه، ووثق بفضله، وإحسانه فالله هو الحافظ والناصر عزيز لايغلبه شيء حكيم يوصل إلى أحبائه وأوليائه الرحمة والثواب وإلى أعدائه العذاب(٥).

وقال تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ

---

(١) سورة المائدة، آية: ٢٣ .
(٢) انظر: لسعيد حوى، الأساس في التفسير، (١٣٥٥/٣).
(٣) انظر:لابن كثير،تفسير القرآن العظيم،(٦٢/٢)؛ وللمراغي، في تفسيره، (٩٢/٢).
(٤) سورة الأنفال، آية: ٤٩ .
(٥) انظر: للرازي، مفاتيح الغيب، مج٨، (١٨٣/١٥).

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾[١].

فالله تعالى يرشد أولياءه لأساليب الحرب، ومنها إن كان في السلم والمهادنة خير فيجب الإقبال عليه وهذا ماكان من رسول الله ﷺ يوم الحديبية فبأمر من الله تعالى صالحهم وتوكل في ذلك على الله؛ لأن الله كافي وناصر أحبائه حتى إن كان المشركون يريدون بهذا الصلح الخديعة ليتقوا ويستعدوا فالله تعالى حسب نبيه وكالئه وناصره عليهم[٢].

فالله تعالى وعد المؤمنين ورسولهم من قبل بالنصر والظفر مطلقا على جميع التقديرات وهذا بعد أن يعملوا مافي طاقتهم من طاعة ربهم، وهو سبحانه قادر على الوفاء، فلايضام من التجأ إليه، ويعتمد على جنابه، فهو عزيز منيع الجناب، عظيم السلطان في أفعاله، وأحكامه، فينصر من يستحق النصر، ويخذل من هو أهل لذلك .

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٦١-٦٢.

(٢) انظر: لابن كثير، المصدر السابق، (٥٠٦/٢).



المبحث الثالث
القدرة والمشيئة والأسباب

شاء الله تعالى أن يخلق الخلائق، وقضى سبحانه أن تكون بأقدار معلومة فهو العليم بما هو كائن إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[١].

والمؤمن يعرف لربه الكمال فتراه مؤمنا بأن كل مايحدث له قدر بحكمة، والله سبحانه يعلم ولانعلم ويقدر ولانقدر ولابد أن نؤمن بأن ماأصابنا لم يكن ليخطئنا وماأخطأنا لم يكن ليصيبنا؛ لذلك فإن جميع المحصلات بمشيئته سبحانه وقدرته.

قال تعالى:﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[٢].

لأنه سبحانه هو الذي يعين ويمنع، ويخذل، ويغلب[٣]، فالنصر والخذلان بقدر الله، ومشيئته، وفي كل له حكمة يرتضيها.

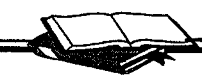
فالله وحده هو صاحب الخلق والأمر، والملك والتدبير، فهو رب العالمين خالق كل شيء، ومالك كل شيء، ومدبر كل شيء؛ فهو رب جميع العوالم من مختلف الأجناس والألوان؛ فهو واحد لاشريك له لايظهر في الوجود شيء إلا

---

(١) سورة الحج، آية: ٧٠.

(٢) سروة آل عمران، آية: ١٦٠

(٣) انظر: لأبي محمد الحسين البغوي، معالم التنزيل في التفسير والتأويل، ٥مج (بيروت: دار الفكر تط ١٤٠٥هـ) (٥٧٣/١).



بإرادته، وقدرته وخلقه، وعلمه، هو الأول، والآخر فعال لما يريد؛ هو الذي يرزق جميع خلقه فتقدير أرزاق خلقه، وآجالهم بيده وحده.

قال تعالى: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[١].

فكل ماهو كائن، وماسيكون مسطر في ذلك الكتاب المبين، وبهذا فالمؤمن يندفع للعمل في سبيل مرضاة ربه، مجتهدا في ذلك، وهذا الإيمان بقدر الله ومشيئته دافعة إلى العمل المثمر في نشر الدين، والعمل بأحكامه وتشريعاته، والأخذ بسلوكه وأخلاقه.

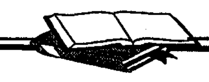
فالآية دلالة إلى الإشارة بإحاطة علمه سبحانه بكل ماهو موجود صغير أو كبير، ولايتأمل ذلك إلا عالم مؤمن واسع العلم، ومن كان ممتلئا قلبه بعظمة الله تعالى، ويدرك أن جميع أعماله محصية عليه، سواء كانت صغيرة حقيرة أو كبيرة جليلة[٢].

قال تعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[٣].

فالله تعالى جعل له سننا لاتتبدل والإنسان علمه سبحانه بعض السنن، وأدركه بعضها وجعله يتعامل معها في حدود طاقاته ومالم يكشفه له يعلم الإنسان أنها في طلاقة مشيئة الله وحدوث كل شيء بقدر الله وماذاك إلا اختيار من الله تعالى للمتوكلين ليعلموا أن من الإيمان ومن مقوماته الأساسية وقواعده الرئيسة " علم الغيب" الذي اختص به الله تعالى.

---

(١) سورة يونس، آية: ٦١ .
(٢) انظر: للبيضاوي، أنور التنزيل وأسرار التأويل، ص ٢٨٢.
(٣) سورة الأنعام، آية: ٥٩.



والمعنى: أن الله عنده **"علم ماغاب عنكم، أيها الناس، مما لاتعلمونه، ولن تعلموه مما استأثر بعلمه نفسه، ويعلم أيضا مع ذلك جميع مايعلمه جميعكم، لايخفى عليه شيء؛ لأنه لاشيء إلا مايخفى عن الناس أو ما لايخفى عليهم، فأخبر تعالى ذكره أن عنده علم كل شيء كان ويكون، وماهو كائن مما لم يكن بعد"**[١].

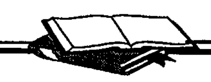
فينبغي للمؤمن أن يعرف أن القوة الفاعلة للأمور هي قوة الله، بعد اتخاذ جميع السبل والقيام ببذل الجهد، والتكاليف، ونفض الأيدي من العواقب، وتعليقها بقدر الله، ونقبل ونرضى، ونسلم بما يأتي به قدر ومشيئة الله تعالى .

قال تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[٢]، فما من شيء إلا ومثبت في علم الله تعالى فكل من علم أن الكل مقدر هان عليه الأمر، فيجب الرضى والتسليم لله تعالى فيه فإنه على وفق رضى الله تعالى، وبناء على مشيئته، وحكمته وواقع على أساس تدبيره لملكه وخلقه[٣].

وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٤]، فالله تعالى خلق العبد، وفعله قد قدره الله تعالى وكتبه عليه، وسبق به علمه قبل التقدير، والقضاء، والعبد فاعل لفعله أو تارك له يحاسب به، ويجازى عليه، فالله تعالى لما قدر ماللعبد، وماعليه من خير أو شر قد قدره مربوطا بأسبابه، فللخير أسبابه، وللشر أسبابه، كما قدر أن العبد يأتي تلك الأسباب، ويعمل بها بمحض إرادته التي قدرها له، وحرية الاختيار الذي قضى له به، فلايصل العبد إلى ماكتب له من خير أو شر إلا بواسطة تلك الأسباب التي يفعلها غير مجبور أو مكروه عليها وعلى فعلها، وفي الحديث **"عن عمر ابن الخطاب أن رسول الله - ﷺ - قال: " إن الله - عز وجل - إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل**

---

(١) انظر: لابن جرير، جامع البيان، (٣/٢٧١).
(٢) سورة الحديد، آية: ٢٢.
(٣) انظر: للبيضاوي، أنور التنزيل وأسرار التأويل، ص ٧١٨ .
(٤) سورة الصافات، آية: ٩٦ .



الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار"[١]، فالحديث حجة ودلالة على أن الله تعالى إذا كتب على العبد أزلي السعادة أو الشقاء كتب له كذلك أنه يعمل بالأسباب التى تسعد أو تشقي لتتم السعادة أو الشقاء على أساس نظام الأسباب، فالمرء واصل بسعيه إلى السعادة أو الشقاء إلى الخير أو الشر .

وقال تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[٢]، الآية مقتضية معاني عظيمة منها " **يقول تعالى مؤدباً نبيه محمداً** ﷺ " قُل " **يامحمد لهؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عنك،** " لَّن يُصِيبَنَآ " **أيها المرتابون في دينهم** " إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا " **في اللوح المحفوظ، وقضاه علينا** " **هو مولانا**" **يقول: هو ناصرنا على أعدائه** " وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ " **يقول: وعلى الله فليتوكل المؤمنون، فإنهم إن يتوكلوا عليه، ولم يرجوا النصر من عند غيره، ولم يخافوا شيئاً غيره، يكفهم أمورهم وينصرهم على من بغاهم وكادهم**"[٣].

فكل شيء بقضاء الله وقدره، والله تعالى يثبت لنا المصلحة الدنيوية والأخروية، فلاوجه للفزع، ورضانا بقضائه وقدره في المصائب لن يسؤنا بالحقيقة كيف؟ ولم يكتبها علينا ليضرنا بها، إذ هو "مولانا" أي يتولى أمورنا؛ فإنما كتبها علينا ليوفقنا للصبر عليها والرضا بها، فيعطينا من الأجر ماهو خير منها " وعلى الله فليتوكل المؤمنون" فلاناصر ولامتولى للأمر غيره سبحانه العلي الكبير[٤].

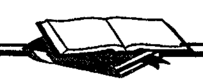
---

(١) الحديث طويل رواه أبوداود في سننه (٤٧٠٣) واللفظ له، سنن الترمذي (٣٠٧٥/٥) وقال الترمذي: حديث حسن ؛ رواه البغوي في شرح السنة (١٣٩/١) وقال محققه: حديث صحيح.

(٢) سورة التوبة، آية: ٥١ .

(٣) انظر: للطبري، جامع البيان، (١١٩/٤).

(٤) انظر: للقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مج٤، (١٥٨/٨)؛ ولمحمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، مج٥، (٢٣٣/٨).



إن تفويض الأمور لله تعالى في مستقبل ما، والتصميم على فعله لا الجزم بشيء هي من اللوازم التي على المؤمن أن يتمسك بها عند توكله؛ لأن الأمور جميعها موكولة لله سبحانه، ولمشيئته، وقدرته. " **والاعتقاد بقدر الله، والتوكل الكامل على الله، لاينفيان اتخاذ العدة بما في الطوق فذلك أمر الله الصريح في قوله:** ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[1]، **ومايتكل على الله حق الاتكال من لاينفذ أمر الله، ومن لايأخذ بالأسباب، ومن لايدرك سنة الله الجارية التي لاتحابي أحدا، ولاتراعي خاطر إنسان**"[2]، فاليقين والرضا بما قسم وقدر لابد من إدراكه، ومالم يقسم ولم يقدر لن نصل إليه، إذا فالتوكل على الله لاينافي السعي بالأسباب التي شاءت إرادة المولى سبحانه تبارك وتعالى أن يحقق بها المسببات، وسبحانه أمر بالأخذ بالأسباب، كما أمر بالتوكل، فالأخذ بالأسباب بالجوارح طاعة للمولى سبحانه، والتوكل بالقلب على الله تعالى إيمان به، فكل مانقدر عليه من القوة العقلية، والبدنية وأنواع القوى كلها هي أسباب لنيل المقصود والمأمول بعد التوكل عليه سبحانه.

إن الأخذ بالأسباب والوسائل، والقوى التي رتب الله عليها المسببات والنتائج من المقررات الشرعية، وتحت مشيئته وقدره سبحانه، ولعل هذا مايفهم من قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[3]؛ والآية فيها معنى " **أن الجزاء ليس تابعا لأماني النّاس ومشتهاهم، بل هو أمر مقدر من الله تعالى تقديرا بحسب الأعمال**"[4]، فالعمل بما أمر الله لازم لصحة التوكل عليه وترقب الخير منه، والإيمان لايكون بمجرد تخيل الأماني، وتمني الحصول عليها بغير الأسباب

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٦٠ .

(٢) انظر: لسيد قطب، في ظلال القرآن، (٣/ ١٦٦٤-١٦٦٥).

(٣) سورة النساء، آية: ١٢٣.

(٤) انظر: لابن عاشور، التحرير والتنوير، مج (٣-٤-٥)، (٥/٢٠٨).



الموصلة إليها، ولكن الإيمان الحقيقي هو ماستقر في نفس المؤمن أنه حق فاطمأن إليه، وحرص عليه، ثم كان عمله موافقا له، مصدقا لوجوده أو دعوة اعتقاده.

والتوكل على ذلك لايكون إلا بالثقة، والاعتماد على الله، ثم العمل بما أمر به، والأخذ بالوسائل ثم ترك مالله لله من أقدار وقضاء فلا يعزب عن الله ولايغيب عن علمه شيء، يفعل مايشاء، ويحكم مايريد له الملك والحمد فليس في أفعاله سبحانه ولاتقديراته ومشيئته ظلم أو شر قط، قضى بذلك العقل والنقل، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾[1]، ويقرر هذه الحقيقة رسول الأمة محمد - ﷺ - في قوله: "**الخير كله في يديك والشر ليس إليك**"[2].

فالله تعالى أثبت لنفسه المشيئة، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[4].

والكل محكوم بالمشيئة الإلهية، فسبحان من له الإرادة والمشيئة .

---

(١) سورة النساء، آية: ٤٠ .

(٢) رواه مسلم، (١٨٥/٢).

(٣) سورة الأنعام، آية: ١١٢.

(٤) سورة التكوير، آية: ٢٩ .



المبحث الرابع

الأعمال التي يعملها العباد في تحقيق التوكل

إن المرء المؤمن في حاجة مستمرة إلى هداية خالقه سبحانه عز وجل ورعايته. والتوكل على الله لايكون إلا بأمرين مجتمعين لاينفصل أحدهما عن الآخر هذا ماأراه والله أعلم بالصواب .

١- الإيمان بالحق سبحانه، والاعتماد عليه والثقة فيه .

٢- الأخذ بالأسباب والوسائل التي تربط بها النتائج المرجوة .

فالأول أمر لازم؛ لأنه الأساس في التصديق والثقة والطمأنينة بل إنه هو هذه الأمور، والإيمان كما تبين شامل للاعتقاد وللنطق والعمل.

والإيمان أساس القبول عند الله، والثاني أمر به المولى عز وجل لأن فيه طاعته، والإيمان حقيقته الحركة والعمل، وليس بمجرد نوايا طيبة والمتوكلون نواياهم الطيبة لاتخلو من عمل مثمر، ولاتخرج عن أعمال وأمور أربعة هي:

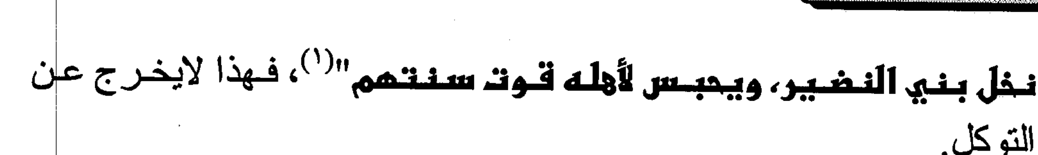
الأول: فعل أمر يجلب النفع كالطعام والشراب، وجنون أن ننتظر أن نشبع دون أن نأكل أو نروى دون أن نشرب، والتوكل في هذا المقام توكل بالعلم والحال. أما العلم فهو أن نعلم أن الله تعالى خلق الطعام، واليد والأسباب، وقوة الحركة، وأنه الذي يطعم ويسقي.

وأما الحال – فهو أن يكون اعتماد القلب على فضل الله تعالى لاعلى اليد والطعام.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾[1].

الثاني: التوكل على الله في حفظ الموجود كادخار المال، وحبسه للأهل، والولد وفي الصحيحين من حديث عمر ابن الخطاب-رضي الله عنه- أن النبي ﷺ " **كان يبيع**

(١) سورة الشعراء، آية: ٧٨، ٧٩ .



نخل بني النضير، ويحبس لأهله قوت سنتهم"(١)، فهذا لايخرج عن التوكل.

قال تعالى: ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾(٢).

فالله تعالى يسبب أسباب الرزق من حيث لانشعر، ولانعلم فمن اتق الله في أموره ويفوضه إليه فهو كافيه، فالله تعالى بالغ أمره بكل حال توكل عليه العبد أو لم يتوكل عليه (٣).

فالله تعالى قد ألهم العبد الفكر في أن يدخر لعياله وأهله شيئا من ماله وإلا هلك العيال والأهل، وقد كان المصطفى ﷺ يؤثر أن يقوم بنصيبه من العمل بنفسه – كأي واحد مع مكانته العظيمة الكريمة.

الثالث: دفع الأسباب المباشرة للضرر :

فلايجوز النوم في الأرض المسبعة أو تحت جدار خرب، ولاينقض التوكل لبس الدرع، وشد البعير.

قال تعالى: ﴿ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾(٤).

وفي الحديث: " **عن أنس بن مالك** رضي الله عنه **قال: قال رجل: يارسول الله أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال "أعقلها وتوكل**" "(٥).

فالتوكل في ذلك كله على المسبب لاعلى السبب ويكون المرء مطمئنا وراضيا بكل مايقضي الله عليه من خير أو شر، فالمرء المؤمن عليه أن يقيم

---

(١) صحيح البخاري، في النفقات، (٦٢٧/٩)، باب حبس الرجل قوت سنة على أهله، وكيف نفقات العيال.
(٢) سورة الطلاق، آية: ٣ .
(٣) انظر: لابن جرير، جامع البيان، (٣١٦/٧) .
(٤) سورة النساء، آية: ١٠٢.
(٥) سبق تخريجه، ص ٣٢ .



حياته بما أوجبه الله تعالى عليه فلايعطلها، بل إن فعله لها عبودية كذلك لاينبغي عليه الاعتماد عليها؛ بل يعتمد على مسببها ومقدرها.

الرابع: السعي في إزالة الضرر :

فمنها المريض قد نزل به المرض فعليه دفعه بالمداواة لا بالشكوى فهي مخرجة عن التوكل، وقد فعله النبي ﷺ، وفي الحديث "**عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: "ماأنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء"** "[١]، "**وعن عائشة: أنه ﷺ كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده**"[٢]، فهذه الأسباب التي يدفع بها الضرر النازل أمور شرعية لاسحرية وعلى كل فالرقية والتداوي من الأسباب المشروعة التي أمر الله تعالى بإتخاذها من غير اعتماد عليها كليا في أنها هي الشافية، وعلى ذلك فإن تعاطي الأسباب والعمل بها قدر المستطاع هي أمور مباحة لاتنافي العقيدة وخلق التوكل على الله؛ لأن جميع الأسباب التي يتعاطاها المرء المؤمن لاتخرج عن ثلاثة أقسام[٣]:

الأول: " إلى مقطوع به، كالماء المزيل لضرر العطش، والخبز المزيل لضرر الجوع، فهذا القسم ليس تركه من التوكل في شيء.

الثاني: أن يكون مظنونا، كالفصد، والحجامة، وشرب المسهل، ونحو ذلك، فهذا لايناقض التوكل، فإن رسول الله ﷺ قد تداوى وأمر بالتداوي .

الثالث: أن يكون السبب موهوما، كالكي فيخرج عن كمال التوكل؛ لأن النبي ﷺ وصف المتوكلين بأنهم لايكتوون"[٤]، ولكن قد تداوي به كثير من المسلمين،

---

(١) البخاري في الطب، باب: ماأنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، ح(٥٦٧٨)؛ وفي الفتح (١٤١/١٠).

(٢) البخاري في الطب، باب : النفث في الرقية، ح (٥٧٤٨)، وفي الفتح(٢١٩/١٠).

(٣) انظر: للمقدسي، مختصر منهاج القاصدين، ص٣٣٤؛ ولأحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، (بيروت: دار الكتب العلمية تط الأولى ١٤٠٥هـ)، (٥١٠/٣-٥١١).

(٤) انظر: للمقدسي، المصدر نفسه، ٣٣٤.

ولايعني هذا أنهم عصوا رسولهم ﷺ ولكن المراد من كلام رسول الله ﷺ أن يجعل آخر شيء في العلاج؛ إذ أن بعض الأحاديث قد أجازته ومنعته بعضها الآخر، فمن الأول :

"عن حديث جابر بن عبدالله: "أن النبي ﷺ بعث أبي بن كعب طبيبا، فقطع له عرقا وكواه عليه" "[١].

والثاني: **" في الحديث عن جابر أن النبي ﷺ قال: "وماأحب أن أكتوي"**[٢].

فهذه الروايات لاتعارض بينها فالفعل يدل على جوازه وجعله كما أشرنا آخر العلاج، ونهيه عنه يدل على الكراهة له.

إذا الأعمال الصالحة جميعها من تمام التوحيد وكماله؛ لأنها تعني القيام بها مع عدم اعتماد القلب عليها، ووثوقه وركونه إليها، وأما تعطيلها فهو سوء فهم لأحكام الدين.

ولو طالعنا حياة رسولنا الكريم ﷺ سنجدها قائمة على أعمال وأسباب، وإن ظهر فيها من الكرامة ماظهر، وهو إمام المتوكلين وسيدهم، فلم يخرج للجهاد بدون عدة، فقد تترس يوم أحد، ولم يواجه عدوه قط بدون خطة أو ترتيب أو مشاورة آخذا بمشورة سلمان الفارسي بحفر الخندق فحياته ﷺ ماثلة أمامنا نرى فيها التوكل، والأخذ بالأسباب شاكرا للمقدرات مقاوما الصعاب والشداد بالصبر والاسترجاع؛ ذلك أن التوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها العبد مطلوبه حيث يكون.

فالعبد المؤمن قلبه معلق بالله لا بالأسباب، وجوارحه آخذة في الأسباب قائمة بها، وسنة الله في دنيا الناس وآخراهم تؤكد مشروعية الأسباب والأخذ بها وعدم الإخلال بها.

---

(١) مسلم في السلام، باب: لكل داء دواء، ح(٢٢٠٧)، (١٧٣٠/٤).

(٢) البخاري في الطب، باب الحجامة، ح(٥٧٢١)، وفي الفتح(١٦٢/١٠).



المبحث الخامس

مجال التوكل على الله

إن التوكل حقيقة من يعلم أن الله قد ضمن لعبده الرزق، والعمل، ... وكفاه، ووثق العبد بربه فيما ضمنه وكفاه، وللتوكل مجالات شاملة من أمور الدنيا ومطالب الدين.

ومن هذه المجالات نذكرها قصرا لاحصرا:

التوكل على الله في حصول الرزق: إن الله تعالى قد كفل لعباده رزقهم، والرزق مقسوم لكل من البر والفاجر، قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا ﴾[1]، فالآية شاملة لكل كائن حي فمن توكل على الله لطلب الرزق فقد جعل التوكل سببا، ومن توكل عليه لثقته بضمانه فقد توكل عليه ثقة به، وتصديقا بوعده؛ لذلك لاينبغي أن يهمل السعي بل على المرء المؤمن أن يكد وهو مطمئن أن الله تعالى سيفرغ له من خزائنه مايشاء لمن يريد.

قال تعالى:﴿ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ ﴾[2].

والمعنى: يخرجه الله تعالى من شبهات الدنيا والكرب، ويرزق الله المرء من حيث لايؤمل ولايرجو، وعن جابر قال نزلت هذه الآية ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ﴾ الآية في رجل من أشجع كان فقيرا خفيف ذات اليد كثير العيال فأتى رسول الله ﷺ فسأله، فقال (اتق الله واصبر) فلم يلبث إلا يسيرا حتى جاء ابن له يقال له أبونعيم كان العدو أصابه فأتى رسول الله ﷺ، فسأله خبره وأخبره خبرها فنزلت (وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ) الآية وقيل معنى الآية يتق الله من كل شيء ضاق على

---

(١) سورة هود، آية: ٦ .

(٢) سورة الطلاق، آية: ٣ .

الناس[1]. " وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال في (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ) ليس المتوكل الذي يقول تقضى حاجتي، وليس كل من توكل على الله كفاه ماأهمه، ودفع عنه مايكره" وقضى حاجته، ولكن الله جعل فضل من توكل على من لم يتوكل أن يكفر عنه سيئاته، ويعظم له أجرا"[2].

فأمر الله نافذ والآية دليل على " **وجوب التوكل عليه تعالى وتفويض الأمر إليه، لأنه إذا علم العبد أن كل شيء من الرزق وغيره لايكون إلا بتقديره لايبقى إلا التسليم للقدر والتوكل على الله تعالى"**[3].

فينبغي الإخلاص لله تعالى؛ لأنه المتكفل بإنزال الأرزاق من السماء وتيسير أسبابها، وسبحانه وتعالى يرزق الناس جميعا بتسخير بعضهم لبعض، فالله تعالى يعطي كثيرا من الأبرار، وكثيرا من الفجار السعة في الرزق فنراهم متمتعين بذلك، وكثيرا من الفريقين فقراء معسرين، لكن المتقى المخلص يكون دائما أحسن حالا وأكثر احتمالا، فلايؤلمه الفقر كما يؤلم الفاجر، إذ هو بالتقوى يجد المخلص من كل ضيق، ومن عناية الله به رزق رزقا غير محتسب، قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[4].

فصرف جميع القوى التي منحها الله تعالى في الجسد والعمل فبهذا الصنيع المذكور يصل المؤمن إلى كل مايبتغيه من خير هذه الدنيا إلى جانب خير الدين بحسن الثقة في الله، والاعتماد عليه فالأثر المترتب على التوكل الحق هو قضاء المصالح والوصول إلى الرزق كما تصنع الطير بفطرتها .

---

(١) انظر: للإمام السيوطي، الدر المنثور في التفسير المأثور، (بيروت: دار الفكر، تط الثانية ١٤٠٣هـ)، (١٩٥/٨-١٩٨).

(٢) المصدر السابق، (٢٠٠/٨).

(٣) أبي السعود، إرشاد العقل السليم، (٧٣٤/٥).

(٤) سورة البقرة، آية: ٢١٢.

" **فعن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا"** "[١]، نعم إن الطير يسعى مبكرا لتحصيل قوته بمحض الفطرة، فيخرج من أوكاره جائعا ويرجع وقد امتلأ جوفه بالطعام، وليس هذا فقط ولكنه يرجع ومعه في حدود إمكاناته قوت فراخه الصغار التي لاتستطيع أن تسعى .

فالمرء المؤمن يعمل لأجل رزقه ومعاشه ويتوكل على الله في ذلك فالله يرزق من يشاء بغير حساب، وإن رأى المؤمن أن الله لم يوسع عليه في الدنيا فهذا من باب زيادة الابتلاء والامتحان، وإن رأى الوسع على الكافر فهذا من باب الاستدراج، آلا نرى أن الله تعالى وسع الدنيا على قارون وضيقها على أيوب عليه السلام[٢].

قال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[٣].

فالله تعالى لايرزق الأمة العزة والثروة والقوة والسلطة من حيث لاتحتسب ولاتقدر ولاتعمل ولاتتدبر، بل هو يعطيها بعملها وطلبها ويسلبها بزللها؛ قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ ﴾[٤].

كذلك المؤمن يتوكل على الله أن يرزقه الزوجة الصالحة وهو مطلب شرعي، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[٥].

---

(١) سبق تخريجه، ص ٣٢ .
(٢) انظر: للرازي، مفاتيح الغيب، مج ٣، (٥/١٠).
(٣) سورة التوبة، آية: ١٠٥.
(٤) سورة الأنفال، آية: ٤٦ .
(٥) سورة الفرقان، آية: ٧٤.



فباب الدعاء من أبواب السعي والأخذ بالأسباب حتى يكون هناك توكل حقيقي ولجوء إلى الله تعالى، فالتوكل على الله في طلب أن يرزق الإنسان المؤمن زوجة صالحة، ويخرج الله من أصلابهم وبطون زوجاتهم ذرية تطيع، وتعبد الله وحده لاشريك له وتحسن العبادة وتطلب الهداية[١].

فإصابة خير الدنيا من الزوجة الصالحة والذرية وغيرهما، وطلبها بالدعاء والعمل على ذلك من إبتغاء وجه الله في الطاعات، وجعلها في المقدمة؛ لأن الإخلاص عنصر رئيس في قبول الأعمال، وكذلك في قبول الدعاء.

إن دعاء الله تعالى من أبرز الطرق لشحن القلب بالقوة والرقة، وهو جزء من اللجوء إلى الخالق سبحانه؛ ولأنه هو مفتاح الخير والتوفيق بعد البذل والجد في العمل الصالح الموفي شروطه لضمان قبوله عند الله تعالى.

وقد أمر رسولنا الكريم أصحابه بالدعاء وحثهم على الحرص عليه والمتصفح لأبواب الدعوات في كتب الحديث يجد فيها كنوزا عظيمة، والقرآن كذلك مليء منها.

قال تعالى: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾[٤].

---

(١) انظر: لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٥٢٦/٣)؛ ولابن الجوزي، زاد المسير، ١٠مج (بيروت: المكتب الإسلامي، تط الثالثة، ١٤٠٤هـ)، (١١١/٦).

(٢) سورة الصافات، آية: ١٠٠.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ٨٩ .

(٤) سورة آل عمران، آية: ٣٨ .

وقد تواصى به السلف الصالح، فمما يرويه مفتي مكة التابعي الجليل عطاء ابن أبي رباح[١] عن صاحبه طاوس[٢] قوله " **قال لي طاوس ياعطاء لاتنزلن حاجتك بمن أغلق دونك أبوابه، وجعل عليها حجابه، ولكن أنزلها بمن بابه مفتوح لك إلى يوم القيامة، أمرك أن تدعوه، وضمن لك أن يستجيب لك**"[٣].

فالكل يدعو الله أن يرزقه الولد والذرية الصالحة، فأبو الأنبياء طلبها من الله تعالى ليكون له أولاد مطيعون يعينوه على الدعوة، ويؤنسوه في الغربة، ويكونون عوضا له، وكذلك زكريا عليه السلام طلب أن يهبه الله ولدا فرؤية الأولاد النجباء، مما تشوق نفوس الناظرين إليهم وتجعلهم يتمنون أن يكون لهم مثلهم[٤].

فهناك الكثير من مطالب الحياة الدنيا المشروعة، وهي من مجالات التوكل على الله، ولكن لايوجد أعظم من طلب الله تعالى في أن يعين على الهدى والثبات بعد توكله عليه سبحانه ليأخذ بيده في استقامة نفسه وإقامة دين الله في الأرض ودفع الفساد وقمع البدع وجهاد الكفار والمنافقين والاهتمام بمصالح المسلمين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

قال تعالى : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[٥].

وقال تعالى:﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[٦].

---

(١) أبومحمد القرشي عطاء بن أبي رباح توفي سنة ١١٤هـ وقيل ١١٥هـ، تذكرة الحفاظ، للذهبي، (٩٨/١) .

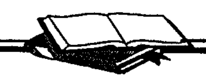
(٢) أبوعبدالرحمن اليماني الجندي طاوس،توفي سنة ١٠٦هـ بمكة، تهذيب التهذيب لابن حجر، (١٠٠/٤) ترجمة رقم ٣٠٨٩.

(٣) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، (٢٨٨/٢).

(٤) انظر: لمصطفى المراغي، تفسيره، (١٤٧/١)، (٦٦/٦، (٧٢/٨).

(٥) سورة هود، آية: ١٢٣.

(٦) سورة الملك، آية: ٢٩ .



فالآيتان إيماء إلى طلب الخلاص بالإيمان الخالص لله والإخبات إليه واتباع أمره بالحكمة، والموعظة الحسنة، وبذل المستطاع في سبيل الحصول على ذلك بالعبادة الحقة، والأخذ بالأسباب، والتوكل، وبدون ذلك فلن تكون الهداية، ولا الإيمان، فلنداوم على الإخلاص، وعلى معرفة التوحيد، والامتثال لأوامر الله، وأوامر رسوله، والامتثال بها ومن خلال ذلك يحصل المؤمل من الهداية والسداد[١]. وكذلك طلب الله تعالى والإلحاح في الدعاء أن يبعد الشيطان عنه.

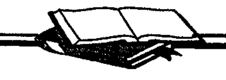
" عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " **إذا خرج من بيته فقال: بسم الله، توكلت على الله ولاحول ولاقوة إلا بالله يقال: حينئذ: هديت وكفيت ووقيت فتتنحى له الشياطين فيقول له شيطان آخر: كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي؟**""[٢].

فالكل يستطيع أن يتقوى على شيطانه بالتوكل على الله والتسليم لله بالقوة والحول، وبذلك يحصل المرء على الحفظ والمنعة من الشيطان الرجيم ومن كل وساوسه وخبثه؛ لأن إبليس عدو ظاهر العداوة لبني آدم، لم يلق سلاحه طرفة عين؛ ليتمتع برؤية أفواج بني آدم تلقى بنفسها في المهالك، ويمكن لمن توكل على الله حق توكله أن يتحرز من وسوسته، وسمه القاتل، بمخالفة الهوى، فإذا ماخالف الهوى المؤمن بعد التوكل على الله، عادت للعقل رجاحته، فيعرف مايضره مما ينفعه.

كذلك هناك من يطلب من الله العافية وفي الحديث "**عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لم يكن رسول الله - ﷺ - يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح: "اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي**" "[٣].

---

(١) انظر: للمراغي، تفسير المراغي، (١٠١/٤)، و(٢٤/١٠).
(٢) سبق تخريجه، ص ٢٧.
(٣) أبوداود (٥٠٧٤)؛ وابن ماجه (٣٨٧١)؛ والحاكم (٥١٧/١) ووافقه الذهبي.



فعدم طلب العافية من المضعفات التي تصيب القلب بالمرض، ومايتبعها من حب الدنيا بكل ماتحمل من زينة وجاذبية.

ولن تأتي هذه العافية إلا بالصدق في العمل والخلوات، مما يؤدى ذلك إلى الامتناع عن اقتراف مايغضب الله تعالى فيتعرض العبد للعافية وعفو الله سبحانه، كذلك العافية لاتأتي إلا بعد اليقين بالله والتوكل عليه في الحفاظ على الصحة، فالعافية سلاح يتقوى بها العبد المؤمن على العمل والسعي في مرضاة الله.

كذلك من مجال التوكل، التوكل على الله في طلب النصر، وإقامة شرع الله وهذا ماكان من الأنبياء والصالحين، والدعاة إلى يوم الدين.

قال تعالى: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[1].

فالله تعالى قد نصر المسلمين يوم بدر وهم قلة، ونصر المسلمين يوم الخندق وهم محاصرون، والله تعالى قادر على أن ينصر اليوم المسلمين وهم محاصرون من كل حدب وصوب، يهاجمون ويضطهدون في فلسطين، وألبانيا، وكشمير، والفلبين، والشيشان وغيرهم كثير فليس أمامهم سوى باب الله يقرع بالدعاء والقنوت.

قال الإمام الشافعي[2]:

أتهزأ بالدعاء وتزدريه ... وماتدري بما صنع الدعاء

سهام الليل لاتخطئ ولكن ... لها أمد وللأمد انقضاء[3]

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ١٢.

(٢) أبوعبدالله محمد بن إدريس الشافعي، ولد سنة ١٥٠هـ، وتوفي سنة ٢٠٤هـ. انظر: لعبدالغني الدقر، الإمام الشافعي فقيه السنة الأكبر، ص٢٥، ٣٨، ١٦٣.

(٣) الإمام الشافعي، ديوان الشافعي، صححه وعلق عليه محمد الزعبي (بيروت: دار الجيل ط الثالثة، ١٣٩٢هـ)، ص ١٧ .

فينبغي للمؤمن الاستقامة على الجادة ولزومها والسير عليها والاستمرار فيها دون اعوجاج أو انحراف حتى يكون لنا الفلاح بإذن الله، إن عملية الاستقامة لاتتم بحركة ميكانيكية، بل هي معارك، ومجاهدة، وتنقية، مع النفس، والهوى، والشيطان، وعلى مقدار الهمم والعزيمة والثبات يتم الفلاح، وتنجح عملية المجاهدة والتنقية، ولقد مدح الله تعالى نبيه بالاستقامة ومدح المؤمنين المستقيمين.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾[1].

وقال تعالى في حق نبيه ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾[2].

أخيرا فإن أفضل مجال للتوكل على الله هو في إقامة الدين ورفع الظلم عن الناس، والبشر متفاوتون في توكلهم حسب المقاصد والأماني، وبالله تعالى الكلاءة والتوفيق.

---

(١) سورة فصلت، آية: ٣٠.

(٢) سورة هود، آية: ١١٢.

الفصل الرابع

بواعـــث التوكـل علـى الله تعـــالي

وفيـــه :

تـمهيد .

المبـحث الأول: رسوخ معانـي أسماء الله الحسنى وصفاته في النـفس.

المبـحث الثانـي: حسن ظن المؤمن بـربـه وإعتماده عليه.

المبـحث الثالث: استسلام العبـد وافـتقاره لله سبحانه وتعالى .

المبـحث الرابـع: حسن جزاء المتوكلين .



الفصل الرابع
بواعث التوكل على الله تعالى

التمهيد:

إن لكل سلوك وخلق يقوم به الإنسان دوافعه وبواعثه، فمنها ماهو محمود، ومنها ماهو مذموم، ولكن مانحن بصدد الكلام عنه له دوافعه المحمودة، فالتوكل على الله من الأخلاق التي لاتكتسب إلا ببواعث لها أساس في شخصية العبد المتوكل العابد.

والتوكل عبادة لله، إذ هو سبحانه وتعالى لايعبد إلا بمعونته، وعبادته لاتأتي إلا بالمعرفة الحقة، وذلك برسوخ معنى الألوهية والربوبية ورسوخ معاني أسمائه، وأفعاله في النفس المؤمنة، وكذلك استسلام العبد وافتقاره لله عز وجل وكمال إنقياده، وخضوعه لله سبحانه وتعالى، وحسن ظنه بربه وإنابته له، ولاننسى ماأعده الله تعالى من حسن ثواب وجزاء للمتوكلين.

والقرآن لم يترك لهذا الخلق العظيم جانباً إلا بحثه، وبهذا فإن أساس كل شيء الإيمان الصادق القوي، وهو الدافع إلى المكرمات، وصاحبه يكتسب الخلق القويم حتماً.

فسبحانه لايدعو إلى خير أو ينفر من شر إلا وجعل ذلك من مقتضى الإيمان المستقر في القلوب، فالتوكل على الله وغيره من الأخلاق التي شرعها الإسلام هي طاعات صادرة من الإسلام وشرعه، فهي مدارج الكمال وروافد تصون العبد المؤمن؛ لذلك أعطيت منزلة كبيرة في دين الله، والتوكل له منزلته ومقامه.

ومابواعثه التالية الذكر إلا وتدل على أنها لها قيمتها العالية، وقيمة العمل ترجع قبل كل شيء إلى طبيعة البواعث التي تمخضت عنه، وهذه البواعث ماهي إلا توجيه ومضي للأولياء والمؤمنين على السير وفق البواعث لينال المرء المنشود منها[1].

---

(١) انظر: للأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، باب الباء، ص٥٠-٥١؛ ولأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تحقيق، محمد باسل عيون السوط (بيروت: دار الكتب العلمية، تط الأولى ١٤١٧هـ) (١/٢٥٠).



المبحث الأول

رسوخ معاني أسماء الله الحسنى وصفاته في النفس

إن لله تعالى أسماء وصفات كلها حسنى، وأوصافه، وأسماؤه كلها كمال فهو سبحانه منزه، عما يضاد صفات كماله، وأسمائه الحسنى.

ومنهج السلف الصالح في أسماء الله تعالى وصفاته : هو الإيمان بها كما أخبر الله، وكما أخبر بها رسوله ﷺ ، وذلك على مراد الله تعالى، وبالوجه الذي يليق بجلاله، وعظيم سلطانه، مع الإيمان بأن الله تعالى لايشابهه أحدا من خلقه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

فالإيمان بالأسماء والصفات من التوحيد القولي، والاعتقادي المتعلق بأعمال القلوب.

فرسوخ معاني أسماء الله، وصفاته في نفس المؤمن تجعله يتعبد الله بها فسبحانه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[١]. "أي ليس كمثله شيء في شأن من الشئون التي من جملتها هذا التدبير ..... المبالغ في العلم بكل مايسمع ويبصر "[٢].

إن توحيد الأسماء والصفات هو روح الإيمان، وأصله وغايته، فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله، وصفاته ازداد إيمانه ورسخ، وقوي يقينه، فينبغي للمؤمن أن يبذل مقدوره ومستطاعه في معرفة الله بأسمائه، وصفاته من غير تعطيل، ولاتمثيل، ولاتحريف ولاتكييف. بل تكون المعرفة والرسوخ لمعانيها ومحتوياتها متلقاة من الكتاب والسنة، وماروى عن الصحابة، والتابعين لهم بإحسان .

وبهذا فعندما يمرر المؤمن أسماء الله، وصفاته على وفق ماأشرنا إليه يحصل الرسوخ، وتحصل المعرفة النافعة التي لايزال صاحبها في زيادة إيمان، فمثلا: على

---

(١) سورة الشورى، آية: ١١ .

(٢) أبوالسعود، إرشاد العقل السليم، (٥٢٢/٥).

العبد أن يعلم أن لا إلـه إلا الله " **فاسـم "الله" دال علـى جميـع الأسـماء الحسـنى والصفات العليا"**[١].

واسم " الله " دال على كونه معبودا تألهه الخلائق تعظيما وخضوعا، وفزعا إليه في الحوائج، والنوائب، وهناك الكثير من الآيات القرآنية الكريمة ارتبط فيها اسم " الله " بخلق التوكل على الله؛ الذي يستلزم كمال ربوبيته، وألوهيته.

قال تعـالى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[٢]. أتوكل على الملكِ العظيم مالك (العرش العظيم) الجسم الأعظم المحيط الذي تتنزل منه الأحكام والمقادير[٣].

والمعنى: "**عليه توكلت يفيد الحصر أي لا أتوكل إلا عليه وهو رب العرش العظيم، والسبب في تخصيصه للعرش بالذكر؛ أنه كلما كانت الآثار أعظم، وأكرم، كان ظهور جلالة المؤثر في العقل والخاطر أعظم؛ ولما كان أعظم الأجسام هو العرش كان المقصود من ذكره تعظيم جلال الله سبحانه**"[٤]. فالعلة في التوكل على الله أنه منزل الأحكام والمقادير صاحب الملك العظيم والعرش العظيم.

وقد بين الرسول ﷺ عظم هذا العرش بالنسبة للسموات وبالنسبة للكرسي "**ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة**"[٥].

وقال تعـالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾[٦].

---

(١) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، (٤١/١).
(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٩ .
(٣) انظر: أبوالسعود، المصدر السابق، (٤٦٠/٢).
(٤) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، مج٨ (ج١٦، ص٢٤٣-٢٤٤).
(٥) رواه الإمام البيهقي في " الأسماء والصفات"؛ وابن أبي شيبة، قال الألباني في الصحيحة: حديث صحيح بطرقه .
(٦) سورة الشعراء، آية: ٢١٧-٢٢٠ .



فالله تعالى يأمر رسوله بالتوكل عليه وتوطين قلبه على التوكل وذلك لما وصف الله تعالى ذاته بعلمه بحاله ﷺ التي بها يستأهل ولايته بعد أن عبر عنه بما ينبيء عن قهر أعدائه ونصر أوليائه من وصفي العزيز الرحيم(١).

فا **"التوكل عبارة عن تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره، وقوله " العزيز الرحيم "؛ أي الذي يقهر أعداءك بعزته، وينصرك عليهم برحمته؛ لما أراك فيه من التقلب، والتهجد، وطلب النصر عليهم بإلحاحك في الدعاء"**(٢).

وفي الآية **"علق التوكل بالاسمين " العزيز، والرحيم" ماتبعهما من الوصف الموصول وماذيل به من الإيماء إلى أنه يلاحظ قوله، ويعلم نيته، إشارة إلى أن التوكل على الله يأتي بما أومأت إليه هذه الصفات ومستتبعاتها بوصف (العزيز الرحيم) للإشارة إلى أنه بعزته قادر على تغلبه على عدوه الذي هو أقوى منه، وأنه برحمته يعصمه منهم"**(٣).

وقال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(٤).

فهو سبحانه سميع لما يقوله العباد ويدبرونه، وعالم بما أضمروه إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، فينبغي التوكل وتفويض الأمر إليه سبحانه؛ ليكون ذلك عونا لنا على السلامة(٥).

فمتى علم المؤمن أن له ربا يسمع، ويعلم، ويحيط بكل أموره، ولايتركه طرفة عين، ومراقبته الدائمة، كان ذلك دافعا، ويقينا قويا وعزيمة فتية للإصرار

---

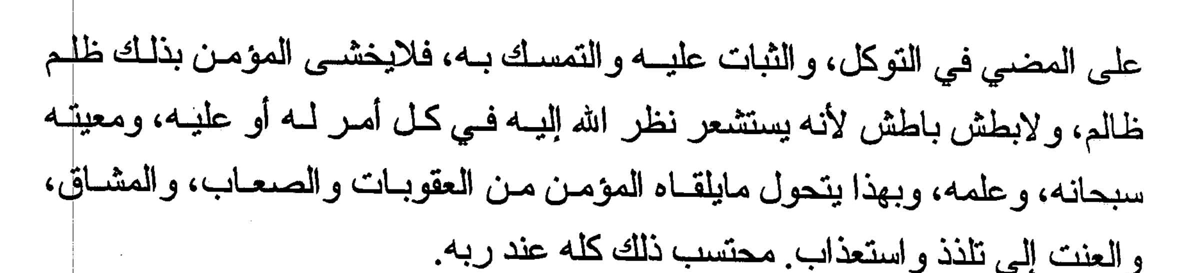
(١) انظر: أبوالسعود، المصدر نفسه، (١٨٢/٤).

(٢) انظر: للإمام الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، مج١٢، (ج٢٤، ص١٧٣).

(٣) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (١٨-٢٠٤/١٩).

(٤) سورة الأنفال، آية: ٦١ .

(٥) انظر لوهبه الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ١٦مـــج (بيروت: دار الفكر المعاصر؛ دمشق: دار الفكر تط الأولى ١٤١١هـ)، (٩-٦٠/١٠) .



على المضي في التوكل، والثبات عليه والتمسك به، فلايخشى المؤمن بذلك ظلم ظالم، ولابطش باطش لأنه يستشعر نظر الله إليه في كل أمر له أو عليه، ومعيته سبحانه، وعلمه، وبهذا يتحول مايلقاه المؤمن من العقوبات والصعاب، والمشاق، والعنت إلى تلذذ واستعذاب. محتسب ذلك كله عند ربه.

وقال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾[1].

الله تعالى " حقيق بأن يتوكل عليه دون الأحياء الذين من شأنهم الموت فإنهم إذا ماتوا ضاع من توكل عليهم ..... وصف بالصفة الفعلية بعد وصفه بالصفة الأبدية التي هي من الصفات الذاتية والإشارة إلى إتصافه بالعلم الشامل لتقرير وجوب التوكل عليه تعالى وتأكيده فإن من أنشأ هذه الأجرام العظام ..... مع كمال قدرته على إبداعها دفعه لحكم جليلة وغايات جميلة ..... أحق من يتوكل عليه وأولى من يفوض الأمر إليه"[2].

" "فالحي الذي لايموت" هو الله تعالى، وعدل عن اسم الجلال إلى هذين الوصفين لما يؤذن به من تعليل الأمر بالتوكل عليه؛ لأنه الدائم، فيفيد ذلك معنى حصر التوكل في الكون عليه، فالتعريف في (الحي) أي الكامل حياته لأنها واجبة باقية ومستمرة، وحياة غير معرضة للزوال بالموت، ومعرضة لاختلال أثرها بالذهول كالنوم ونحوه فإنه من جنس الموت، فالتوكل على غيره معرض للاختلال وللانخرام، وفي ذكر الوصفين تعريض للمشركين إذ ناطو آمالهم بالأصنام وهي

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٥٨-٥٩ .

(٢) أبوالسعود، المصدر السابق، (١٦٤/٤).



أموات غير أحياء، وفي الآية إشارة إلى أن المرء الكامل لايثق إلا بالله؛ لأن التوكل على الأحياء المعرضين للموت، وإن كان قد يفيد أحيانا لكنه لايدوم"(١).

فسبحانه حي كامل الحياة، فإيمان المؤمن بهاتين الصفتين خير معين على التصبر على مايتجرع من ألوان البطش والعذاب.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾(٢).

إن " **في ذكر الرحمن هنا إشارة إلى أن أهل الإيمان مرحومون، وأن فعل الله بالمؤمنين دائما محفوف بالرحمة"**(٣)، وذكر اسم الرحمن هنا **"أكد لهم حصول الرحمة في الدنيا والآخرة لإيمانهم، وتوكلهم عليه خاصة"**(٤).

فالرحمن اسم يدل على اتصاف الرحمن بالرحمة، والبر، والجود، والكرم وعلى سعة رحمته ومواهبه التي عم بها جميع الوجود، وخص المؤمنين منها، بالنصيب الأوفر والأكمل.

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾(٥).

---

(١) انظر: الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٨-٥٩/١٩).
(٢) سورة الملك، آية: ٢٩ .
(٣) سعيد حوى، الأساس في التفسير، (٦٠٣٨/١٠) .
(٤) انظر: للألوسي، روح المعاني، (٢٩-٢٢/٣٠) .
(٥) سورة آل عمران، آية ١٥٩.

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[4].

ففي الآيات السابقة سيق لفظ الجلالة (الله) لفظ (التوكل) لأن "الألوهية جامعة لصفات الكمال مستدع للتوكل عليه سبحانه أو الأمر به"[5]، فالعلة في سورة آل عمران مثلا:

- نتوكل عليه سبحانه لننال محبته ورضاه .

---

(١) سورة يونس، آية ٨٤-٨٥.

(٢) سورة هود، آية ٨٨ .

(٣) سورة يوسف، آية ٦٧ .

(٤) سورة إبراهيم، آية ١٢ .

(٥) أبوالسعود، إرشاد العقل السليم، (٤٣٩/١).

وفي سورة يونس:

- نتوكل عليه إن كنا قد حققنا مسمى الإيمان والإسلام في أنفسنا.

وفي سورة هود:

- علة التوكل ظاهرة حتى يلازمنا التوفيق والسداد .

وفي سورة يوسف :

- إن كان جميع الأحكام والتدابير منه سبحانه فلما لانتوكل عليه فهو الحاكم والمدبر لجميع الأمور.

وفي سورة إبراهيم:

- لننال الهدى ونمتطي الصبر فعلينا التوكل عليه سبحانه .

ففي كل الآيات السابقة فيها نتذوق اسم الله تعالى وتعليل التوكل عليه لأنه قد فعل بنا مايوجب ويستدعي التوكل عليه سبحانه[1].

وقال تعالى: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾[4].

---

(١) المصدر نفسه، (١٨٣/٣).
(٢) سورة هود، آية ٥٦ .
(٣) سورة الأنفال، آية: ٢ .
(٤) سورة الرعد، آية: ٣٠ .

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(٣).

وقال سبحانه : ﴿ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾(٤).

ففي الآيات معاني وعلل للتوكل عليه سبحانه، فالرب هو المربي جميع عباده، بالتدبير، وأصناف النعم، وأخص من هذا تربيته، بإصلاح قلوبهم، وأرواحهم، وأخلاقهم وفي كلمة الرب معاني الإقبال على الله تعالى الذي يرجى منه الخير، ويترقب حصوله، وانتظاره، ممن يملكه ويقدر على تحقيقه، فهو وحده ربنا لامفزع لنا في الشدائد سواه، ولاملجأ لنا منه إلا إليه، ولايرجى سواه، ولايخضع لسواه، ولايتوكل إلا عليه؛ لأن من نرجوه، ونخافه، ونخضع له، ونتوكل عليه إما أن يكون مربيا وقيما بالأمور، ومتولي الشؤون، أو أن نكون له مملوكين وعبيدا، أو يكون معبودا لانستغني عنه طرفة عين فمن كان كذلك، فهو جدير أن لايستعاذ إلا به، ولايستنصر بسواه ولانلجأ إلا إلى حماه فهو الكافى، والناصر، والولي، والمتولي لجميع الأمور بربوبيته، وملكه، وألوهيته، فكيف لايلتجيء العبد المؤمن عند النوازل إلى ربه، ومالكه، وإلهه(٥).

وقال تعالى ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾(٦).

---

(١) سورة النحل، آية: ٤٢ .
(٢) سورة الشوري، آية: ١٠ .
(٣) سورة الشوري، آية: ٣٦ .
(٤) سورة الممتحنة، آية: ٤ .
(٥) ابن قيم الجوزيه، بدائع الفوائد، (بيروت، دار الكتاب العربي، بدون تط)، (٢/٢٤٨).
(٦) سورة آل عمران، آية: ١٢٢.

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(٢).

ففي الآيات ذكر اسم (الله) هنا، وهو المألوه المعبود، ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، لما اتصف به من صفات الألوهية التي هي صفات الكمال، ففي آية آل عمران دليل صريح على أن التوكل على الله من الإيمان وفي نفس السورة من آية أخرى بيان خلق من أخلاق النبي - ﷺ - يقصد به الاقتداء؛ لأنه الأسوة الحسنة، وهو القائد والهادي بالقول والفعل والصفات(٣)، وفي الآيات تقديم للجار والمجرور؛ ليفيد الحصر في معرض التذكير بالمتأخرين رغبة في التأسي بالسلف والقيام بما جاء به الدين، وأنه يحدث لكم كما حدث لأولئك الكملة المتوكلين مع سيد المرسلين أيام ضعفهم وقلتهم، وفقرهم، وتألب الناس كلهم عليهم(٤).

فالآيات فيها حث وترغيب في التوكل على الله على فعل شيء مرغوب به شرعا، وينبغي على المؤمن أن لاييأس، وعليه أن يتذكر أن الله، وليه فلا ناصر سواه، ويلزم من ذلك الاستمرارية والديمومة على التوكل، ويؤمن ، ويصدق أن الذي له من صفات الجلال والعظمة والكمال، يستحق أن يكون التوكل له، لأن كل شيء مرده إلى الله، له الخلق والأمر. فينبغي الإيمان بأنه الرب لا إله غيره؛ فالآيات حض "**على ألا نتوكل إلا عليه وألا نفوض أمورنا إلا إليه**"(٥). فمن الثابت للمؤمن وبيقينه، وعلمه، يتأكد له أن التوكل محقق لأمرين مهمين:

أحدهما : محبة الله للعبد المؤمن .

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦٠.

(٢) سورة المائدة، آية: ١١ .

(٣) انظر: لأبي حيان الأندلسي، البحر المحيط، ٨مج (دارالفكر ـط الثانية ١٣٩٨هـ)، (٣-٤/١٤٣-١٤٤).

(٤) انظر: للمراغي، تفسير المراغي، (٢/٧١) .

(٥) سعيد حوى، الأساس في التفسير، (٢/٨٦٩).

ثانيهما : كفاية الرحمن للعبد المؤمن .

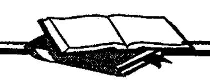
فالتوكل عليه سبحانه لايأتي إلا بمن وثق في أنه حق، ومن كان على الحق، يحق له أن يثق بالله، فإنه ينصره، ولايخذله. فحق العبد المؤمن أن يداوم على التوكل على الله، وتخصيصه لله لا لغيره؛ ففي كل سورة ذكرت التوكل، وفي كل آية خصت المؤمنين بالتوكل، كان لها رصيد من التجارب، والحقائق، والتوجيهات التي لاتقدر بثمن؛ وماذلك إلا لتقرير شريعة ومنهج الله سبحانه في صورة واقعية حية.

" فالتوكل على الله من أعلى مقامات التوحيد، فإن من كان موقنا بأن ربه هو المدبر لأموره، وأمور العالم كلها، لايمكن أن يكل شيئا منها إلى غيره"[1].

إذن التوكل على الله من لوازم الإيمان به. كما أشرنا سابقا. بل هو من الإيمان في الصميم؛ لأن مفهومه داخل فيه، لايخرج عنه، ولاينفك عنه؛ لذلك فإن رسوخ معانى أسماء الله وصفاته في قلب العبد المؤمن للزمه أن لايقدم إلا على مايرضي الرب عز وجل، فيأمر نفسه بالمعروف، وينهاها عن المنكر، ويلزم نفسه، ألا يسمع، ويري ربه منه، إلا مايرضيه من قول أو عمل فيبصره حيث أمره، ويفتقده حيث نهاه .

---

(١) انظر: لمحمد رشيد رضا، تفسير المنار، (٥٩٣/٩).



المبحث الثاني

حسن ظن المؤمن بربه واعتماده عليه

حسن الظن بالله والاعتماد والثقة به سبحانه تتحقق بامتلاء قلب المؤمن بالظنون الحسنة حتى يستولي ذلك على لسانه وجوارحه.

فالقلب المؤمن إذا قرب من الله، كان تلقيه من الله بحسب قربه منه، وبذلك يكون له قلب طاهر صاف منزه عن الأدناس، ويغلب على القلب النور، فيفيض على الأركان؛ لذلك على المؤمن أن يكون حسن ظنه بربه، وخالقه نابعا من مقدار معرفته به سبحانه جل جلاله، فالله تعالى هو معتمدنا، وثقتنا، وهو الحاكم فإذا حكم بحكم وقضى أمرا فلا مرد له.

" فمن كان مقبلا على شأنه متوكلا على خالقه يعلم أنه لايجلب الخير سواه، ولايصرف السوء إلا إياه، فليكن جليسك، وأنيسك وموضع توكلك وشكواك، فإن ضعف بصرك فاستغث به، وإن قل يقينك فسله القوة"[1].

فالمؤمن يحسن ظنه بربه، ويعتمد عليه في النصر، والرزق، والشفاء، وفي تسهيل الصعاب من أمور الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[2].

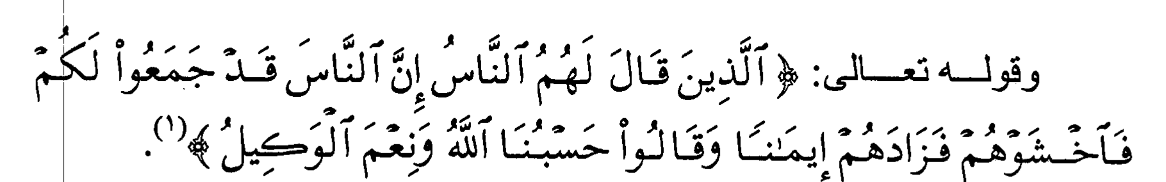
وقوله تعالى : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[3].

---

(١) الإمام ابن الجوزي، صيد الخاطر، حققه وراجعه علي الطنطاوي ، وناجي الطنطاوي، (بيروت: دار الفكر تط ١٤٠٧هـ)، ص ٣٧١ باب رقم ٣٣٤ .

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٢٢.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٦٠.



وقولــه تعــالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾(١).

فالآيات السابقة جميعها تحث على التوكل على الرب سبحانه مع حسن الظن به؛ لننال المنشود والمرغوب عاجلا أو آجلا، فرسولنا الكريم - ﷺ - لنا في غزواته ومعاركه دروس مستفادة، فهذه غزوة أحد " تعلمنا أن نسلم أمورنا لله، وأن نتوكل عليه، وألا نخالف أمره، ومن ثم أمرنا سبحانه ألا نتوكل إلا عليه، وألا نفوض أمورنا إلا إليه"(٢).

فالله سبحانه قد كفى المؤمنين، وأعانهم، وعصمهم من وقوع مايضرهم، في دينهم ودنياهم فمحسن الظن يسأل، ويطلب ربه، ويسأله من فضله، وأحب ما إلى الجواد: أن يرجى، ويؤمل، ويسأل، وهو متعلق ذلك السائل بأسمائه متعبد بها، داع بها؛ لذلك ينبغي لنا الاعتماد على حول الله وقوته متبرئون من حولنا وقوتنا لنضمن النصر، والغلبة، والفلاح.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(٣).

والمعنى في الآية : أن حال المؤمنين المتيقنين لقاء الله تعالى ويتوقعون ثوابه هم الثابتون لمحاربة الأعداء ومقاومتهم، فمشيئة الله تعالى حكمت بالغلبة للمؤمنين

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٧٣.

(٢) انظر: لسعيد حوى ، الأساس في التفسير، (٨٦٨/٢).

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٤٩ .

فقد قالوا قولهم " قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله ..." تتميما لجوابهم، وتأييدا له بطريق الاعتراض التذييلي تشجيعا لأصحابهم، وتثبيتا لهم على الصبر المؤدي إلى الغلبة، وكذا الحال إذا جعل ذلك ابتداء كلام من جهة الله تعالى جيء به تقريرا لكلامهم ؛ والمعني : قال الذين يظنون أو يعلمون من جهة النبي أو من جهة التابوت والسكينة أنهم ملاقوا نصر الله العزيز كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله تعالى(١).

فظنهم هذا من باب يقينهم لاعيانا بل يقين تدبر، وهم بذلك وصفوا بالأعلون إيمانا(٢).

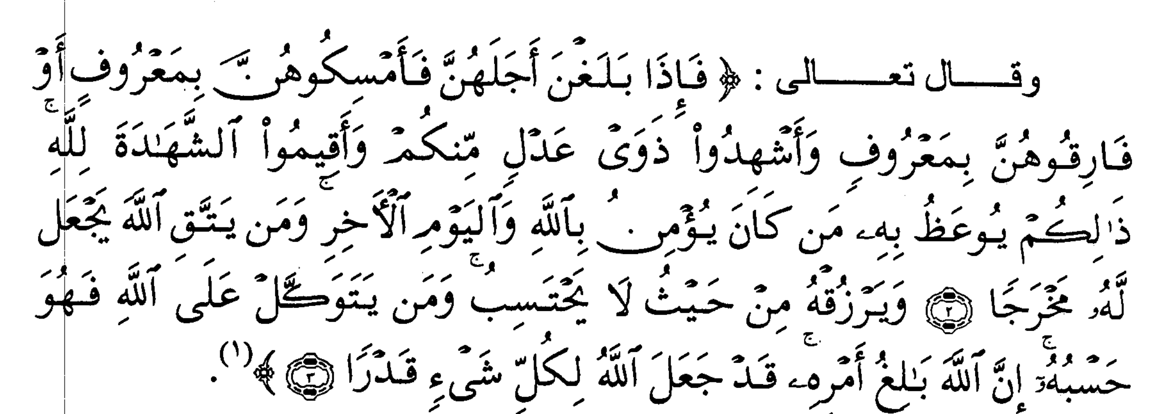
فالله قد كفل لعباده الرزق والمعيشة من ملك ورياسة، وأموال، وبنين، وصحة، وعافية بدنية، هذا لمن جمع بين الإيمان الصحيح، المستلزم لأعمال الإيمان الظاهرة، والباطنة وبين التوكل الذي هو الآلة لكل عمل، والوسيلة فكل عمل لايصحبه التوكل، فغير تام، فالله تعالى يسوق الرزق للمتقي، من وجه لايحتسبه، ولايشعر به، في أمر دينه، ودنياه، فعلى المؤمن أن يعتمد ويحسن الظن بالله في جلبماينفعه، ودفع مايضره، ويثق به في تسهيل ذلك.

قال تعالى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(٣).

إن متاع الدنيا من مظاهر حكمة الله في خلقه، فلاينبغي التفاخر به وكل متاع في الدنيا أيام قليلة تنقضي، وتذهب. لايعلم ذلك إلا الموحدون المتوكلون على ربهم، فالإمداد بالرزق يخضع لحكمة ومشيئة يعلمها الخالق سبحانه(٤).

---

(١) انظر: لأبي السعود، إرشاد العقل السليم ...، (١/٢٨٣).
(٢) انظر: للألوسي، روح المعاني، (١-٢/١٧١).
(٣) سورة الشورى، آية: ٣٦ .
(٤) وهبه الزحيلي، التفسير المنير، (٢٥-٢٦/ ٧٥-٧٧).



وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝ ﴾[1].

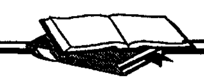
والمعنى المراد من الآية: أن " **الإيمان بالله واليوم الآخر يوجب لصاحبه أن يتعظ بمواعظ الله، وأن يقدم لآخرته من الأعمال الصالحة، مايتمكن منها، بخلاف من ترحل الإيمان من قلبه، فإنه لايبالي بما أقدم عليه من الشر، ولايعظم مواعظ الله، لعدم الموجب لذلك، ولما كان الطلاق قد يوقع في الضيق والكرب والغم أمر تعالى بتقواه ..... فإذا أراد العبد الطلاق وفعله على الوجه الشرعي فالله تعالى يجعل له فرجا ومخرجا من كل شدة ومشقة والآية وإن كانت في سياق الطلاق والرجعية، فإن العبرة بعموم اللفظ فكل من اتقى الله ولازم مرضاته في جميع أحواله، فإن الله يثيبه في الدنيا والآخرة – فيسوق الله الرزق للمتقي، من وجه لايحتسبه، ولايشعر به في أمر دينه ودنياه بأن يعتمد على الله في جلبماينفعه، ودفع مايضره، ويثق به في تسهيل ذلك فالله كافيه الأمر الذي توكل عليه فيه وإذا كان الأمر في كفالة الغني القوي، العزيز الرحيم، فهو أقرب إلى العبد من كل شيء، ولكن ربما أن الحكمة الإلهية، اقتضت تأخيره إلى الوقت المناسب له فلابد من نفوذ قضائه وقدره**"[2].

فالآية { وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا} دليل على وجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه مع بيان السبب والحكمة، فكل من يتوكل على الله

---

(١) سورة الطلاق، آية: ٢ – ٣ .

(٢) انظر: السعدي، التيسير، (٥/٢٥٩-٢٦٠).



ويفوض الأمر إليه كفاه ماأهمه لاسيما أن هم الطلاق هم عظيم، ومايتبعه من نفقة، وخلاف ذلك فسواء من توكل عليه ومن لم يتوكل لاينبغي عليه إهمال اتخاذ الأسباب.

وقال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾(١).

والمعنى: " **رزقكم من الأمطار، وصنوف الأقدار، الرزق الديني والدنيوي، فإنه ينزل من عند الله كسائر الأقدار، فهذه السماء من شمس ، وقمر، وكواكب، ومطالع، ومغارب التي تختلف بها الفصول، التي يكون تغيرها مناسبا لأنواع النباتات المختلفة التي تسقى بماء الأمطار، وتسوقها الرياح، وتغذيها الشمس بحرارتها – التمثيل الغذائي – ويمنحها نور القمر قوة ونموا ونضوجا**"(٢)، فسبحان الرزاق الكريم الكبير.

إن محسن الظن بالله تعالى مطمئنة نفسه إلى خالقه، ومدبره إلى ماوعد الله فيسلم نفسه ويرضى ولايسخط وهو يرى، أن النملة رازقها، وكالئها، خالقها سبحانه حلت قدرته فكيف به وهو من فضله الله تعالى على جميع مخلوقاته، وبهذا يزداد المؤمن رضى وثقة بكلاءة الله عز وجل له.

" **عن البراء قال: اشترى أبوبكر رضي الله عنه من عازب رحلا بثلاثة عشر درهما فقال أبوبكر لعازب: مر البراء فليحمل إلي رحلي، فقال عازب: لا حتى تحدثنا كيف صنعت أنت ورسول الله ﷺ حين خرجنا من مكة والمشركون يطلبونكم قال: أرتحلنا من مكة فأحيينا –أو سرينا- ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا وقام قائم الظهيرة، فرميت ببصري هل أرى من ظل فآوي إليه، فإذا صخرة أتيتها، فنظرت بقية ظل لها فسويته، ثم فرشت للنبي ﷺ فيه، ثم قلت له: أضطجع يانبي الله، فاضطجع النبي ﷺ ثم انطلقت انظر ماحولي: هل أرى من الطلب**

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٢٢ .

(٢) وهبه الزحيلي. التفسير المنير، ج٢٧-٢٨، ص١٩ .

أحدا؟ فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة، يريد منها الذي أردنا، فسألته فقلت له، لمن أنت ياغلام؟ فقال لرجل من قريش سماه فعرفته، فقلت: هل في غنمك لبن؟ قال: نعم. قلت: فهل أنت حالب لنا؟ قال: نعم فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، ثم أمرته ان ينفض ضرعها من الغبار، ثم أمرته أن ينفض كفيه فقال هكذا، ضرب إحدى كفيه بالأخرى فحلب لي كثبة من لبن، وقد جعلت لرسول اله ﷺ إداوة على فمها خرقة، فصببت على اللبن حتى برد أسفله، فانطلقت به إلى النبي ﷺ فوافقته قد استيقظ، فقلت: اشرب يارسول الله، فشرب حتى رضيت، ثم قلت: قد آن الرحيل يارسول اله، قال: بلى فارتحلنا والقوم يطلبوننا فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له، فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يارسول اله، فقال: لاتحزن، إن الله معنا"(١).

فهذا رسولنا الكريم - ﷺ - خرج هو وخليفة المسلمين، لا يملكان شيئا من الدنيا، لا يملكان سوى الإيمان والثقة بالله، وحسن الظن به وبوعده سبحانه، فكانا المثل التطبيقي الحي في الثقة وحسن الظن بالله تعالى والتوكل عليه .

ومن قبل مريم ابنة عمران والله وكيلها وكافلها في أمورها وشؤونها.

قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(٢).

" إن هذا الرزق المبارك يفيض من حولها لبركتها حتى ليعجب كافلها – وهو نبي- من فيض الرزق، فيسألها: كيف ومن أين هذا كله؟

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري، لابن حجر، (٩/٧) ح(٣٦٥٢) كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ .

(٢) سورة آل عمران، آية: ٣٧ .



فلاتزيد على أن تقول في خشوع المؤمن، وتواضعه، واعترافه بنعمة الله، وفضله، وتفويض الأمر إليه كله: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، وهي كلمة تصور حال المؤمن مع ربه، واحتفاظه بالسر الذي بينه وبين الله، والتواضع في الحديث عن هذا السر، لا التنفج به والمباهاة! كما أن ذكره هذه الظاهرة غير المألوفة التي تثير عجب نبي الله زكريا"[1] الذي سخره الله تعالى ليكفلها ويلزم نفسه لتربيتها التربية الصالحة، قال تعالى: {وكفلها زكريا}.

فمريم عليها السلام، أحسنت الظن بربها ووثقت وأيقنت أن الله عز وجل كالئها، وحافظها، ورازقها؛ لأنها من بيت اتسم بالعبودية الخالصة لله تعالى والتوجه إليه بالكلية، وتجرد من كل مالايرضى الله به ويقبله، فهي بذلك كانت ممن شمله الحديث المروي "عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال النبي -ﷺ-: " **يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا، تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي، أتيته هروله"**[2]، كيف لاتكون مشمولة في الحديث وهي العابدة الناسكة في المحراب، سليمة القلب، الطاهرة العفيفة، محسنة الظن بالله، وقد أتت بذلك لمعرفتها بقدر الله، ومدى رحمته، فيقينها أوصلها بربها، فزادها قربا، وحبا، وعزة، ورفعة وتوكلا عليه، " **فالله تعالى يرزق من يريد رزقه بما لايعرف مقداره لأنه موكول إلى فضل الله"**[3]، فالمؤمن لن يدرك حقيقة حسن الظن بالله إلا بعد أن يرى ثمرته ويسعد بها **"فحسن الظن لقاح الإيمان، فإذا اجتمع الإيمان وحسن الظن أثمرا العمل الصالح، وحسن الظن بالله لقاح الافتقار والاضطرار إليه فإذا اجتمعا أثمرا إجابة الدعاء"**[4].

---

(١) انظر: لسيد قطب، في ظلال القرآن، (٣٨٧/١).

(٢) صحيح البخاري، (٥٢٨/٨) ح رقم (٧٤٠٥) كتاب التوحيد واللفظ له؛ ومسلم ح(٢٦٧٥)، (٢٦١/٤) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) انظر: للطاهر بن عاشور، التنوير والتحرير، مج (٣-٤-٥/٢٣٧).

(٤) انظر: لابن قيم الجوزيه، الفوائد، ص ٢٥٦ .



نعم إن حسن الظن يزيد وينمي الإيمان، وينتج عنهما الثمار الطيبة العبقة، فلابد من اللقاح الجيد، وهو الافتقار إلى ذات الله تعالى ولنعلم أننا مضطرون للالتجاء إليه سبحانه، فحسن الظن بالله تعالى من حسن العبادة، فما من عبد مؤمن يحسن الظن بالله عز وجل إلا أعطاه الله عز وجل ظنه؛ ذلك لأن الخير منه وإليه سبحانه " **فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له، يكون توكلك عليه، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله**"[1].

" وحسن الظن كذلك إن حمل على العمل وحث عليه ساق إليه فهو صحيح، وحسن الظن: هو رجاء بالله تعالى فمن كان رجاؤه هاديا له إلى الطاعة وزاجرا له عن المعصية: فهو رجاء صحيح، والرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه، وقدره، وثوابه، وكرامته، فيأتي العبد بها، ثم يحسن ظنه بربه، ويرجوه أن لايكله إليها، وأن يجعلها موصلة إلى ماينفعه ويضرب عما يعارضها، ويبطل أثرها"[2].

فالله تعالى يعلم من النفس استيقانها، من نبل، وطهارة القصد فينفذ مشيئته الخيرة لعلمه بالنية الطيبة، والعزم على الطاعة، والتوجه إلى الله في خلوص، وماحسن الظن إلا برهان على سلامة القلب وطهارة النفس، فمن جمع وقرن بين التوكل وحسن الظن بالله فقد ينعم ويحظى صاحبه بمحبة الرحمن، ويتحقق له مزية مزيكمال الإيمان، وعلامة حسن الخاتمة للأعمال.

---

(١) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، (٢/١٢٦) .
(٢) انظر: لابن القيم،الداء والدواء، تقديم محمد غازي،(جده: دار المدني، تط ١٤٠٣هـ)، ص٥٤-٥٥.

المبحث الثالث

استسلام العبد وطمأنينته وافتقاره لله سبحانه وتعالى

الاستسلام تذلل وخضوع، وإظهار القبول لطاعة الله، والإذعان لأمره ولما آتى به محمد - ﷺ - .

وما سمي المسلم مسلما إلا لخضوع جوارحه لطاعة ربه الخالق عز وجل، فمشهد الخضوع والافتقار، والتواضع لرب العزة والجلال ضرورة، فسبحانه بيده الصلاح، والفلاح، والهداية، والسعادة.

واستسلام العبد لايكون إلا باستسلام القلب، واللسان، والجوارح " **فكل من سلم لله، واستسلم له وعلم أن ماأصابه لم يكن ليخطئه، وماأخطأه لم يكن ليصيبه، وعلم أن لن يصيبه إلا ماكتب الله له ... فإن نفسه التي يخاف عليها قد سلمها إلى وليها ومولاها**"(١).

فأصل الاستسلام إستقامة القلب على التوحيد، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴾(٣).

فعلى العبد أن يقوم بواجبه تجاه ربه الخالق فيتقيه حق تقواه حتى يتمكن من الثبات على الإسلام، وهو مخلص مفوض أموره إلى الله سبحانه(٤).

---

(١) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، (٢/٣٢).

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٨٣ .

(٤) انظر: للخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، (١/٣٩١)؛ وللشوكاني، فتح القدير، (١/٣٦٧).

قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[١].

" تسليما تاما بظاهرهم وباطنهم يقال سلم الأمر لله واسلم له بمعنى وحقيقته سلم نفسه له وأسلمها إذا جعلها سالمة له خالصة أي ينقادون لحكمك إنقياد الأشبهة فيه بظاهرهم وباطنهم"[٢].

وفي التسليم، والثقة، والتفويض : مافي التوكل من العلل؛ وهو من أعلى درجات سبل العامة، ولايكون الاستسلام إلا بانشراح الصدر، وطمأنينة النفس، والانقياد بالظاهر والباطن، والعمل على قدر القوة، والاشتغال بما ثبت لله تعالى من حكم، فالتحكيم في مقام الإسلام ، وانتفاء الحرج، في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان، فمن استكمل هذه المراتب وكملها فقد استكمل مراتب الدين كلها[٣].

" فلايكفى الإيمان، مالم يصحبه الرضى النفسي، والقبول القلبي، وإسلام القلب، والجنان في إطمئنان"[٤].

ففي قصة أم موسى عبر مستفادة ، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[٥].

---

(١) سورة النساء، آية: ٦٥ .

(٢) انظر: لأبي السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (٥٤٥/١).

(٣) انظر: لابن القيم، مدارج السالكين، (١٥٣/٢)؛ وللسعدي، تيسير الكريم الرحمن...، (٣٩٦/١-٣٩٧).

(٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، (٦٩٧/٢).

(٥) سورة القصص، آية: ٧ .

لقد عرفت الله سبحانه فانقادت، واستسلمت وما ذاك إلا عين ثقتها بالله تعالى، إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها في اليم تتلاعب به أمواجه.

" فالثقة بالله هو خلاصة التوكل ولبه......والتفويض: ألطف إشارة، وأوسع معنى من التوكل، فإن التوكل بعد وقوع السبب، والتفويض قبل وقوعه وبعده، وهو عين الاستسلام والتوكل شعبة منه"(١).

قال تعالى﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾(٢) .

أتوكل علي الحي لا إله إلا هو وأستعين به واسلم أمري إليه فلا مرد من الله إلا إليه سبحانه، فسبحان المتصرف بخلقه ليبلو صبرهم واستسلامهم، ويظهر معادنهم، وجواهرهم في الابتلاء.

قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(٣).

فإخلاص العبادة والدين لله والخضوع والتواضع له هي من أصل الإسلام؛ لأن إسلام النفس لطاعة الله لايكون إلا بالانقياد والخضوع وإذلال النفس في طاعته وتجنب معاصيه، وفي ذلك دلالة على أن المرء لاينتفع بعمله إلا إذا فعله على وجه العبادة والإخلاص والقربة(٤).

وظاهر الآية فيه معنى إسلام الوجه لله تعالى بتوحيده بالعبادة والإخلاص له في العمل، بأن لايجعل بينه وبين الله سبحانه وسطاء يقربونه إليه زلفى، فإنه أقرب من حبل الوريد.

---

(١) انظر: لابن القيم، مدارج السالكين، (٢/١٤٣-١٤٩) .

(٢) سورة غافر، آية: ٤٤ .

(٣) سورة البقرة، آية: ١١٢ .

(٤) انظر: للبغوي، معالم التنزيل، (١/١٤٠).

ومن هنا تتقرر قاعدة من أخلص ذاته كلها لله، ووجه مشاعره كلها إليه، وخلص لله في مقابل خلوص الآخر، فهنا تبرز سمة الإسلام الأولى: إسلام الوجه.

والوجه رمز على الكل، ولفظ أسلم بمعنى الاستسلام والتسليم. الاستسلام المعنوي، والتسليم العملي، ومع هذا فلابد من العقيدة والعمل، بين الإيمان القلبي، والإحسان العملي، وبذلك تستحيل العقيدة منهجا للحياة كلها، وبذلك تتوحد الشخصية الإنسانية بكل نشاطها واتجاهاتها، وبذلك يستحق المؤمن هذا العطاء كله { فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } ويكون الاستسلام كذلك بالفعل الحسن الممدوح لا بالفعل القبيح المذموم(١).

فكل من أسلم واستسلم لله كان له من الأجر والرحمة الكثير، وفي هذا المعنى قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾(٢).

فالآية الكريمة توطين للنفس على احتمال المكاره بعد أن يكون المرء متوكلا على الله في أعماله، وترك كل شيء بعد العمل لتجري الأمور حسب مقادير، ومشيئة الله تعالى، إن في التوكل على الله يأتي معنى الصبر الذي نلمحه في بحر الدنيا ونرى كيف تتلقى الأمواج، والمؤمن يتعلم كيف يصبر على مدافعه الأمواج، والأيام عند نزولها بالبلاء. فمن يعرف كيفية جريان الأقدار يثبت لها، وليتذوق من هنا طعم الصبر، وتظهر ملكة الثبات، وتحمل المشاق ومصارعة الشدائد بالتوكل على الله، فيكسب المرء من ذلك قوة في النفس، ورباطة الجأش، وماهذا إلا دليل

---

(١) انظر: لمحمد رشيد رضا، تفسير المنار، (٤٢٦/١)؛ ولسيد قطب، في ظلال القرآن، (٩٨/١).

(٢) سورة البقرة، آية: ١٥٥-١٥٧.

على تمكن التوكل من القلب وحب العقيدة، والصبر عليها، وعلى تكاليفها حتى الممات " **فكلنا لله ... كل مافينا .... كل كياننا وذاتيتنا ... لله .... وإليه المرجع والمآب في كل أمر، وفي كل مصير، والتسليم المطلق، تسليم الالتجاء الأخير المنبثق من الالتقاء وجها لوجه، بالحقيقة الوحيدة، وبالتصور الصحيح**"(١).

فبالصبر والاستسلام والتواضع ينبثق وينبعث التوكل على الله في المرء المؤمن.

لن يكون المؤمن مؤمنا إلا بعد انقياده وإذعانه باطنا وظاهرا لحكم وقضاء الله تعالى.

فالاستسلام يعد من الإيمان ويتبع الإيمان أمور كثيرة، منها توكل العبد على ربه والمضي فيما قدره له، والمؤمن هو من يرضى ويكون تحت مشيئة الله تعالى، قال سبحانه:﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾(٢).

فمن أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله، وأقواله، وهذا ماأمرنا به، وكان حتما علينا الامتثال به، والاستسلام والتسليم لذلك(٣).

فهذا الإخلاص لايأتي إلا بالاستسلام لله تعالى والإذعان له طوعا أو كرها، وبالاستسلام ينال المرء عاقبة أمره الحسنة بما قام به من الطاعة، والإذعان، والامتثال.

---

(١) انظر لسيد قطب، في ظلال القرآن، (١/١٣٩).
(٢) سورة الأنعام، آية: ١٦٢-١٦٣.
(٣) انظر: للسعدي، تيسير الكريم الرحمن، (٢/٩٧) .

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[١].

فمن يخلص وجهه لله بانقياده لأمره وإتباعه لشرعه، وهو محسن في عمله باتباع مابه أمر، وترك ماعنه زجر (فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ) أي تمسك وتعلق (بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ) ..... فقد أخذ موثقا من الله مثبتا أنه لايعذبه..... فمن يفوض أمره إلى الله، ويتوكل عليه، وهو محسن بعمله فإنه متمسك بالعروة الوثقى[٢].

فالمؤمن عليه، وينبغي له الانقياد والاستسلام لأوامر الله وطاعته سبحانه في العسر واليسر؛ لأن جميع الأمور صائرة إلى الله فيجازى عليها فلاسعادة للعبد إلا بخضوعه لربه، وفي هذا عبادة لله تعالى، فكل من سلم نفسه لله خالصا نجا لأن العمل الخالص لوجه الله تعالى سبب للثواب .

فالإقبال والإخلاص لدين الله تعالى هو الطرف الأوثق فلا يخاف بعد ذلك المؤمن انقطاعا، لأنه متمسك بالعهد الأوثق .

" فينبغي أن يكون العبد بين يدى الله كالميت بين يدى الغاسل، يقلبه كيف أراد لايكون له حركة ولاتدبير، وهذا معنى قولهم: التوكل إسقاط التدبير، يعني الاستسلام لتدبير الرب لك، وهذا في غير باب الأمر والنهي، بل فيما يفعله بك، لا فيما أمرك بفعله فالاستسلام كتسليم العبد الذليل نفسه لسيده، وانقياده له، وترك منازعات نفسه،وإرادتها مع سيده، والله سبحانه وتعالى أعلم"[٣].

---

(١) سورة لقمان، آية: ٢٢ .

(٢) انظر لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٣/٧١٧)؛ وانظر: لسعيد حوى، الأساس في التفسير، (٨/٤٣٣).

(٣) انظر لابن القيم، مدارج السالكين، (٢/١٢٧) .



وخلاصة القول فإن المستسلم المفوض أمــوره كلـها إلـى الله قـد تعلـق بـأوثق الأسباب التي توصل إلى رضوان الله ومحبته، وحسن جزائه علـى مـاقدم مـن عمل صالح، فيجازي المتوكل عليه أحسن الجزاء ويعاقب المسيء بـأنكل عـذاب، فـالمراد من الاستسلام والانقياد والخضوع هو التوكل عليه سبحانه والتفويض إليه .

المبحث الرابع

حسن جزاء المتوكلين

إن جميع الصفات التي أمرنا الله بها هي مما يحبها الله ويرضاها لعباده المؤمنين، وهي صفات تميز المؤمنين عن غيرهم لذلك ينبغي أن يحرص عليها المؤمن في كل أمر، ومانحن بصدد ذكره من الصفات هي صفة التوكل على الله. فالتوكل هو أحد الأسباب التي يستحق العبد بها التفضيل ورفع الدرجات.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[1].

" فعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال نبي الله ﷺ: " يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب " قالوا: ومن هم يارسول الله؟ قال " هم الذين لايكتوون ولايسترقون، وعلى ربهم يتوكلون " فقام عكاشة فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال "أنت منهم" فقال رجل آخر فقال: ادع الله لي يارسول الله فقال "سبقك بها عكاشة" "[2].

فالإخلاص في التحلي بهذه الصفة العظيمة، والخلق الكريم من الأسباب الفاعلة في حصول النتائج الخيرة، فمن حقق التوكل على الله في ذاته، سيحقق وينال جزاءات عظيمة من هذه الجزاءات :

١ - رضوان الله تعالى على العبد المؤمن المتوكل عليه حق توكله ، قال تعالى :﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢ .

(٢) صحيح البخاري، كتاب الطب، حديث رقم(٥٧٠٥)، والفتح، كتاب الطب، باب ١٧، الرقاق، باب ٥٠، ومسلم في الإيمان، في الجنة حديث (٣٧١-٣٧٢) وفي الحج حديث ١٦٧.

مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾[١].

فكل من استجاب لله وللرسول بعزم، ورجى ثواب الله توكل على الله ورضى به كافيا ومعينا فله الأجر العظيم لايحجبه عنه ماكان منه من نقص، وقد تفضل الله بالتوفيق والرضى إذا مااستجاب لأمره ونهيه[٢].

فالصادقون في الاستجابة لله تعالى ولرسوله ﷺ والمتوكلون على الله حق توكله يحصلون على النعيمين الجثماني والروحاني، وذلك هو الفوز البالغ الغاية؛ لأن الفوز هو الظفر بالمطلوب مع النجاة فالرضا من الله غاية السعادة الأبدية، إذ لامطلب للمؤمن أعلى منه حتى تمتد عنقه إليه وتتطلع نفسه لبلوغه[٣]. وهذا مانجده في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[٤].

" لقد صدق المؤمن في توكله فصدقه هذا ينفعه يوم القيامة، وذلك النفع هو الثواب، وحقيقة هذا الثواب: أنه منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم منفعة خالصة من الغموم والهموم"[٥].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[٦].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٧٣-١٧٤.
(٢) انظر: للرازي، مفاتيح الغيب، (٩-١٠/١٠٤).
(٣) انظر: للمراغي، تفسير المراغي، (٣/٦٦) .
(٤) سورة المائدة، آية: ١١٩ .
(٥) انظر للرازي، مفاتيح الغيب، مج٦، (١١-١٢/١٤٧) .
(٦) سورة التوبة، آية: ١٠٠ .

إن أعمال السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لما كانت موافقة لما شرع الله وبين رسوله - ﷺ - استحقوا على ذلك رضي الله تعالى عنهم جميعا لصلاح أعمالهم وكثرة طاعاتهم ودلت الآية على أن من اتبعهم إنما يستحقون الرضوان والثواب(١).

إن المؤمن إذا لزم محبوبات الحق سبحانه ولزم مايرضي الله من امتثال أوامره واجتناب نواهيه فإن الله يرضى عنه لاسيما إذا قام بالإخلاص والصدق فيها وبذل الجهد في التقرب إلى الله تعالى ومن محبوباته سبحانه التوكل عليه بصدق وقد بذل السابقون وبايعوا رسول الله - ﷺ - على الصدق والإخلاص فنالوا بذلك رضوان الله تعالى؛ لأنهم انقادوا واستسلموا لله وللرسول ورضوا بربوبيته وإفراده بالتوكل، والاستعانة به والثقة به.

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾(٢).

" فالله تعالى يخبر عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا تحت الشجرة بيعة الرضوان، فقد علم مافي قلوبهم من الصدق والطاعة، فأعطاهم جزاء ماوهبوه من الطاعة الرضا والفتح"(٣).

٢ - ومن الجزاءات حب الله تعالى للمؤمن، قال سبحانه:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾(٤)، هذا والله أعظم باعث للعبد حتى يتوكل على ربه، ويجعله مرتبطا تمام الارتباط بربه فمن ينال محبة الله نال الدنيا والآخرة.

---

(١) أبوبكر الجزائري، أيسر التفاسير، (٤٢٠/٢).
(٢) سورة الفتح، آية: ١٨ .
(٣) انظر: المراغي، تفسيره، (١٠٢/٩).
(٤) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **"إن الله تعالى قال: من عاد لي وليا فقد آذنته بالحرب، وماتقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ومازال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه، وماترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته"**[(١)].

إن حب الله تعالى للعبد يجعله في استقرار واطمئنان وسكون، ويجعله منقطعا عن العلائق الدنيوية، وبالتالي يكون المؤمن متصلا بالله وذلك بالعمل بأمره ونهيه ومحبا لله يهب نفسه وإرادته وعزيمته وأفعاله كلها لله تعالى، فمن كان كذلك ارتبطت ذاتيته ونفسه بحبل الله فيحصل له من الرحمة والإحسان والبر أتم نصيب، وقد ذكر في تفسير الآية السابقة أن المتوكلين عليه هم الواثقون به المنقطعون إليه فينصرهم ويرشدهم إلى ماهو خير لهم كما تقتضيه المحبة[(٢)].

" والغرض من المحبة ترغيب المكلفين في الرجوع إلى الله تعالى والإعراض عن كل ماسوى الله"[(٣)].

إن صفتي الرجوع إلى الله، والإعراض عن كل ماسوى الله هي صفات تجعل العبد المتمسك بها داخل فيمن يحبهم الله ويرضاه بدلالة الآيات القرآنية .

فالمحب الصادق لله ينطق بالله، ويسكت لله، ويفعل لله، ويترك لله، ويستعين بالله، ويتوكل على الله، ويعتصم بالله، ويحب في الله، ويبغض لله، وبعد هذا كله يرى البر به والإحسان إليه، والدفاع عنه، وإيصال المنافع ودفع المضار عنه في الدين والدنيا من قبل الجواد الكريم سبحانه.

---

(١) سبق تخريجه، ص ١١٢.

(٢) انظر: للمراغي، تفسيره، (١١٦/٢).

(٣) انظر: للرازي، مفاتيح الغيب، (٩-٧٠/١٠) .

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ۝ ﴾(١).

الآية الكريمة متضمنة معنى " **أن من إمارات محبة الله تعالى للعبد أن يرى العبد مهديا مسددا ذا قبول في الله، فلطف الله بالعبد ورحمته إياه هي ثمرة محبته**"(٢).

فمحبة الله تعالى للعبد تأتي بعد طاعته واتباع رسوله، " **والله تعالى يحب كل من أطاعه، لأن المحبة توجب الإقبال بالكلية على المحبوب والإعراض بالكلية من غير المحبوب**"(٣).

فكل من يدخل تحت محبة الله تعالى يكون في ظل ظليل يوم لاظل إلا ظله، وجزاء عظيم كبير، ويكفينا من محبة الله "**حسن التدبير للعبد، يربيه تعالى من الطفولة على أحسن نظام، ويكتب الإيمان في قلبه، وينور له عقله، فيتبع كل مايقربه، وينفر عن كل مايبعد عنه، ثم يتولاه بتيسير أموره، من غير ذل للخلق، ويسدد ظاهره وباطنه، ويجعل همه هما واحدا،فإذا زادت المحبة، شغله به عن كل شيء**"(٤).

ومتى ظفر المؤمن بحب الله له سكن لأقدار الله وطابت نفسه بها؛ لأنه سبحانه لاينزل بشيء يضر عبده المؤمن، وإذا نزل مايكرهه المؤمن كان خيرا له، فسبحانه تولى تدبير أمور المؤمن بموجب علمه، وحكمته، ورحمته، ومحبته فليرض المؤمن بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، فقضاء الله في عبده

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٣١-٣٢.

(٢) انظر: لابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق، المجلس العلمي (المغرب، فاس بدون تط)، (٣٨٧/٢) .

(٣) انظر: للرازي، مفاتيح الغيب، (٧-١٩/٨) .

(٤) انظر: للمقدسي، مختصر منهاج القاصدين، ص٣٤٩ .

المؤمن دائر بين العدل، والحكمة، والرحمة، ولنعلم يقينا أن المكروهات والمحبوبات التي تنزل فيها من ضروب المصالح والمنافع التي لانحصيها علما، ولافكرا.

فلنتوكل على الله في أمورنا كلها ونعتصم برب العباد؛ لأن التوكل له مقام جليل القدر، عظيم الأثر، أمر الله عباده به، وحثهم عليه، في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، وجعله الله سببا لنيل محبته، وشرطا للإيمان، فأنعم بمقام يحظى صاحبه بمحبة الرحمن، ويتحقق به، كمال الإيمان وضمن سبحانه لمن توكل عليه القيام بأمره،وكفايته همه حيث قال سبحانه:﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٢].

فأي عزيز هو سبحانه الذي لايذل من استجار به، ولايضيع من لاذ بجنابه.

" إن القلب كلما ازداد محبة لله ازداد في العبودية؛ لأن القلب فقير بالذات إلى الله من وجهين: من جهة العبادة وهي العلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل، وهي العلة الفاعلة، فالقلب لايصح، ولايفلح، ولاينعم، ولايسر، ولايلتذ، ولايطيب، ولايسكن، ولايطمئن، إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة، ولو حصل له كل مايلتذ به من المخلوقات، لم يطمئن ولم يسكن إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه، من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور، واللذة، والنعمة، والسكون، والطمأنينة"[٣].

فما من عمل ارتبط بالنواحي الأخلاقية أو الاجتماعية أو السياسية ...الخ إلا وله جزاء ذكره الله ورسوله ﷺ، وهذا له أثر عظيم في السلوك الأخلاقي فيتكون

---

(١) سورة الطلاق، آية: ٣ .

(٢) سورة الأنفال، آية: ٤٩ .

(٣) انظر: لشيخ الإسلام ابن تيمية، العبودية، (بيروت: المكتب الإسلامي، تـط ١٣٩٩هـ)، ص١٠٨.

بذلك الدافع القوي إلى الالتزام بتلك الفضيلة من الآخلاق لاسيما إذا كان هذا الخلق هو التوكل على الله فهو كنز ثمين، ومكسب عظيم لايقدره إلا من عرف حقيقته، وعمل بها، قال تعالى:﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[1].

" فكل من فوض أمره ووثق بربه كفاه أعداءه فهو قادر على ايقاع الجزاء بهم"[2].

وقال تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾[3].

فينبغي التوكل على الله في الأمور كلها حتى ننال بذلك الجزاء والثواب؛ لأن التوكل كذلك وظيفة من وظائف القلب، وسلوك نفسي يقتضيه الإيمان الصحيح، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[4].

فهذا أمر من الله بالتوكل عليه وحده، ومامن عبد توكل على الله إلا ونال مطلبه ومناه إن عاجلا أو آجلا، فها هما رجلا بني إسرائيل آمنا وأدركا أن التوكل على الله يعين على معارك القتال، وأنهما إذا دخلا الأرض المقدسة متوكلين على الله ينصرهم على عدوهم لامحالة حيث قال تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[5].

(فهذان الرجلان قد علما من سنته تعالى في نصره رسله وماعهدا من صنعه تعالى لموسى عليه السلام من قهر أعدائه، فبعد ترتيب الأسباب، وعدم الاعتماد عليها، فإنها بمعزل من التأثير وإنما التأثير من عند الله العزيز القدير فإن كنتم مؤمنين مصدقين لوعده، فإن ذلك مما يوجب التوكل عليه حتما"[6].

---

(١) سورة النساء، آية: ١٧١-١٨١ .

(٢) انظر: للمراغي، تفسيره، (١٠٢/٢).

(٣) سورة الإسراء، آية: ٦٥ .

(٤) سورة التغابن، آية: ١٣ .

(٥) سورة المائدة، آية: ٢٣ .

(٦) انظر: لأبي حيان، البحر المحيط، (٢٧/٢) .

فهذا الموقف العظيم من الرجلين اجتمعت فيه العبرة النفسية إلى الجمال الفني على طريقة القرآن، فهل لنا من ذلك دروس مستفادة من دعوة إلى الالتجاء والاستسلام، ومافيها من المفاصلة، والحسم، والتصميم لذلك، فالقرآن الكريم رتب للتوكل على الله نتائج وجزاءات يقينية من سلكه رشد ورسخ فيه جذور التوكل على الله وتمكن منه، فيثمر بذلك ثمارا يانعة، ويعطي ظلالا باردة، وهذا مافهمه السلف الصالح، وعملوا به رضي الله عنهم وأرضاهم، فأحبهم الله ورضي عنهم فحبه ورضوانه أمران عظيمان وفضل جزيل لايقدر على فعله إلا رب رحيم حليم.

الفصل الخامس

موانـع التوكـل عـلى الله

وفيـه :

تمهيد .

المبحث الأول: الجهل بأسماء الله وصفاته سبحانه .

المبحث الثاني: ضعف اليقين بالله تعالى .

المبحث الثالث: التكبر على آيات الله .

المبحث الرابع: الغرور والعجب بالنفس .

المبحث الخامس: الهوى والشهوات .

الفصل الخامس

موانع التوكل على الله

التمهيد:

إن الموانع المذكورة في هذا الفصل، هي حواجز تجعل من العبد سكونا، وكفا وتمنعا. وهي أمور مذمومة شرعا لدرجة أن منها مايؤدي إلى الكفر والشرك بالله تعالى.

واقتضت الحكمة الإلهية أن يجعل للبشرية - خاصة المؤمنة منها - أعداءً من شياطين الجن يوسوسون لشياطين الإنس بالضلال والشر والأباطيل؛ ليضلوهم، ويصدوهم عن التوحيد.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾[1].

ولهذه الموانع المذكورة مفاسد، وأضرار كثيرة في حياة الفرد والمجتمع أهمها:

١- إهانة الإنسان وانحطاط قدره ومنزلته إذا سأل أحداً غير الله تعالى، فسبحانه له مافي السماوات، وما في الأرض.

٢- أنها وكر للخرافات والأباطيل؛ لأنه بضعف يقينه وثقته بالله تعالى يعتقد بوجود مؤثر غير الله في الكون من الكواكب أو الجن أو الأرواح فيصبح عقله مستعداً لكل خرافة، وتصديق لكل دجال، وعلى هذا يروج في المجتمع بضاعة الكهنة والدجالين، والعرافين، والسحرة، والمنجمين.

٣- ظلم الإنسان لنفسه، وهذا من تكبره على آيات الله تعالى فيظلم أعظم الحقائق، حقيقة لا إله إلا الله، ولارب غيره، ولاحُكم لسواه، فبغرور الإنسان وعجبه بنفسه يسعى في الأرض فساداً.

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١١٢.

٤- يتعطل العمل النافع الصالح؛ لأنه يتبع هواه وشهواته.

فهذه من أهم الأضرار الناتجة من تلك الحواجز المانعة عن التوكل على الله.

والسلف الصالح من الدعاة إلى الله، والمصلحون شاهدوا وواجهوا حالات خطيرة للضعف الذي أصاب الأمة الإسلامية ، فكان من اللازم تزكيتها، فالقلب قسا وكثرت أمراضه، وإذا كان من الآثار المباشرة لهذا المرض الجهل بأسماء الله، وضعف اليقين به تعالى، والتكبر على آياته، والغرور والعجب بالنفس، واتباع الهوى والشهوات، فهذه أمور خطيرة للسير قدما للأمام، فأصبح التركيز على هذه المعاني واجبا على الذين يريدون الإصلاح لهذه الحياة الفردية والجماعية[١].

فالله تعالى ذم الجاهلين في كتابه العزيز حيث قال: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾[٢].

أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة الصم عن سماع الحق، البكم عن فهمه، فهم لايعقلون فهؤلاء شر البرية؛ لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا، ولهذا شبههم بالأنعام. فهؤلاء مسلوبو الفهم الصحيح والقصد إلى العمل الصالح[٣].

وضعف اليقين والثقة بالله تعالى تقود العبد إلى ضعف الإيمان فيقترب المرء بذلك من الهاوية. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴾[٤].

والمعنى أنهم غير متحققين من ذلك الوعد وتلك الساعة[٥].

---

(١) انظر: لسعيد حوى، المستخلص في تزكية النفس (بيروت: دار عمار)، ص١٣.
(٢) سورة الأنفال، آية: ٢٢.
(٣) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٤٦٨/٢).
(٤) سورة الجاثية، آية: ٣٢.
(٥) انظر: لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٢٣٣/٤).

والتكبر على الله تعالى خلق يجر صاحبه إلى الهلاك، فهو آفة عظيمة وحجاب دون الجنة، قال تعالى: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴾[1].

" فالكبر خلق باطن تصدر منه أعمال هي ثمرته، فيظهر على الجوارح، وذلك الخلق هو رؤية النفس على المتكبر عليه يعني يرى نفسه فوق غيره في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبرا"[2].

والغرور والعجب بالنفس، واتباع الهوى والشهوات، تفضي إلى تعدي حدود الله والجرأة على عصيانه، ويطمع العبد متبجحا في عفوه مستصغرا للكبائر.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ ﴾[3].

وقال تعالى : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴾[4].

فالحذر الحذر من الإعجاب واتباع الهوى فهما من أعظم الآفات والمحبطات للأعمال، فالمؤمن الحق هو من يستحضر عظمة الله في نفسه في كل وقت، وهذا هو السبب الموجب، لخشية الله في السر كما يخشى في العلن، فإن من علم أن الله يراه حيث كان، وأنه سبحانه مطلع على الباطن والظاهر والسر والعلن، واستحضر ذلك دائما في كل وقت وحين فحينئذ يجتهد العبد لتكميل نفسه بالطاعات، ولزومها،

---

(١) سورة النحل، آية: ٢٣ .
(٢) انظر: المقدسي، مختصر منهاج القاصدين، كتاب ذم الكبر والعجب، ص ٢٢٧.
(٣) سورة الانفطار، آية: ٦ – ٨ .
(٤) سورة ص، آية: ٢٦ .

والابتعاد عن كل مايغضب الجبار، فالإسلام جاء ليطهر النفس وجاء بعقيدة التوحيد النقية الصافية حتى لاتنحط النفوس وتخرج من ظلمة الضلالة والجهل، ويرفعها من وهدة الشرك، ويطهرها، ويهذب النفس فإذا صحت العقيدة، سلمت النفس، وكمل الإيمان؛ لأن النفوس مرآة لكل حق، وتضيء ماحولها بحيث تنفع كل من دنى منها، والإسلام حريص على النفوس المؤمنة الصادقة، فكره لهم أن ينحطوا في الاعتقاد كما أنحط أعداء الإسلام، وأراد لهم التطهر مما انغمس فيه الكفار فالموانع ذنوب تجعل صاحبها مخالفا للمأمورات، وفاعلا للمحظورات، وبهذا يبعد العبد المؤمن عن نور الإسلام شيئا فشيئا، وينغمس في هذه المحظورات التي تحرم نور العلم، وتحرم الرزق، وتحرم الطاعة، وتوهن القلب، والبدن، وتورث الذل، وتحدث في الأرض الفساد.

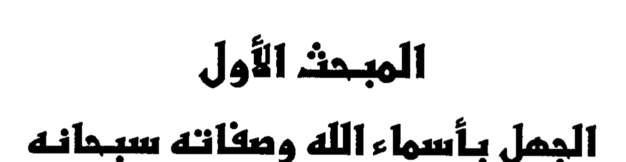
قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[١].

وتزيل النعم، وتحل النقم، فلابد من تقوى الله التي تجمع بين خير الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[٢].

---

(١) سورة الروم، آية: ٤١ .

(٢) سورة النحل، آية: ١٢٨ .



المبحث الأول

الجهل بأسماء الله وصفاته سبحانه

لقد بين الله سبحانه لعباده حقيقة الإيمان الذي تقبل به الأعمال، ويتحقق به ماوعد الله به المؤمنين.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[1].

فالإيمان المقبول هو الاعتقاد الذي لايخالطه ريب ولا شائبة، فالإيمان يزيد وينقص، ولابد أن نفوز بتحقيق الإيمان وأن نقيمه، وهذا يحتاج إلى المزيد من إصلاح القلوب وتنقيتها من الأمراض الصادة عن الهدى، وإذا أراد العبد إيمانا صحيحا فعليه بالعلم والمعرفة .

إن الجهل بأسماء الله وصفاته أمر مذموم غير ممدوح، حذر القرآن الكريم منه حيث، قال سبحانه:﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2].

فالتحريف والميل بأسمائه إلى غير الصواب لهي من الجهل لامن العلم بمكان، فالجهل نقيض العلم[3]، والجهل اعتقاد بالشيء خلاف ماهو عليه[4].

إن جهل أسماء الله وصفاته سبحانه قريبة بمن يعطلها عن معانيها، ويجحد حقائقها، ومن هؤلاء الغالي، والمتوسط، والمنكوب، ومن يشبهها بصفات خلقه تعالى الله عما يقول المشبهون، فلا ينبغي للعبد تأويل هذه الأسماء والصفات عن

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٥ .

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٨٠

(٣) انظر: لابن منظور، لسان العرب، (٧١٣/٢).

(٤) انظر: للجرجاني، التعريفات، ص ١٠٨، رقم ٥١٧ .

ظاهر الآيات والأحاديث الصحيحة إلى معنى آخر، ولاتعطيلها بأن يجحد تلك الصفات وينفيها عن الله كعلو الله على السماء، فقد زعمت الفرق الضالة أن الله في كل مكان، وليس لنا أن نكيفها بدون علم، فلا يعلم كيفيتها أحد إلا الله، ولاينبغي أن نمثلها بصفات خلقه.

فالجهل علامة من علامات مرض القلوب فإذا جهل العبد أسماء وصفات خالقه تعذر عليه فعل الذي لأجله خلق وهو العلم، والحكمة والمعرفة، وحب الله تعالى، واستعانته، وإنابته، وتوكله " **فمن الجهل أن يشكو العبد الله إلى الناس، وهذا غاية الجهل، فإنه لو عرف ربه لما شكاه وفي هذا قيل:**

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما ** تشكو الرحيم إلى الذي لايرحم

فلو كان عارفا عالما لشكى إلى الله وحده، فهو بذلك ناظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾[1])[2].

فتوحيد الله بأسمائه وصفاته دعت إليه الرسل جميعا، ودعا إليه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ ﴾[3]، وكذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد، وشهدت به ملائكته، وأنبياؤه، ورسله.

قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ... ۝١٩ ﴾[4].

" فتضمنت هذه الآية الكريمة معنى إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع طوائف الضلال، فتضمنت أجل شهادة، وأعظمها، وأعدلها، وأصدقها، من أجل شاهد بأجل مشهود"[5].

---

(١) سورة الشورى، آية: ٣٠ .
(٢) انظر: لابن قيم الجوزيه، الفوائد، ص ١١٤ .
(٣) سورة آل عمران، آية: ١-٢.
(٤) سورة آل عمران، آية: ١٨-١٩.
(٥) انظر: لابن أبي العز الحنفي، شرح العقدية الطحاوية، ص٩٠.

فالجاهل ظالم لنفسه، إذ أنه يتخبط في سؤال من يستحق السؤال فإذا ترك سؤال من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فقد أقام السائل نفسه مقام الذل، وأهانها بذلك، وإذا استعان بغير العلي القدير دفع نفسه للهوان والمذلة، والمضرة؛ لأنه تعالى القادر على كل شيء، وغيره عاجز عن كل شيء، وأي شيء حتى في استجلاب المصالح لنفسه.

" ذكر أبو قدامة الرملي[1] قال: قرأ رجل هذه الآية ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٩ ﴾[2]، **فأقبل سليمان الخواص[3]، فقال يا أبا قدامة ماينبغي لعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله في أمره، ثم قال: كيف قال الله تبارك وتعالى:** {وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ} **فأعلمك أنه لايموت، وأن جميع خلقه يموتون، ثم أمرك بعبادته، فقال وسبح بحمده، ثم أخبرك أنه خبير بصير، ثم قال: والله يا أبا قدامة لو عامل عبد الله بحسن التوكل، وصدق النية له بطاعته، لاحتاجت إليه الأمراء فمن دونهم، فكيف، يكون هذا محتاجا، ومؤمله، وملجؤه، إلى الغني الحميد"**[4].

فالمؤمن ينبغي أن يكون متوكلا على الله الحي الذي لايموت في أموره، وشؤونه جميعها دقها، وجلها.

---

(١) أبوقدامة الرملي عن عبدالعزيز بن قر، مجهول، وأتى بخبر منكر. انظر: ميزان الاعتدال ترجمة رقم (١٠٥٣٠).

(٢) سورة الفرقان، آية: ٥٨-٥٩.

(٣) سليمان الخواص من العابدين الكبار بالشام؛ انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، (١٧٨/٨) ترجمة ٢٣٥؛ وحلية الأولياء للأصبهاني، (٢٧٦/٨)، ترجمة ٤٠٧.

(٤) انظر: لابن أبي الدنيا، التوكل على الله، تحقيق مجدى إبراهيم، (القاهرة: مكتبة القرآن، بدون تط، ص٤٨.



" والجهال بالله وأسمائه وصفاته المعطلون لحقائقها يبغضون الله إلى خلقه، ويقطعون عليهم طريق محبته، والتودد إليه بطاعته من حيث لايعلمون "[1].

فالعبد عليه أن يعرف الله ربه المعرفة الحقة، ويجهد نفسه في ذلك من خلال مطالعة الكتاب والسنة، فمثلا لو أخذ العبد اسم (الرحمن) للاحظ أن الله تعالى رحيم رحمان بعباده أنزل الرسل مبشرين، ومنذرين، معرفين، هاديين مهديين موحدين نزلوا جميعهم وأرسلوا ليعرفوا الناس بالإله الواحد الرحمن الرحيم. قال تعالى: ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ ﴾[2].

فالنعم، والإحسان، كلها من آثار رحمته، وجوده، وخيرات الدنيا والآخرة كلها من آثار رحمته " **فسبحانه المنعم بجلائل النعم، ودقائقها، المفيض بتجدد وسعة لامنتهى لهما**"[3].

فالرحمن " اسم دال على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين، لأنبيائه ورسله. فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم، فله نصيب منها"[4].

فالله تعالى يرحم عباده الغافلين اللاهين فيرشدهم ويلهمهم طريق الرشاد والنصح بأفضل طريقه، وأن ينظر سبحانه بعين الرحمة لعباده العصاة، فينور لهم طريق الحق والصواب، ويعين عبده المؤمن لينال الكمالات بأن يعرفه بنفسه وبصفاته وأسمائه وآلائه، ويبين له كل ما يحتاجه إليه من مصالح دينه ودنياه، ويدفع عنه كل نقمة .

ومن هنا فإذا علم العبد أن مابه وبالعباد من نعمة، فمن الله، علم أن الله هو المستحق لجميع أنواع العبادة، وأن يفرد بالمحبة والخوف، والرجاء، والتعظيم،

---

(١) انظر: لابن قيم الجوزية، الفوائد، ص٢٠٧ .

(٢) سورة البقرة، آية: ١٦٣.

(٣) انظر: لمحمد رشيد رضا، تفسير المنار، (٥١/١).

(٤) انظر: للسعدي، تيسير الكريم الرحمن..، (٣١/١).

والتوكل، وغير ذلك من أنواع الطاعات، ويعلم بذلك العبد أن الله رحمن رحيم عزيز غالب، ولن يكون بعد هذا مطلب للمؤمن إلا الحصول على رضا الرحمن، والعمل بطاعته، ومايتحقق ذلك إلا بمعرفة العبد أن الأمور كلها بيد الله، ولن يعول على سواه؛ لأنه الإله الخالق ذو العبودية والألوهية.

قال تعالى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴾[١].

فمن يجهل أسماء الله وصفاته كان عبدا لمخلوق مثله " **وربما صار معتمدا على غير الله فلايبقى معه حقيقة العبادة لله ولا حقيقة التوكل عليه بل فيه شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل على غير الله"**[٢].

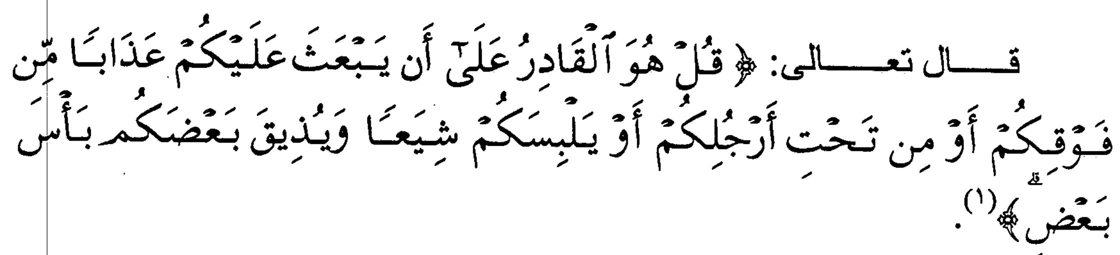
قال تعالى: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾[٣].

علم المؤمنون برحمته بتوصيله للمنافع، وأنه المتصرف وحده، الذي قصد بالخلق معرفته، وعبادته " **ففي ذكر الرحمن هنا إشارة إلى أن أهل الإيمان مرحومون، وفعل الله بالمؤمنين دائما محفوف بالرحمة وذلك أن من أثار رحمته أن جعلهم يتوكلون عليه وأمرهم بالتوكل؛ لأنه سبحانه هو أهل للإيمان به وأهل للتوكل عليه"**[٤].

ولو نظرنا لحال من جهل مقام القوة وعظيم القدرة والغلبة فإن مصيره مصير من قبله من الأمم.

---

(١) سورة المؤمنون، آية: ١١٦ .
(٢) انظر: لابن تيمية، العبودية، ص ١٠٢.
(٣) سورة الملك، آية: ٢٩ .
(٤) انظر: لسعيد حوى، الأساس في التفسير، (٦٠٣٨/١٠).


قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾(١).

فالله قادر على إنزال العذاب كما أنزله على قوم نوح، والصيحة كما حصب قوم لوط، وكما رمى أصحاب الفيل، وكما زلزل وخسف بقارون فكل شيء دان، وخضع له، وذلت جميع الكائنات فهو الخالق السيد الذي قد كمل في سؤدده.

وأما من جهل افتقاره إلى الله فيحق له عذاب الحريق، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾(٢).

إن جميع الخلق فقراء إلى الله عاجزون، لايملكون لأنفسهم نفعا، ولا ضرا ولاخيرا، ولاشرا، فهو تعالى (الغني) الذي له الغنى التام المطلق من كل الوجوه لايتطرق إليه الفقر أو النقص بوجه من الوجوه، والمخلوقات بأسرها لاتستغني عنه في حال من أحوالها، فهي مفتقرة إليه في إيجادها، وفي بقائها، وفي عملها، وفي كل ماتحتاجه أو تضطر إليه، ومن سعة غناه، أنه لم يتخذ صاحبة، ولا ولدا، ولاشريكا في الملك، ولاوليا من الذل، فهو الغني الذي كمل بنعوته وأوصافه، المغني لجميع مخلوقاته ومن كمال غناه وكرمه أنه يأمر عباده بالسؤال ويعطيهم.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾(٣).

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٦٥ .

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٨١، ١٨٢ .

(٣) سورة البقرة، آية: ١٨٦ .

" ومن كمال غناه سبحانه مايبسطه على أهل الإيمان من عطايـاه مـن النعيم، واللذات والخيرات، والمغني لخلقه، بما أفاض على قلوبهم من المعارف الربانية والحقائق الإيمانية"[1].

إن الله تعالى رزاق كريم رزقه عام لجميـع عبـاده، ولـه سبحان رزق خـاص لخواص خلقـه المؤمنيـن، فكل مايحتاجونـه فـي معاشـهم، وقيامـهم، مسـهل للأبـرار والفجار من الآدميين والجـن والملائكـة، ولكـن مـايخص المؤمـن هـو الـرزق النـافع المستمر نفعه في الدنيا والآخرة وهذا نوعان :

أ ـ رزق القلوب بالعلم والإيمان، فجميـع القلـوب مفتقـرة إلـى هـذا الـرزق، ولـن تغنى إلا إذا كانت عالمة بالحق مريدة له.

ب ـ رزق البدن بالرزق الحلال، فينبغي للمؤمن إذا دعا ربه في حصـول الـرزق أن يستحضر بقلبه الرزقين رزق الهدى والإيمان، ورزق مايصلح البـدن مـن الحلال النافع، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾[2]، وقـال تعـالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّـةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُـهَا ﴾[3].

فالله تعالى سـهل الأرزاق، ودبرهـا، وسـاق إلـى كـل مخلـوق صـغير وكـبير مايحتاجه من القوت، فالله تعالى رزقه لعبـاده مضمـون، ومـاخلق الخلـق إلا لعبادته لا ليرزقوه، فسبحانه ذو القدرة الكاملة، شديد القوة، كثير الرزق[4].

فكل من طلب الرزق، والعون من غير الله، فقد اعتمد على ضعيف ذليل مثله لاينفعه، ولايضره، وإن اعتقـد ذلـك، فسـبحانه لاينبغـي أن يدعـى سـواه، ولايرجـى، ولايطلـب، ولايتوكـل إلا عليـه؛ لأن مـن نرجـوه، ونخافـه، ونتوكـل عليـه هـو القيـم

---

(١) انظر: لعبدالرحمن السعدي، الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين مـن الكافية الشافية، ص ٤٧-٤٨ .

(٢) سورة الذاريات، آية: ٥٨ .

(٣) سورة هود، آية: ٦ .

(٤) انظر: لسعيد حوى، الأساس في التفسير، مج(٥٥٢٤/١٠، ٥٥٢٥)؛ وللسعدي، تيسير الكريم الرحمن، (١٠٩/٥).

والمتولي لتدبير خلقه، فمن اتخذه وكيلا كفاه، فهو الإله الحق كيف لانلتجيء إليه سبحانه! فهو الناصر والرازق.

قال تعالى:﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥۖ ﴾[2].

إن الله تعالى موكول إليه كل شيء له مفاتيح الرزق، والرحمة ويكفي المؤمنين شر من عاداهم[3]، في هذا المعني يقول صاحب تفسير مفاتيح الغيب: " فالأشياء كلها موكولة إليه تعالى فهو القائم بحفظها وتدبيرها من غير منازع، ولامشارك فهو سبحانه يدفع الآفات، ويزيل البليات، ويوصل كل المرادات"[4]، فسبحانه الكافي عباده جميع مايحتاجونه ويضطرون إليه، الكافي كفاية خاصة، من آمن به، وتوكل عليه، واستمد منه حوائج دينه ودنياه، فهل بعد هذا يجهل العبد ألوهية وربوبية الله تعالى بأسمائه، وصفاته العلى، فينبغي ويلزم كل مؤمن أن يحصى أسماء وصفات ربه، فإحصاؤها أصل لسائر العلوم فمن أحصاها أحصى سائر العلوم، فأسماؤه وصفاته سبحانه كلها حسنى وأفعاله كلها خيرات.

فإحصاء المؤمن بمعرفة، وفهم معانيها، والإيمان بها، والثقة بمقتضاها والاستسلام، لما دلت عليه رجاء الفوز برضى الله، ودخول الجنة، وعلى هذا فقد كثر الكلام في معرفة أسماء وصفات الله سبحانه من الفرق الضالة الذين عدلوا بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها.

ومن هنا " **فلايصح التوكل، ولايتصور من فيلسوف ولامن القدرية النفاة القائلين: بأنه يكون في ملكه مالايشاء، ولايستقيم من الجهمية النفاة لصفات الرب جل جلاله، ولايستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات، فأي توكل لمن يعتقد أن الله لايعلم جزئيات العالم سفلية وعلويه؟**

---

(١) سورة الزمر، آية: ٦٢.

(٢) سورة الزمر، آية: ٣٦ .

(٣) انظر: للبغوي، معالم التنزيل، (٥/١٧-٢٦) .

(٤) انظر: للرازي، مفاتيح الغيب، مجلد (١٣-١٤/٢٨).

ولاهو فاعل باختيـاره؟ ولا لـه إرادة، ولامشيئة، ولايقوم بـه صنعـه؟ فكل من كان بالله وصفاته أعلم، وأعـرف: كـان توكلـه أصـح وأقـوى، والله سبحانه وتعالى أعلم"[١].

فـالله تعـالى شـرف الحيـاة بالإيمـان، والحـق أنـه علـى قـدر ذكــاء الشــخص واستنارته، واستقامته، وسوية فطرته، ومدى علمه، يكون رسوخ قدمه في الإيمان.

قال تعــالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٢].

لقد ذم الجهل والجهال فـا" **لجــهل فــي القلــب، كــالنز فــي الأرض يفسـد ماحوله"**[٣].

قال تعـالى:﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[٤]، فـالمعنى أعـرض "عـن المصريـن علـى جهلـهم، فلاتكـافيء السـفهاء بمثـل سـفههم، ولاتمارهم، واحلم عنهم، وأغض مايسوؤك منهم"[٥].

فالجهل بأسماء وصفات الرب تعالى آفة توجب المشقة لصاحبها؛ لأنه يجتـهد ويهم بالعمل، ولكن لايرقى إلى المقصود، أو يقع في المفسدة وهذا كلـه ينقـص كمـال ثمرة الإيمان المنشودة من المؤمن .

والجهال بجهلهم، وعدم معرفتهم وعلمهم، يقررون في أنفسهم أمورا لم يقرها ولم يقلها المصطفـى ﷺ ، ويفـهمون الآثـار بفهمـهم البـاطل المبنـي علـى غير علـم ولاهدى فيفتون، وينصحون بالباطل فيضلون أناس على ذلك .

" عن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: قـال رسـول الله - ﷺ - : " إن الله لايقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض

---

(١) انظر: لابن القيم، مدارج السالكين، (٢/١٢٣).

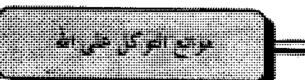
(٢) سورة إبراهيم، آية: ٥٢ .

(٣) انظر:للماوردي،أدب الدنيا والدين،تحقيق:مصطفى السقا(بيروت: تط، ١٩٧٨هـ)، ص٥٠.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٩٩ .

(٥) القاسمي، محاسن التأويل، (٧-٨/٣٢٥).





العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا" "[١].

ولعمر الله العدو العاقل أقل ضررا من الصديق الجاهل؛ لأن العدو معروف بعداوته، أما الصديق الجاهل فلايعرف.

" والجهل بأنواعه ظلمة ووحشة في القلب سواء كان جهل العلم والمعرفة أو جهل العمل والغي"[٢].

والجهل غي خاصة ما إذا كان صاحبه لايعلم بجهله، وشر منه من كان يظن أنه على مافيه عالم، فكل من يحسب أنه على علم وهدى فهو أهل جهل، وضلال، قال تعالى: ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴾[٣].

قال ابن القيم[٤] – رحمه الله تعالى - :

فإن كنت لاتدرى فتلك مصيبة ** أو كنت تدري فالمصيبة أعظم[٥].

فالجهل بأنواعه مورد للمهالك والمصائب، يفسد على المؤمن الدنيا، ويخرب الآخرة، داء فتاك، وشفاؤه بالعلم والسؤال والتعلم من أصحاب العقول النيرة، بالكتاب والسنة، فالعلم للإيمان، كالحياة للإنسان، ولن يجد هذا الدين مستقرا له إلا عند أولو الألباب، قالوا

(**" ومن لم يحتمل ذل التعلم ساعة ** بقي في ذل الجهل أبدا"**)[٦].

فالجهال أعمالهم، وعلومهم جميعها بمنزلة السراب الذي يكون صاحبه أحوج ماهو إليه، فكل من أقدم على عمل، وجهل فيه، فلن يكون خالصا ولن يكون بعمله

---

(١) البخاري، الفتح، ح(١/١٠٠)، كتاب العلم، واللفظ له؛ ومسلم (٢٦٧٣)، (٤/٢٠٥٨) كتاب العلم.

(٢) السيوطي، الأشباه والنظائر، دار الحديث، بدون تط، ص٢٢٠.

(٣) سورة المجادلة، آية: ١٨ .

(٤) سبقت ترجمته .

(٥) ابن قيم الجوزية، حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح (بيروت: دار الكتب العلمية، تط ١٩٨٣هـ)، ص ٣٣ .

(٦) ابن عبدالبر، جامع بيان العلم وفضله، دار الفتح، تط ١٩٧٨م، ح(١/٩٩).



هذا صائبا، وبذلك يكون توكله شائبا، وسعيه منثورا؛ لأنه أعرض عن العلم، والحق، والمعرفة، والنور فيتقلب في جنبات الجهل، والظلمة، ويعرض عن أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، فينبغي للمؤمن أن يستعيذ من الجهل، ويدعو الله أن يلهمه العلم والمعرفة بحقه وبأسمائه وصفاته، فقد كان النبي ﷺ يدعو بهذا الدعاء، **"عن أبي موسى -رضي الله عنه- قال: كان النبي -ﷺ- يدعو: "رب اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري كله، وماأنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي خطاياي وعمدي وجهلي وجدي وكل ذلك عندي، اللهم أغفر لي ماقدمت وماأخرت، وماأسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير"**[1].

---

(١) البخاري، الفتح، ج١١، ح(٦٣٩٨) كتاب الدعوات، واللفظ له ، ومسلم، (٢٠٨٧/٤)، ح(٢٧١٩)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.



المبحث الثاني

ضعف اليقين بالله تعالى

إن المتأمل لأحوال الناس اليوم، يجد أن بعضهم عمدوا إلى محارم الله فارتكبوها ومنهياته فاستباحوها، ومأموراته فاجتنبوها ونبذوها وتركوها، وقطعوا الأسباب بينهم، وبين خالقهم، ورازقهم، وهم بذلك سلكوا مسلكا مؤديا إلى التلبس بكل مايقود إليه .

والسلوك يتأثر بالإيمان، وممارسات صاحبه؛ فلذلك يضعف الإيمان واليقين، وينقص إذا وقع صاحبه في المكروهات، والمحظورات؛ " لأن الإيمان لايغني فيه إلا علم اليقين، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[1]"[2].

ومداخل وأبواب الشيطان كثيرة تضعف يقين وإيمان العباد، والثقة بالله تعالى؛ لذلك كان من الواجب حماية القلب من وساوس الشيطان، وسد مداخله، ونزغاته بتطهير القلب من الصفات المذمومة، وذلك ببذل الجهد في التزكية، وسؤال الله، والإعتماد عليه فيها وفي الحديث " عن عبدالله -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه كان يقول: " اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى" "[3].

فإخلاص القصد والعمل لله، ومتابعة سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- تجعل من المخلص أن يتذوق حلاوة عبوديته واستسلامه لله " إذ ليس عند القلب السليم أحلى، ولا ألذ، ولا أطيب، ولا أسر، ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله ومحبته له، وإخلاصه الدين له، وذلك يقتضي إنجذاب القلب إلى الله، فيصير القلب منيبا إلى الله قوي العلاقة فيما بينه وبين ربه راغبا راهبا طاردا كل وساوس الشيطان واثقا،

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٥.

(٢) انظر : للحكمي، معارج القبول (بيروت، دار الكتب العلمية، تط ١٤٠٣هـ)، (٣٠٨/١).

(٣) مسلم، (٢٠٨٧/٤)، ح(٢٧٢١)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

وموقنا أن الله تعالى إذا حكم، وقدر وقضى أمرا، فلامرد لقضائه، ولامعقب لحكمه"(١).

فمن أكبر عوائق التوكل على الله تعالى هو أن يضعف يقين العبد بالله تعالى؛ لأن قوة اليقين، والثقة بالله تعالى هي من أنواع أغذية القلوب فإذا نقص الغذاء مرض القلب، وانحرف ومال للسماع الشيطاني وبعد العبد عن الله، وغلظ حجابه فيما بينه وبين الله تعالى، وأصبح كالحيوان.

قال تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾(٢).

فالآية الكريمة في معرض الاستهزاء بعقولهم، وتمثيلهم بالأنعام، فالأنعام ليس لها عقول، وهؤلاء لهم عقول ضيعوها؛ ولأن الأنعام تطلبماينفعها وتجتنب مايضرها، وهؤلاء يتركون أنفع الأشياء وهو الثواب، ولايخافون أضر الأشياء وهو العقاب(٣).

فمن ضعف يقينه، وثقته بالله تعالى، فلن يرضى بحكم وقضاء الله في جميع أمور معاشه، ويترتب على ذلك أنه لايأمن من فوق المقدور له، وذلك راجع لجهله بمعرفة الله تعالى، وأن قضاه سبحانه لامرد له ألبته، ولضعف يقينه " فعلى العبد أن يقف على ماقام بالحق من أسماء وصفات ونعوت كمال وتوحيده، وبهذا يحصل له اليقين"(٤).

فضعف اليقين والثقة بالله يضعفان:

---

(١) انظر: لابن تيمية، العبودية، ص ١٤٠.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٤٤.

(٣) انظر: للكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل (بيروت: دار الكتاب العربي، تط الرابعة ١٤٠٣هـ)، (٧٩/٣).

(٤) ابن القيم، مدارج السالكين، (٤٢٠/٢).



١- العزم والإرادة على عمل مايرضي الله ورسوله، فكل مافي الكون يدعو العبد إلى إزاحة الشك ومعرفة الحق.

قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾[1].

" **فالله تعالى يبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله عز وجل ... فالله تعالى جلاله الأمر سره وعلانيته ... وعلم مافي ذلك من الحكم الباهرة، والدلالات القاطعة**"[2]. فجميع المخلوقات دالة على وجود صانع خالق لها سبحانه.

ومافعل إبراهيم عليه السلام من إرادة مخلوقاته سبحانه الكونية السمائية إلا ليؤكد لنفسه أن للعالم صانعا واحدا سبحانه .

٢- إن ضعف اليقين والثقة يفضيان إلى عدم الإيمان بالغيب، ويضعفانه.
" **فالإيمان بالغيب الذي أخبر به الحق سبحانه على لسان رسله من أمور المعاد، وتفصيله، والجنة والنار، وماقبل ذلك من الصراط والميزان، وماقبل ذلك من أمور البرزخ، نعيمه وعذابه من درجات اليقين**"[3].

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾[4].

" قال ابن عباس : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ ﴾ أي يصدقون بما جئت به من الله وماجاء به من قبلك من المرسلين

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٧٥ .
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٢٤١/٢).
(٣) ابن القيم، مدارج السالكين، (٤١٨/٢).
(٤) سورة البقرة، آية: ٣-٤.

لايفرقون بينهم، ولايجحدون ماجاؤهم به من ربهم، وبالآخرة يوقنون أي بالبعث، والقيامة، والجنة، والنار والحساب والميزان"[١].

فكل من حاد عن الحق، واختلف فيه ضعف يقينه، وثقته بالخالق، فالحق هو اليقين، قال تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾[٢].

إن الآيات القرآنية مليئة بالدعوة إلى الإيمان والنظر في ملكوت السموات والأرض، والدعوة إلى الإيمان بالغيب حتى يستقر في قلب كل مؤمن التوحيد واليقين والثقة بالله.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[٥].

فالآيات السابقة " **يرشد فيها الله تعالى إلى التفكر في آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التى خلق بها السموات والأرض ومافيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس، والأنواع من الملائكة، والجن، والإنس، والدواب، والطيور، والوحوش، والسباع، والحشرات، ومافي البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار، وفي تعاقبهما دائبين لايفتران ، هذا بظلامه وهذا بضيائه، ومأنزل الله**

(١) انظر: الطبري، جامع البيان..، (٩٥/١)؛ ولابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٦٨/١)؛ وللألوسي، روح المعاني، (١٢٢/٢١).

(٢) سورة النمل، آية: ٧٩ .

(٣) سورة الدخان، آية: ٧ .

(٤) سورة الذاريات، آية: ٢٠ .

(٥) سورة الجاثية، آية: ٤ .

تبارك من السحاب وغيرها ... لآيات لقوم يوقنون"[1]، إيقانا تاما لايخالطه أدنى شك فهي جميعها تدل على قدرة الله تعالى، وقدرة الصانع العظيم، وحكمته التي يعتبر بها أهل اليقين أهل العلم والمعرفة.

إن الريب في قدرة الله تعالى من أسباب المعاصي التي تجعل العبد في ضعف وخور في الإيمان، ويقينه بخالقه، ورازقه، ومدبر أمره، فعدم خشية الله، ومراقبته تجعل العبد يستخف بوعده سبحانه ووعيده؛ لهذا كان لزاما على كل عبد مؤمن أن يتقي الله ويخشاه حق خشيته، ولن يكون ذلك إلا بالعلم المستقر في القلب الثابت من الأسباب المتعينة له بحيث لايقبل هذا العلم إلا الزيادة لا النقص والهدم.

فقوة اليقين تقوي التوكل على الله؛ لأن بقوة اليقين يزيد المسلم من ربه قربا، وحبا، ورضى بما قسمه له سبحانه، من أمور معاشه وبه يتبع النور فيسلك العبد طريق السلامة .

ومن هنا نرى أنه كلما زاد الإيمان زاد اليقين، وكلما ضعف الإيمان ضعف اليقين؛ لأن اليقين هو لب الدين ومقصوده الأعظم، فينبغي على العبد أن يتقى الله عز وجل، ويصدق في ذلك لسانا ونية وإرادة وعزما، ويكون بين الخوف والرجاء بما عند الله " **فالخوف والرجاء جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود،** قال تعالى: ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[2]"[3].

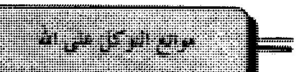
لذلك فإن من اتقى، وصدق، وخاف، ورجى، فسيسلم من وسوسة الشيطان ومداخله، ومن كان بعيدا عن ذلك، فإنه لايسلم من مداخلات الشيطان، فربما بل حتما سيعتقد فيمن لايستحق الاعتقاد، ويخاف ممن لايستحق الخوف، فينقاد إلى الاعتقاد أن القضاء والرزق والمقدرات من عند غير الله، وبذلك سيقدح توكله، واستعانته؛ لأن الصدق واليقين قرينا التوكل فمن يقن ووثق بوعد الله تعالى، وضمانه لايخاف فوت رزقه، ولا منازعة أحد له في رزقه، ومعاشه.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٤/٢٢٥).

(٢) سورة السجدة ، آية: ١٦ .

(٣) انظر: لسعيد حوى، المستخلص في تزكية النفوس، ص٣٢٧.



قال تعالى ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾(١).

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات، من سائر دواب الأرض صغيرها، وكبيرها بحريها وبريها، وأنه يعلم مستقرها، ومستودعها أي يعلم أين منتهى سيرها في الأرض، وأين تأوي إليه من وكرها وهو مستودعها، فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها، وأحاط علما بذواتها وصفاتها(٢).

وقال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾(٤).

فالآيتان الكريمتان السابقة ينثلج بها الصدر، ويحصل بها اليقين والثقة عند علمه أن الله الكافي عباده الرزق وحصول المنافع، وهذا مما يوجب للعبد المؤمن القيام بتوحيد الله، والاعتماد على ربه في حصول مايحب.

فالمؤمن ينبغي عليه أن يدفع الضعف بمعرفة الله وبالوجوه التي تعرف من خلقه للخلق، وتدبيره للخلق، ومن قدرته على الخلق وتكفله بأرزاق الخلق، وأماتته للخلق، وإحيائه للخلق، آلا له الخلق والأمر، تبارك الله أحسن الخالقين.

لأن ضعف اليقين والثقة بالله إذا استحكم، وغلف القلب، يورث ويقود إلى الخسران المبين، وإلى طول الأمل، ويورث التخبط في الدنيا، وعدم النظر إلى العواقب، ويضعف العلاقة بين المسلم وربه فيضعف التوكل على الله، ويزيد العبد خضوعا، واستكانة لغير الله وما لهذا خلق المؤمن، فقد خلق لعبادة الله، وتوحيده المتضمن أنواع التوحيد الثلاثة (ربوبية – ألوهية – أسماء وصفات).

---

(١) سورة هود، آية: ٦ .

(٢) انظر: جامع البيان، (٢٥٧/٤)؛ ولابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٦٧٦/٢)؛ وللطبري، وللسعدي تيسير الكريم الرحمن، (٣٦٨/٢).

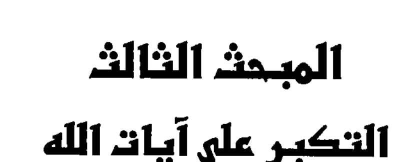
(٣) سورة الذاريات، آية: ٢٢-٢٣.

(٤) سورة الذاريات، آية: ٥٨ .



خلق لتدبر آيات القرآن الكريم، والاستفادة من علومه ومعارفه وأحكامه، ومعرفة أحاديث رسول الله -ﷺ- وما تضمنته من علوم الإيمان وأعماله، فهذه جميعها من الأمور التي تقوي الإيمان وتجلبه للنفس حتى تسكن إلى المضمون، وتثق بالله، وينعقد القلب لسيده؛ لأنه إن أعطى لم يقدر أهل الأرض أن يمنعوه، وإن منعه لم يقدر أهل الأرض أن يعطوه؛ لأن سلطان الله عظيم، وبتوكل العبد عليه يكفيه، فالتوكل محض الإيمان والناس يتفاضلون في التوكل، والإيمان على قدر اليقين[١].

(١) انظر : المحاسبي، آداب النفوس، ص ١٩٧-١٩٨.



المبحث الثالث

التكبر على آيات الله

إن الكبر والتكبر والاستكبار تتقارب معانيها وتصريفاتها، فالكبر الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره، وأعظم التكبر التكبر على الله بالامتناع من قبول الحق والإذعان له بالعبادة، وهذا مذموم، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[1]"[2].

فذلك التعاظم، والتعالي، والتكبر رذيلة بغيضة تنشأ عن الجهل فتدعو صاحبها إلى المبالغة في تعظيم شخصه، إذ يرى محاسنه بمجهر، ويعمى عن عيوبه ونقصه، فيعتقد بذلك أنه فريد زمانه، وهذا لايجد من الناس، إلا الاحتقار، وقد أراد أن يعظموه، ويكرهوه، وقد أراد أن يحبوه فهو ممقوت من الناس ممقوت من الله، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾[3]، فياعجبا لهذا المخلوق الضعيف الذي يفخر بأصله، وهو من تراب، ويباهي بجسمه وهو إلى فناء وهلاك، وسيكون عما قليل عظاما نخرة، فالمتكبر لايعبد ربه حق عبادته، بل يعبد عنجهيته، وهواه فكم من عبادة أداها كانت هوى وعشقا جارفا، ويوهم نفسه أنه يجاهد في سبيل الله، وهو إنما يجاهد في سبيل رضا هواه .

" والكبر مناف للأمر الذي خلق الله له الخلق، وأمر لأجله بالأمر، فالله تعالى خلق الخلق سبحانه، وأنزل الكتاب لتكون الطاعة له وحده والكبر ينافي ذلك"[4].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٣٤ .

(٢) انظر: للأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٤٣٨؛ وللفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص٦٠٢.

(٣) سورة النحل، آية: ٢٣.

(٤) ابن القيم، الداء والدواء، ص ١٩٥.



فالقرآن الكريم كله دعوة للنفس الإنسانية إلى السلوك القويم، والعقيدة الصحيحة يتبعها السلوك الصحيح، والقرآن الكريم فيه نماذج للأخلاق الذميمة التي ينهى عنها ويحذر منها صيانة للنفس الإنسانية؛ ولما يترتب على هذه الأخلاق من المفاسد، وارتفاعا بها إلى درجة من السمو الخلقي والأخلاقي، والكمال النفسي.

" فعن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: لايدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، ولايدخل النار من كان في قلبه ذرة من إيمان فقال رجل يارسول الله " الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا، ونعله حسنا فقال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس " [1].

فالحديث الشريف بيان لمعنى الكبر الحقيقي وهو إنكار الحق والترفع عنه والتجبر فيه، واحتقار الناس والاستهانة بهم.

إن هذا السلوك الذميم مانع وحاجز لمفهوم التوكل على الله، فالمتكبر قلبه مريض بعدم الخضوع، والإذعان، والانصياع للحق ولأوامره سبحانه فلا يرى ميزة للآخرين، ولايذكر لغيره فضلا عليه، والمتكبر كنود كفور لايطيق أن يعترف بفضل ذي الفضل عليه، ولايتنازل أن يشكر إحسان من أحسن إليه، والمتكبر حسود حقود يمقت كل عظيم، وينقم على كل كبير، ولايرى إلا نفسه ولايفكر إلا في ذاته، ويتمسك ويتعصب لرأيه الباطل.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾[2].

وعلى ذلك فإن أهل الكبر والإصرار إلى النار صائرون، وأهل الكبر والتجبر مطبوع على قلوبهم.

---

(١) رواه مسلم، (٩٣/١)، ح(٩١) كتاب الإيمان .
(٢) سورة البقرة، آية: ٢٠٦.



قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾[1].

" فكما طبع الله على قلوب المارقين الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم، يطبع على قلوب جميع المتكبرين الجبارين الذين آبوا أن يوحدوا الله ويصدقوا رسله، واستعظموا عن اتباع الحق، فيصدر عنهم أمثال ماذكر من الإسراف والارتياب، والجدل بغير الحق"[2].

فيتكبر بذلك على الطاعات، والأوامر ويعتقد في نفسه أنه خير من غيره وأنه يجتهد، وبهذا يزهو بما يكون منه حسنا أو قبيحا ويمتنع على ذلك المتكبر للانقياد، والإذعان لمن يعتقد أنه أقل منه علما ودراية، وبهذا يضل ويخزى خاصة إذا عاند وأصر وكابر عن الحق، ويطبع هذا الخالق على قلب كل متكبر عليه، تكبر على توحيد الله متعظم عن اتباع الحق، إن فرعون علا وتكبر في الأرض فساء مصيره إلى نار جهنم، ولمجادلته في آيات الله بالباطل من غير حجة ولابرهان.

" فالكبر والتكبر على آيات الله من المهلكات، ولن يتم وينجع العلاج إلا بمعرفة الإنسان مقدار نفسه، ويعلم أنه أذل من كل ذليل، ويكفيه أن ينظر في أصل وجوده بعد العدم من تراب، وليعلم أن الكبر لايليق به، وأنه إذا تكبر صار ممقوتا عند الله تعالى بغيضا عنده"[3].

إن صفة التكبر لاتصح إلا لله سبحانه وتعالى فهو سبحانه المتكبر عن السوء، والنقص والعيوب لعظمته، وكبريائه؛ لأنه سبحانه هو الذي له القدرة والفضل الذي ليس لأحد مثله، وهو المتعالي عن صفات الخلق، وعن عتاة خلقه، فسبحانه كامل الذات متكبر وكبير وعظيم، فليس للإنسان أن يتكبر بمال أو جاه أو جمال أو قوة أو كثرة ونحو ذلك فجميعها من عند الله تعالى وهبها لمن شاء وأرادها لمن شاء[4].

---

(١) سورة غافر، آية: ٣٥.

(٢) انظر: للمراغي، تفسيره، (٧٠/٨).

(٣) انظر: لابن قدامة المقدسي، مختصر منهاج القاصدين، ص٢٣١-٢٣٣.

(٤) انظر: لابن منظور، لسان العرب، (١٢٩/٥-١٣٠)؛ للغزالي أبوحامد، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، (قبرص، تط ١٤٠٧هـ)، ص٧٥؛ مقاييس اللغة، أحمد ابن فارس (١٥٤/٥).



أمـا المتكـبر مـن العبـاد فـهو جـاحد طـارد للحـق، مـهلك لنفسـه، مغلـق لأبواب الجنة " **فكل مـن تكـبر عـن الانقيـاد للحـق أذلـه الله، ووضعـه، وصغره وحقره، ومن تكبر عن الانقياد للحق فإنما تكبر على الله، فإن الله هو الحق، وكلامه حق، ودينه حق، والحق صفته، ومنه ولـه فـإذا رده العبد تكبر عن قبوله، فإنما رد على الله، وتكبر عليه**"[(١)].

فالإنسان ماخلق إلا لعبادة ربه، والتواضع لـه، واسـتصغار نفسـه واحتقارها أمام عظمة الله.

فكل من لايرى ذلك فقد يلقى وعيد ووعد ربـه، قـال تعـالى فـي محكـم كتابـه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[(٢)].

" **فالمتكبر عن آياتـه الأفقيـة، والنفسـية، والفـهم لآيـات الكتـاب بعدم الاعتبار بها لأنه قدتكبر على عباد الله، وعلى الحق، وعلـى مـن جـاء به، ومن كان بهذه الصفة، حرمه الله خـيرا كثـيرا، وخذلـه، ولـم يفقـه من آيات الله، ماينتفع به، بل ربما انقلبـت عليـه الحقـائق، واستحسـن القبيح**"[(٣)].

" **فالآية الكريمة شاهد على الوعيد الشديد لمن استكبر عن دعاء الله، وفيه لطف بعباده عظيم، وإحسان إليهم كبير، من حيث توعد من ترك طلب الخير منه، واستدفاع الشر بالدعاء بهذا الوعيـد البـالغ، وعاقبـه بهذه العقوبة الشديدة، فينبغي توجيه الرغبات إليه، والتعويـل فـي كـل المطالب علـى الله، فـهو سبحانه أرشد إلـى التوكـل عليـه، وكفـل لنـا الإجابة، بإعطاء المطالب وحصول الرغبـات، فـهو كريـم جـواد يجيـب دعوة الداعي إذا دعاه، فسبحانه يغضب على من لم يطلـب مـن فضلـه العظيم، وملكه الواسع مايحتاج إليه من أمور الدين والدنيا**"[(٤)].

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، (٣٤٦/٢).
(٢) سورة غافر، آية: ٦٠ .
(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، (١٥٩/٢).
(٤) انظر: للمراغي، تفسيره، (٨٨/٨) .

فبالكبر ينحط العبد في مطالبه، ويتخبط في مسالكه، وطرقه والنتيجة هي البعد عن الله، والشعور بالضيق والضياع، فينبغي على العبد إذا شعر بأثار وأعراض هذا المرض والخلق الذميم في نفسه وأن يعالج نفسه وذلك بقطع وبتر جذور هذا الخلق من مغرسه في القلب ويدفع العارف منه بالأسباب التي قد يتكبر فيها، وذلك أن يعرف نفسه ويعطيها قدرها وحقها، ويعرف نفسه صفات ربه تبارك وتعالى ويكفيه ذلك في إزالة الكبر على الله تعالى وعلى رسوله وطاعة الله وطاعة رسوله، أما المتكبر بالغنى، والجمال والكثرة، وعلو المناصب فهذا يعالج نفسه بأن يعلم أن هذا كله مما أعطاه الله إياه وتفضل به عليه، وليبادر بشكر الله، والتواضع له.

قال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[1].

" فالكبر مفتاح الشقاء، والمتكبر هو الذي لم تنفتح بصيرته ليكون بهدايته نفسه كفيلا، وبقي في العمى، فاتخذ الهوى قائدا، والشيطان دليلا، فالكبر يهلك الخواص من الخلق، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلا عن عوام الخلق"[2].

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[3].

وقال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ ﴾[4].

---

(١) سورة إبراهيم ، آية: ٧ .

(٢) انظر: للغزالي، إحياء علوم الدين، (القاهرة: دار الشعب)، (٣/٣٤٥).

(٣) سورة لقمان، آية: ٧ .

(٤) سورة الجاثية، آية: ٧ – ٨ .

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[1].

فالتكبر هو من الأسباب المبعدة عن الخير وأبوابه، وتبعد عن طاعة الله وعن مأمورات الخالق التعبدية، والقلبية، والسلوكية، فالمتكبر منصرف عن الاستعانة بالله، والإنابة إليه، والتوكل عليه وتعمى بذلك بصيرته، ولايرى الحق، ويصر على التعالي، ولايسمع، ولايعى لنصح ناصح، فيهلك، ويغضب الله، ويكرهه الناس وفي هذا " **قال رسول الله -ﷺ- في حديث حارثة بن وهب أنه سمع النبي -ﷺ- قال: "ألا أخبركم بأهل الجنة؟ قالوا: بلى، قال -ﷺ- " كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، ثم قال: " ألا أخبركم بأهل النار؟" قالوا: بلى يارسول الله، قال: "كل عتل جواظ متكبر"**[2].

فلينظر العبد إلى مصيره، وليحاول جاهدا نفسه لمرضاة ربه ويعمل على تقواه وخشيته، وليدفع عن نفسه الكبر بالتواضع، وليذكر نفسه بمآله ومرجعه ويحاسب نفسه حتى لايذل، ولايضل، فكلنا من تراب، وسندس في تراب، فلنعمل وننال المثوبة والجزاء الحسن.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٤٠ .

(٢) صحيح البخاري، ح(٦٦٥٧) كتاب الإيمان والنذور؛ ومسلم، (٤/٢١٩٠)، ح(٢٨٥٣)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها واللفظ له .

المبحث الرابع

الغرور والعجب بالنفس

إن الغرور والعجب بالنفس يحصل بالاستعظام، ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه فهما مذمومان، وماهما إلا نتيجة للكبر، وهما من أحد أسبابه، قال تعالى في محكم التنزيل ذاما العجب ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾[1].

فالغرور والعجب بالنفس ثمرتا من شر ثمرات الكبرياء، والغفلة، والجهل يعميان البصيرة عن الحق، ويبعدان عن الصواب، ويسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل، ففي وقعة حنين كان معسكر رسول الله -ﷺ- في غاية الكثرة والقوة، فلما أعجبوا بكثرتهم صاروا منهزمين، ومتى اعتمد الإنسان على الدنيا فاته الدين والدنيا، فالعبد عليه أن يسلخ نفسه من الغرور والعجب حتى لايستوليا عليه، فلاينفع بعد ذلك لا إصغاء لنصح ولاقبول لتأديب، كما أنه يزداد بعدا عن الطاعات[2].

فالإعجاب والغرور بالنفس، وماشابههما ضلال يفضي بصاحبه إلى التعدي والعصيان، وهذا أمر ليس بجديد زماننا بل هو قديم " **فمعركة حنين تعرض نتائج الانشغال عن الله، والاعتماد على قوة غير قوته، لتكشف لنا عن حقيقة أخرى ضمنية، حقيقة القوى التي تعتمد عليها كل عقيدة، إن الكثرة العددية ليست بشيء، إنما هي القلة العارفة المتصلة الثابتة المتجردة للعقيدة، وإن الكثرة لتكون أحيانا سببا في الهزيمة؛ لأن بعض الداخلين فيها، التائهين في غمارها، ممن لم يدركوا حقيقة العقيدة، التي ينساقون في تيارها، فتزلزل أقدامهم، وترتجف في ساعة الشدة، فيشيعون الاضطراب والهزيمة في الصفوف، فوق ماتخدع الكثرة أصحابها فتجعلهم يتهاونون في توثيق**

(١) سورة التوبة، آية: ٢٥ .
(٢) انظر: للرازي، مفاتيح الغيب، مج ١٦-١٧ (٢١/٨).



صلتهم بالله انشغالا بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسر النصر في الحياة"[١].

فالغرور يلازمه العجب بالنفس، وكلاهما داع إلى بعض لامحالة؛ لأن من خدع في نفسه فسيعجب بها، ويظن أنه وصل للكمال من علم أو عمل؛ لأن المغتر غرته نفسه، وشيطانه، وهواه، وأمله الخائب الكاذب بربه حتى أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، والغرور ثقتك بمن لايوثق به وسكونك إلى من لايسكن إليه ورجاؤك النفع من المحل الذي لايأتي بخير، كحال المغتر بالسراب.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾[٢].

وقال تعالى في وصف المغترين ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾[٣].

إن غرور العصاة من المؤمنين بأن يرجوا كرم وعفو الله، ويسمون تمنيهم هذا رجاء وأنه محمود في الدين، وأن رحمة الله واسعة للمؤمنين إلا أنه قياس مشوب إذ المؤمن يعمل لما بعد الموت، والجاهل المغرور من تبع هواه وتمنى على الله، فليعلم العبد أن كل نعمة هي من الله من الله بها عليه، فإذا اعتقد العبد أن الله سبحانه وفقه للعبادة أو النعمة فقال : رآني الله أني أهلا لها فهذا هو الإعجاب والغرور بالنفس، ووضع بذلك العبد نفسه في المهلكات والآفات.

قال تعالى:﴿ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[٤].

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، (١٦١٨/٣) .

(٢) سورة النور، آية: ٣٩ .

(٣) سورة الكهف، آية: ١٠٣-١٠٤.

(٤) سورة النساء، آية: ١٢٠.



فالآية الكريمة تضمنت طائفة غرهم الشيطان " **فعمدة أمر الشيطان إنما هو بإلقاء الأماني في القلب، فهنا نبه تعالى على أن العمدة في دفع الأماني الشيطان، وتلك الأماني لاتفيد إلا الغرور، والغرور هو أن يظن الإنسان بالشيء أنه نافع، ولذيذ ثم يتبين اشتماله على أعظم الآلام والمضار، وجميع أحوال الدنيا كذلك، والعاقل يجب عليه أن يلتفت إلى شيء منها، ومثال هذا أن الشيطان يلقي في قلب الإنسان أنه سيطول عمره وينال من الدنيا أمله ومقصوده، ويستولى على أعدائه، ويقع في قلبه أن الدنيا دول فربما تيسرت له كما تيسرت لغيره، إلا أن كل ذلك غرور، فإنه ربما لم يطل عمره، وإن طال فربما لم يجد مطلوبه، وإن طال عمره ووجد مطلوبه على أحسن الوجوه فإنه لابد أن يكون عند الموت في أعظم أنواع الغم والحسرة، فإن المطلوب كلما كان ألذ وأشهى، وكان الألف معه أدوم وأبقى كانت مفارقته أشد إيلاما، وأعظم تاثيرا في حصول الغم والحسرة**"[1].

" **وعلى ذلك فإن الشياطين تغر المغترين بالله ويطمعونهم مع إقامتهم على مايسخط الله، ويغضبه في عفوه، وتجاوزه، ويحدثونهم بالتوبة لتسكن قلوبهم ثم يدافعونهم بالتسويف حتى يهجم الأجل فيؤخذون على أسوأ أحوالهم، وفي ذلك قال تعالى:** ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾[2]"[3].

والمغرور بربه يصر على عصيانه فيسيء إلى نفسه، ويظلمها حيث كان يجب أن ينفع حياته الدنيا لكسب آخرته.

---

(١) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، مج ٦-٧، (٥١/١١) .

(٢) سورة الحديد، آية: ١٤ .

(٣) ابن قيم الجوزية، الروح (الرياض: دار الرشد بدون تط) ص٢٤٥ .

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَـٰسِقُونَ ۝١٩ ﴾[١].

فالمعنى التى تتضمنه الآية الكريمة هو فلينظر أحدكم أي شيء قدم لنفسه، عملا صالحا ينجيه أم سيئا يوبقه، فلنتق الله من ترك أمره وإلا أنسانا حظوظ أنفسنا، بأن لم نقدم لها خيرا[٢].

لذلك فلينظر المؤمن في خاصة نفسه، ويعمل بطاعة الله، وطاعة رسوله حتى لاينال بمعصية الله ورسوله العاقبة السيئة، ويكون من الفاسقين عن أمر الله تعالى خارجا عن طاعته، فهذا الغرور والعجب بالنفس لهو من سبل الشيطان يزين للعبد أن طاعاته أكثر من معاصيه.

" ومن العصاة من يغتر، فيقول إن الله كريم، وإنما نتكل على عفوه، وربما اغتروا بصلاح آبائهم وقد قال العلماء: من رجا شيئا طلبه، ومن خاف شيئا هرب منه، ومن رجا الغفران مع الإصرار، فهو مغرور، وليعلم أن الله تعالى مع سعة رحمته شديد العقاب، وقد قضى بتخليد الكفار في النار، مع أنه لايضره كفرهم، وقد سلط الأمراض والمحن على خلق من عباده في الدنيا، وهو سبحانه قادر على إزالتها، ثم خوفنا من عقابه، فكيف لانخاف؟ فالخوف والرجاء سائقان يبعثان على العمل، ومالا يبعث على العمل فهو غرور يوضح هذا أن رجاء أكثر الخلق يحملهم على البطالة، وإيثار المعاصي"[٣].

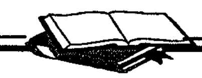
" والعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها، ويستعظم صاحبه العبادات والأعمال، ويتبجح بها، ويمن على الله بفعلها ثم إذا أعجب بها نسي آفاتها، ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعا،

---

(١) سورة الحشر، آية: ١٨-١٩.

(٢) انظر: للبغوي، معالم التنزيل، (٣٥٦/٥)؛ ابن الجوزي، زاد المسير، (٢٢٤/٨).

(٣) ابن قدامة المقدسي، مختصر منهاج القاصدين، ص٢٣٧ .



والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه، ويأمن مكر الله وعذابه، ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويحمدها ويزكيها، ويمنعه ذلك من الاستشارة والسؤال، فيستبد برأيه ويكتفي به وبنفسه، وربما أعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له، فيفرح بكونه من خواطره، ويصر عليها، وربما أودى به ذلك إلى الهلاك خاصة لو كان هذا الرأي يتعلق بأمر من أمور الدين، ولذلك عد العجب من المهلكات، ومن أعظم آفات العجب فتور سعي المعجب لظنه أنه قد فاز، وأنه قد استغنى، وهذا الهلاك الصريح الذي لاشبهة فيه"[١].

فالغرور والعجب بالنفس داءان متأصلان في النفس.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[٢].

فالغرور من أنواع الجهل؛ لأن الجهل هو أن يعتقد الشيء ويراه على خلاف ماهو به فكل من سكن إلى هواه واعتقد أنه على خير إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور.

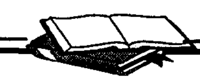
إن الحياة الدنيا غرور لمن أقبل عليها، والعجب زهو العبد بأعماله بما يكون منها حسنا أو قبيحا، والركون والاعتماد على مامنها حسن، ونسيان فضل المتنعم عليه صاحب الفضل والإحسان سبحانه، ولنعلم أنهما يبعدان عن طلب الآخرة لوجوه:

" أحدهما: أنه لو حصل للإنسان جميع مراداته لكان غمه وهمه أزيد من سروره؛ لأجل قصير وقته، وقلة الوثوق به، وعدم علمه بأنه هل ينتفع به أم لا.

---

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين، (٣/٣٧٠).

(٢) سورة لقمان، آية: ٣٣ .



ثانيهما : أن الإنسان كلما كان وجدانه بمرادات الدنيا أكثر كان حرصه في طلبها أكثر، وكلما كان الحرص أكثر كان تألم القلب بسبب ذلك الحرص أشد، فإن الإنسان يتوهم أنه إذا فاز بمقصوده، سكنت نفسه وليس كذلك، بل يزداد طلبه، وحرصه، ورغبته.

ثالثها: أن الإنسان بقدر مايجد من الدنيا يبقى محروما عن الآخرة التي هي أعظم السعادات والخيرات، ومتى عرفت هذه الوجوه علمت أن الدنيا متاع الغرور، وأنها كما وصفها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- قال: "الين مسها قاتل سمها" "[1].

لذلك كان الغرور والعجب مذمومين؛ لأنهما يفضيان بالمرء لتفريط ماأمر الله به، ويظن المرء أنه ممن دخل في حب وكفاية الله، وأنه ممن يرزقه الله وينجيه.

كذلك ما لأثارهما من إلحاق الأذى بالعبد بفساد العمل وفساد الثواب للأعمال وما سيؤدي ذلك إلى الطغيان، والجرأة على الله، وفي هذا منافاة لمعنى العبودية الحقة، فليعلم أن التوفيق للنعم وللفضائل هي من الله صاحب الفضل والإكرام.

---

(١) انظر: للفخر الرازي، مفاتيح الغيب، مج (٥-٦)، (١٣٠/٩-١٣١)- ومج (١٥-١٦)، (٢٣٥/٢٩).

المبحث الخامس

الهوى والشهوات

إذا تأملنا أمراض القلوب من الجهل، وضعف اليقين، وضعف الثقة بالله تعالى، والتكبر والغرور، والعجب بالنفس، وكل مايخطر من أمراض تصيب القلب وتوهن العبادة الحقة لله، فإننا نجد أن الدافع لها هو اتباع الهوى؛ لأن الهوى " **ماهو إلا ميل النفس إلى ماتستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع**"[١]، وقيل " **هو ميل الطبع إلى مايلائمه**"[٢].

قال تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾[٣].

" **فالهوى والشهوات متلازمان، ولكن الهوى مختص بالآراء، والاعتقادات، والشهوات مختصة بنيل المستلذات، فصارت الشهوة من نتائج الهوى، وعلى ذلك فإن الهوى أصل وهو أعم**"[٤].

إن الهوى والشهوات مرض يصيب القلب، ويوجب الفساد في القصد والإرادة، وعلى ذلك فقد استخلصت قسمين للناس فيه :

القسم الأول : ظفر الهوى والشهوات بالنفس فملكها وأهلكها وصارت طوعا لها تحت أوامرها.

والقسم الثاني : أن تظفر النفوس وترتفع عن الهوى والشهوات وتصير هواها وشهواتها على مقتضى الكتاب والسنة.

---

(١) الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق الفردية، قابلة على نسخة خطية، د/عدنان درويش–محمد المصري،(القاهرة:دار الكتاب الإسلامي تط الثانية١٤١٣هـ)،(٥/٣٤٤).

(٢) ابن الجوزي، ذم الهوى، تحقيق مصطفى عبدالواحد، مراجعة محمد الغزالي (القاهرة: دار الكتب الحديثة، تط ١٣٨١هـ)، ص١٢.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ٧١ .

(٤) الماوردي، أدب الدنيا والدين، تحقيق مصطفى السقا (بيروت، تط ١٩٧٨م) ص٣٨.

فالنفس تدعو إلى الطغيان وإيثار الهوى وهذه النفس الأمارة بالسوء، والرب يدعو عبده إلى خوفه، ونهى النفس عن الهوى، والقلب بين الداعيين يميل إلى هذا مرة وإلى هذا مرة، وهنا موضع المحنة والابتلاء.

والشهوات تخون العبد وتسبب له المعاصي وتدفع لها، وتخبث بالنفس، " فإن العبد إذا وقع في شدة أو كربة، أو بلية خانه قلبه ولسانه، وجوارحه عما هو أنفع شيء له، فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله تعالى، والإنابة إليه، والجمعية عليه، والتضرع، والتذلل، والانكسار بين يديه، ولايطاوعه لسانه لذكره، وإن ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه فينحبس القلب على اللسان بحيث يؤثر الذكر، ولاينحبس القلب واللسان على الذكر، بل إن ذكر أودعا ذكر بقلب لاه ساه غافل، ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له ولم تطاوعه"(١).

قال تعالى : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴾(٢).

فمن رعاية الله لعبده داود ولعباده جميعا أنه نبه للنهاية البعيدة التي تترتب على اتباع الهوى ونتائجه من الضلال عن سبيل الله(٣).

" إن اتباع الهوى قد يكون اختيارا، وقد يكون كرها، والنهي عن اتباعه يقتضي النهي عن جميع أنواعه، فأما الاتباع الاختياري فالحذر منه ظاهر، وأما الاتباع الاضطراري فالتخلص منه بالانسحاب عما جره إلى الإكراه..... فالهوى كناية عن الباطل، والجور، والظلم لما هو متعارف من الملازمة بين هذه الأمور،

---

(١) انظر: لابن القيم، الداء والدواء، تقديم محمد غازي، (جده: دار المدني، ط ١٤٠٣هـ)، ص١٢٣.

(٢) سورة ص، آية: ٢٦ .

(٣) انظر: لسيد قطب، في ظلال القرآن، (٣٠١٨/٥).

وبين هوى النفوس، فإن العدل والإنصاف ثقيل على النفوس فلاتهواه غالبا، ومن صارت له محبة الحق سجية فقد أوتي العلم والحكمة وأيد بالحفظ أو العصمة"[١].

قال تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾[٢].

فالله تعالى أنزل الحق متواصلا بعضه أثر بعض حسبما تقتضيه الحكمة أو متتابعا وعدا ووعيدا، وقصصا، وعبرا، ومواعظ ونصائح لذلك فيجب الاحتراز عن اتباع الهوى والانهماك فيه فمن كان كذلك فهو أضل من كل ضال[٣].

قال تعالى: ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾[٤].

إن اتباع الهوى لظلم للنفس فالله تعالى يرشد للحق، وينبه على أن من اتبع أهواءه الزائفة، فهو واضع للشيء في غير موضعه، وهو بذلك معرض نفسه للعذاب الخالد، فالكل مفتقر إلى الله تعالى فلابد من إنابته، وتوكله ولا نشرك معه أحدا أبدا[٥].

فالحق سبحانه هو الهدى، وغيره ومايدعوه إليه من الآراء والأقوال إنما هو هوى؛ لأنه قادم من أقوالهم التي لاتمت بالدين المعلوم صحته بالدلائل القاطعة، فكل من لاذ إلى الحق فلقد لجأ إلى المعين سبحانه وتعالى يعصم الناس إذا قاموا بالطاعة.

ويحذر تعالى عن متابعة الهوى والشهوات استعظاما لصدور الذنب من تلك الأهواء الزائفة المضلة، ويؤكد ويبالغ في التحذير سبحانه وقد كانت منه حكمته

---

(١) انظر: لابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٢-٢٣-٢١/٢٤٤).
(٢) سورة القصص، آية: ٤٩ – ٥٠ .
(٣) انظر: للألوسي، روح المعاني، مج (١٩-٢٠/٩٢).
(٤) سورة الروم، آية: ٢٩ .
(٥) انظر: المصدر السابق، مج (٢١-٢٢/٣٨) .

تعالى في إرسال الرسل بعضهم إثر بعض حتى لايطول الإنذار فتقسو القلوب وتنسى الشرائع، وتقوم الأمم على تحريف، وتأويل تلك الشرائع على حسب أهوائهم، وتبعا لشهواتهم، فقد وعد تعالى اتباع الهوى والشهوات بوعود قاسية لتحقيرهم، وتوبيخهم فلن يكون لهم ولي ولانصير ولا واق يقيهم عذابه، فعلى المؤمن أن يرجع إلى ربه ويثبت على حكمه وشرعه فمن أطاع هواه كان قلبه غافلا عن ذكر الله لسوء استعداده واتباع شهواته وإسرافه في ذلك غاية الإسراف، وتمادى في اجتراح الآثام، والأوزار فكانت النهاية الهلاك والعطب والخسران(١).

هذا وقد ذم رسولنا الكريم -ﷺ- (اتباع الهوى والشهوات) (**فعن أبي أمية الشعباني(٢)، قال أتيت أبا ثعلبة الخشني(٣) -رضي الله عنه- فقلت له كيف تصنع في هذه الآية؟ قال أية آية؟ قلت قوله:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾(٤)، **قال: أما والله لقد سألت عنها خبير، سألت عنها رسول الله -ﷺ- فقال: "بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا، وهوى مشبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع العوام فإن من ورائكم أياما الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم، قال**

---

(١) انظر: لأبي السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (٢٠٩/١)؛ المراغي، تفسيره، مج (١٦٥/١)، مجلد (١١٣/٥)؛ ولسعيد حوى، الأساس في التفسير، (٣٥٤/٧).

(٢) أبي أمية الشعباني الدمشقي اسمه يحمد، وقيل عبدالله بن أخامر، تهذيب التهذيب، (١٧/١٠).

(٣) أبو ثعلبة الخشني، اختلف في اسمه واسم ابيه اختلافا كثيرا، قيل إن اسمه جرثومه، وقيل جرهم؛ انظر: تهذيب التهذيب، (٥٣/١٠).

(٤) سورة المائدة، آية: ١٠٥.



عبدالله بن المبارك[١] وزاد في غير عتبة قيل يارسول الله! أجر خمسين منا أو منهم؟ قال بل أجر خمسين منكم"[٢].

" فالواجب الذي يلزم العمل به هو أن يكون جميع أفعال المكلف مطابقة لما أمره الله به معبوده جل وعلا، فإذا كانت جميع أفعاله تابعة لما يهواه، فقد صرف جميع مايستحقه عليه خالقه من العبادة والطاعة إلى هواه، فكونه اتخذ إلهه هواه في غاية الوضوح، فمن أضله الله فاتخذ إلهه هواه.......، فلا يكون أحد عليه وكيلا أي حفيظا يهديه، ويصرف عنه الضلال الذي قدره الله عليه؛ لأن الهدى بيد الله وحده لا بيد أحد"[٣].

وهذا ماكان من معنى في قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾[٤].

فالهوى والشهوات صادان عن الحق يذهبان نور الإيمان من القلوب، ويسلبان محاسن الوجوه، ويورثان البغضة في قلوب المؤمنين، وهما مصايد هلاك ، فالتوكل على الله تعالى من العبادات التي ينبغي أن يكون مبناها على الشرع والاتباع لسنة رسولنا -ﷺ- ، لا على الهوى والابتداع والشهوات، فالإسلام مبني على أصلين أساسيين :

أولهما: عبادة الله وحده لاشريك له .

ثانيهما: نعبده على ماجاء من شرع رسوله -ﷺ- .

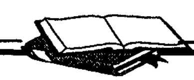
---

(١) عبدالله بن المبارك بن واضح الحنظلي التميمي، مولاهم أبوعبدالرحمن المروزي، ولد ١١٨هـ، وتوفي ١٥١هـ. انظر: تهذيب التهذيب، (٤/٤٥٧).

(٢) الترمذي (٣٠٥٨) واللفظ له، وقال حسن غريب؛ وأبوداود (٤٣٤١) ؛ وابن ماجه (٤٠١٤)؛ والبغوي في شرح السنة (١٤/٣٤٨) وقال محققه للحديث شواهد فيتقوى بها.

(٣) انظر: للشنقيطي ، أضواء البيان، (بيروت: عالم الكتب بدون تط) (٦/٣٣٠).

(٤) سورة الفرقان، آية: ٤٣ .



فنعلم من ذلك أن جميع المعاصي تنشأ من ترك الأصلين، وتقديم هوى النفس، وتخبط الشيطان، فينبغي على المرء المؤمن اللجوء إلى الله تعالى في دفع ذلك عن القلب، وماسمي الهوى هوى إلا لأنه يهوي بصاحبه إلى قعر جهنم، ولكن التأسي بصفات السابقين الأولين رضي الله عنهم وأرضاهم، ومحاولة تتبع ماحذروا منه، والسير على منهاجهم والتمسك بما جاءوا به، وتمسكوا به من حق، فقد اقتضت سنة الله تعالى في أن يبذل العبد لكل شيء مايناسبه، فللدنيا سعي، وللآخرة سعي وللفضائل سعي، وللرذائل سعي.

إن جميع العوائق، والحواجز السابقة المذكورة وغير المذكورة لايمكن علاجها إلا بمجاهدة النفس والاستعانة بالله تعالى والإنابة إليه، والتعود على تركها **فهداية الإنسان ممكنة إذا كفر بعقله وآمن بشهوته وعبد هواه**"[1].

---

(١) انظر: للجزائري، أيسر التفاسير (المدينة: مكتبة العلوم والحكم ط الثالثة، ١٤١٨هـ) (٦١٨/٤).



الفصل السادس

ثمـــرات التـــوكل على الله

وفيـــه :

تمهيد .

المبحث الأول: تحقيق الإيمان .

المبحث الثاني: السكينة والثبات .

المبحث الثالث: الأمل والرجاء .

المبحث الرابع: محبة الله تعالى ودخول الجنة بغير حساب.

المبحث الخامس: الرضا والصبر .

المبحث السادس: العزة والقوة .

المبحث السابع: يقي من تسلط الشيطان والسحر والحسد والعين.

المبحث الثامن: كشف الهم والكرب.

المبحث التاسع: يورث الرزق ويجلب المنافع ويدفع المضار.

المبحث العاشر: الدخول في كنف وكفاية الله.

المبحث الحادي عشر: الفوز والغلبة .

المبحث الثاني عشر: التسليم للقضاء والقدر.

الفصل السادس
ثمرات التوكل على الله

التمهيد:

إن القرآن الكريم كتاب الله للعالمين لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تعهده سبحانه بالحفظ إلى يوم القيامة .

كتاب نزل تشريعا، ونزل بليغا، ونزل منهاجا، ونزل لترسيخ عقائد وسلوك، تقوم هذه العقائد بالمرء إلى السمو والتعالي، فالهدف الأسمى منه هو توحيد العبادة لله وإخلاصها له، وسلامة القصد والعمل من الانحراف عن جادة الحق في عبادة الله أو معاملة المخلوقين، وبهذا نصل إلى سعادة الدنيا والآخرة ونيل الثواب والمكرمات.

قال تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[١].

فكل عمل أمرنا به الله عز وجل هو تمجيد له سبحانه؛ ولأن العمل يكمل به الإيمان ويدل على وجود الإيمان، يقول الرسول -ﷺ- في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- **"أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا"**[٢].

فالقرآن والإسلام يقيمان أخلاقا على أسس روحية ضرورية لبناء صرح أخلاقي ثابت، فالعمل الصالح، وكذلك الخلق الحسن هو الثمرة المباركة للإيمان، ونور الإيمان يضيء للمؤمن طريقه، وبنور الإيمان يجد المؤمن نفسه في سكينة

---

(١) سورة النحل، آية: ٩٧ .

(٢) الترمذي (١١٦٢) وقال: هذاحديث حسن صحيح؛ وأبوداود (٤٦٨٢)؛ وأحمد (٥٢٧/٢)؛ والبيهقي في الشعب (٢٦/١) وقال مخرجه: إسناده عنده حسن؛ والحاكم في مستدركه (٣/١)، وسكت عنه، وقال الذهبي: صحيح؛ وذكره الألباني في الصحيحة (٢٨٤).

وثبات، وأمل ورجاء، وفي رضا وصبر، لما قدر وكتب الله، ويكون بنور الإيمان في عزة وقوة ومامن مؤمن يُقبل على الإيمان إقبالاً صادقاً باتباع الأوامر، واجتناب النواهي إلا وكان له من الجزاء الغنى والكفاية، وكشف الهم والفوز والغلبة فهذه الجزاءات، وهذه الثمرات "**مكافأة من الله تعالى على فعل المؤمن**"[1] في توكله على ربه، فهذه الثمرات دافع قوي لتقوية الثقة واللجوء والاستعانة والإنابة إلى الله تعالى، والاعتماد عليه في كل أمر من الأمور الدينية، والدنيوية، والرضا بقضائه وقدره خيره وشره.

والتوكل على الله عز وجل يكون في استجلاب المنافع، ودفع المضار في أمور الدنيا والآخرة وقد جعل الله عز وجل لكل عمل من أعمال البر ومقام من مقاماته جزاء معلوما، وجعل كفايته جزاء المتوكل عليه ، قال تعالى:﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[2].

فلنتأمل هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل، ولم يجعله لغيره، وماهذا إلا دليل على أن التوكل على الله من أقوى السبل عنده وأحبها إليه فكل شجرة لها ثمار، ومن ثمار التوكل على الله عز وجل مايلي هذا التمهيد الوجيز .

---

(١) انظر: للكفوي، الكليات، (١٧٨/٢)؛ والأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص٩١؛ وللفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص ١٦٤٠.

(٢) سورة الطلاق، آية: ٣ .



المبحث الأول

تحقيق الإيمان

إن أول مايجب على الإنسان أن يكون موقنا من قلبه بوجود الله تعالى، ويجب عليه أن يعرف أسماء الله وصفاته سبحانه حتى يمسك نفسه عن الخروج عن أمره سبحانه، ويعمل على طاعته ولايكون ذلك إلا بالعلم المتمكن من أعماق القلب ليأمن قلبه، وحياته من العمل المخالف لله ولرسوله ﷺ .

والتوكل على الله من أعلى مقامات الإيمان، حيث لا إيمان إلا بالتوكل على الله وقد تقدم سابقا أن من فضل التوكل على الله أن ربطه سبحانه بالتوحيد، فصلة الإيمان بالتوكل كصلة البذرة بالشجرة، قال تعالى: ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٢].

فمن هذه الآية ظهر لنا التلازم بين الإيمان والتوكل على الله.

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[٣].

وفي هذه الآية كان التوكل على الله شرطا لتحقيق الإسلام.

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٢٢.

(٢) سورة المائدة، آية ٢٣ .

(٣) سورة يونس، الآية ٨٤-٨٥.

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(١).

وقـال تعـالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(٢).

وعلى هذا فالتوكل على الله أصل جامع تتفرع عنه العبادات والأفعال، وهو خلاصة ونهاية تحقيق التوحيد وهو أحد مباني توحيد الألوهية وهو وجه كمال إيمان المؤمنين(٣).

---

(١) سورة التغابن، آية ١٣.

(٢) سورة الملك، آية ٢٩.

(٣) انظر: لسليمان ابن عبدالوهاب، تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، (المكتب الإسلامي، ط الرابعة) ص١١٠.

المبحث الثاني

السكينة والثبات

إن التوكل على الله من شجر الإيمان الراسخ الذي ترسخ جذوره في قلب المؤمن، ويتمكن منه، ويثمر ثمارا يانعة، ويعطي الظلال الباردة، ومن ثمراته السكينة والطمأنينة والثبات، فصاحبها يتعاهدها باستمرار، ويلاحظ نموها باستمرار، ويجني من ثمارها، مايجني في النفس والحياة الاجتماعية " **فالسكينة هي مايجده القلب من الطمأنينة عند تنزل الغيب، وهي نور في القلب يسكن إليه شاهده ويطمئن، وهي زوال للرعب، وهي آمنة تسكن عندها القلوب**"[١].

فالسكينة من خلال تعريفها السابق هي من لطائف صنع الحق، فإذا نزلت على القلب اطمأن بها، وسكنت إليها الجوارح وخشعت، واكتسبت الوقار، وانطلقت اللسان بالصواب والحكمة، ويكون صاحبها إلى الله راغبا، ويكون بين يدى الله ربه متجردا من الأهواء، فهذه السكينة متضمنة النور، والقوة والروح، فالروح حياة القلب، وبالنور يميز بين الحق والباطل، وبالقوة توجب له الصدق، وضبط النفس، ويزداد بذلك إيمانا مع إيمانه[٢].

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾[٣].

مباشرة السكينة القلب تثبته وتلهمه العزم، والإرادة، والاتباع لكل مايحبه الله ويرضاه من الأعمال، والأقوال، وبهذا يحصل اليقين، والرضى بكل ماقسم الله تعالى له من النصر والظفر.

---

(١) انظر: للجرجاني، التعريفات، حققه إبراهيم الإبياري، (بيروت: دار الكتاب العربي تط الرابعة ١٤١٨هـ)، ص١٢٥؛ وللمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، حققه عبدالحميد حمدان، (القاهرة تط ١٤١٠هـ)، ص١٩٦؛ وللكفوي، الكليات، (٣/٤٧)؛ وللأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص٢٤٣؛ وللفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص١٥٥٦.

(٢) انظر: لابن القيم، مدارج السالكين، (٢/٥٢٧-٥٢٩).

(٣) سورة الفتح، آية: ٤ .

فالعبد حينما يرضى ويعلم أن ماقسم له من الله خالقه يفوض أمره إلى الله ويطمئن لما قسم له من نصر وظفر فإذا توكل العبد على الله حق توكله أنزل عليه السكينة والثبات.

قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(١).

فهذا بيان من الله تعالى بأن من استيقن ملاقاته هو من يثبت ويسارع إلى الجهاد، وبقضائه وقدره سبحانه ينصر ويقوي قلوب المؤمنين، فهذه التجربة تكمن في ثناياها العبر ومن العبر أن القلب الذي يتصل بالله في جميع أموره تتغير موازينه وتصوراته لأنه يرى بعين الله تعالى، فالقلب تحقق له الإيمان الصحيح، والاطمئنان والسكينة إلى قدر الله والمضي في حمل التكاليف والواجبات دون هلع ولاجزع فالمقدر كائن والموت والحياة بيد الله في نهاية المطاف(٢).

فلايسكن إنسان بكثرة عداده، وعدته فإن النصر بيده ومن عنده وليس بكثرة العدد وشدة البطش، ولنا في معارك رسول الله -ﷺ- الدروس والعبر.

قال تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾(٣).

دارت المعركة بأمر الله ومشيئته، أقبل المؤمنون على المعركة بكل عزم وقوة ولكن في النفس شيء من الخوف فهم قلة مستضعفة ورسول الأمة يستقبل القبلة وعليه ردائه وإزاره يقول: " **اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام، فلا تعبد**

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٤٩.

(٢) انظر: للبغوي، معالم التنزيل، (٣٤٨/١-٣٤٩).

(٣) سورة الأنفال، آية: ١١-١٢.

في الأرض أبدا"، فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يانبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ماوعدك، فأنزل الله عزوجل: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾[(١)]، لقد فزع المسلمون وهم يرون أنفسهم قلة في مواجهة خطر لم يحسبوا حسابه فإذا بالنعاس يغشاهم، ثم يصحون منه والسكينة تغمر نفوسهم والطمأنينة مددا من أمداد الله للعصبة المسلمة يوم بدر، وهكذا مضت الأحداث والنصر لاحت بشائره وتم بحمد الله[(٢)].

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾[(٣)].

إن معركة حنين من المعارك المهمة التي محص الله بها قلوب المؤمنين، "تمهدت الأمور وأسلم عامة أهل مكة، وأطلقهم رسول الله -ﷺ- فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم مالك بن عوف النضري، ومعه ثقيف بكمالها، وبنو جشم، وبنو سعد بن بكر وأوزاع من بني هلال، وهم قليل وناس من بني عمرو، وعوف بن عامر، وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم، جاءوا بقضهم، وقضيضهم فخرج إليهم رسول الله -ﷺ- في جيشه الذي جاء معه للفتح، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، وقبائل العرب ومعه الذين اسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء في ألفين فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له (حنين) فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح،

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٩ .

(٢) انظر: للبغوي، معالم التنزيل، (٢/٦٠٤)؛ ولسيد قطب، الظلال، (٣/١٤٨٤).

(٣) سورة التوبة، آية: ٢٥-٢٦ .

انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن فلما توجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم ورشقوا بالنبال وأصلتوا السيوف وحملوا حملة رجل واحد، كما أمرهم أميرهم، فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين وثبت رسول الله وهو راكب بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو، والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن، وأبو سفيان ابن الحارث بن عبدالمطلب آخذ بركابها الأيسر يثقلانها لئلا تسرع السير وهو ينوه باسمه عليه الصلاة والسلام ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول إلي عباد الله إلي أنا رسول الله، ويقول في تلك الحال: " **أنا النبي لاكذب أنا ابن عبدالمطلب** " وثبت معه من أصحابه قريب من مائة، ومنهم من قال ثمانون، فمنهم أبوبكر، وعمر رضي الله عنهما، والعباس، وعلي والفضل بن عباس، وأبوسفيان بن الحارث، وأيمن ابن أم أيمن، وأسامة بن زيد وغيرهم رضي الله عنهم، ثم أمر رسول الله -ﷺ- عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادي بأعلى صوته يا أصحاب الشجرة يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على أن لايفروا عنه فجعل ينادي بهم ياأصحاب السمرة، ويقول تارة يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون يالبيك يالبيك، وانعطف الناس فتراجعوا إلى رسول الله -ﷺ- حتى أن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع لبس درعه، ثم انحدر عنه وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله -ﷺ- أن يصدقوا الحملة وأخذ قبضة من تراب بعد مادعا ربه واستنصره وقال: "**اللهم أنجز لي ماوعدتني**" ثم رمى القوم بها فما بقي إنسان إلا وأصابه منها في عينيه وفمه ماشغله عن القتال، ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون وماتراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله - ﷺ -"[1].

فهذه المشاهد العظيمة فيها عبر ودروس مستفادة .

" **فأولا: نصر الله تعالى المؤمنين، وأنزل عليهم الآمنة والطمأنينة حال النصر وحال الهزيمة.**

---

(١) انظر: لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٢، ص٥٣٧-٥٣٨) .

ثانيا: الإعجاب بالكثرة، والغفلة عن سبب النصر، سببان في الهزيمة في أول المعركة.

ثالثا: حكمة الله تعالى في الهزيمة أولا، ثم الخروج من المعركة بالنصر الحاسم المجلجل.

رابعا: شجاعة الرسول -ﷺ- تجلت في وسط المعركة، وخوضه المعركة مع أصحابه وهو متوكل على ربه يدعوه ويلح في الدعاء " **اللهم أنجز لي ماوعدتني**"، فهذه مقولة الصادق الصدوق.

خامسا: الرسول الكريم وقد انكشف عنه جيشه وهو على بغلته وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه وماهذا إلا ثقة في الله وتوكلا عليه، وعلما به أنه سينصره ويتم ماأرسله به ويظهره.

فالله تعالى أنزل السكينة ليثبت القلوب الطائرة القلقة ويهدي الانفعالات الثائرة"[1].

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[2].

المؤمن حريص على لقاء العدو كثيره أو قليله لنيل النصر أو الشهادة، والله تعالى بوعده الذي لايخلفه يمدهم بالثبات، وهذا من عوامل النصر الحقيقية، وهو بدء الطريق إلى النصر، فأثبت الفريقين أغلبهما، ولكن ماترجوه الفئة المؤمنة غير ماترجوه الفئة الأخرى وليعلم من ذلك المؤمنين أن الكثرة لاتنفع وأن الذي أوجب النصر هو الله سبحانه وتعالى، والسكينة المنزلة على قلوب المؤمنين، توجب الأمن

---

(١) انظر: لسيد قطب، في ظلال القرآن، (٣/١٦١٦).

(٢) سورة الأنفال، آية: ٤٥ .

والطمأنينة، فالإنسان إذا خاف غرو فؤاده تحرك، وإذا آمن سكن، وثبت ، فالآمن موجب للسكون، كناية عن الأمن(١).

فالسكينة الحقيقية مايجعلها الله وقت المفزعات خاصة، وهي من نعم الله العظيمة على العباد حينما تقوى الصلة بين العبد وربه، ويعلم أن غيره لن ينفعه، ولن يضره، فها هي الكثرة لم تغن عنهم شيئا بل أصابتهم بالهم، والغم على رحبها، وسعتها، فيوم حنين هزموا بالكثرة، ونصروا بقوة الله تعالى " **فإن التجرد لله، وتوثيق الصلة به هي عدة النصر التي لاتخذل المؤمنين حين تخذلهم الكثرة في العدد والعتاد، وحين يخذلهم المال، والاخوان، والأولاد، فأنزل الله تعالى ذلك الرداء رداء السكينة فألبسها قلوب المؤمنين؛ ليثبت القلوب، ويهدئها، فلايتهاون امرؤ في توثيق صلته بالله تعالى، فمن عجب بنفسه وماله كان له من العقبات الكبيرة في سبيل النجاح، والظفر، وليعلم كل مؤمن فضل الله تعالى عليه وإكرامه**"(٢).

قال تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٣).

إن خروجه -ﷺ- هي من بشائر النصر فقد خرج من مكة بأمر من ربه سبحانه فأنزل الله السكينة والطمأنينة عليهما، والتأييد، والصون لرسولنا الكريم -ﷺ-، فالمتتبع لسيرة الرسول -ﷺ- يعلم من خلالها يقينا أنه أشد الناس؛ لأنه سيد

(١) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، (٨/١٦-٢٣)؛ ولابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٥٣٩/٢)؛ ولابن الجوزي، زاد المسير، (٤١٦/٣)؛ وللطبري، جامع البيان، (٩٦/٤).

(٢) انظر: لسيد قطب، الظلال، (١٦١٨/٣-١٦١٩)؛ للجزائري، أيسر التفاسير، (٣٥٥/٢).

(٣) سورة التوبة، آية: ٤٠ .

أولي العزم من الرسل وأشجعهم فحصار بيته في مكة، وخروجه منها بيان من الله لنصرة رسوله وبداية وتباشير للنصر، فالله تعالى مؤيد رسوله وكافيه وصحبه، فأنزل السكينة والطمأنينة وبهما سكنت النفس، واطمأنت وذهب الخوف"[١].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[٣].

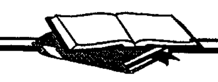
وقال تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٥].

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[٦].

---

(١) انظر: لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٥٥٩/٢)؛ وللطبري، جامع البيان، ج٤، ص١١؛ ولوهبه الزحيلي، التفسير المنير، (٩-٢١٨/١٠).
(٢) سورة الفتح، آية: ٤.
(٣) سورة الفتح، آية: ١٨.
(٤) سورة الفتح، آية: ٢٦.
(٥) سورة البقرة، آية: ٢٤٨.
(٦) سورة التوبة، آية: ٢٦.



وقال تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

فهذه الآيات الكريمة السابقة التي ذكرت لفظ (السكينة) قال فيها "ابن القيم[2] **كان شيخ الإسلام ابن تيميه[3] – رحمه الله تعالى – إذا اشتدت عليه الأمور قرأ آيات السكينة، وسمعته يقول في واقعة عظيمة جرت له في مرضه لما اشتد علي الأمر قلت لأقاربي ومن حولي، اقرأوا آيات السكينة، قال: ثم أقلع عني ذلك الحال وجلست ومابي قلبة"[4]**

فالآيات التي ذكرت السكينة هي بيان بمكافأة الله لرسوله والمؤمنين وذلك باليقين والثبات للقلوب المتوكلة على ربها وهي تشعر بالأمن والسكينة والثبات إذا إضطرب، وقلقو، ويئسو، وسخطو الناس.

فحالة السكينة والثبات أشبه بعبد هرب إلى مخبأ يأوي إليه مليء بالذخيرة من فقر إلى الله ولجوء، وإنابة، وتوكلا وإستعانة، ويقين يملأ النفس ظاهرا وباطنا.

فهذه السكينة الربانية ماهي إلا تهدئة الفورة، وتخفيف الحمية، واطمئنان القلب لحكم الله، وحكمة رسوله -ﷺ- في المهادنة، والملاينة وعن رضى الله عن المبايعين تحت الشجرة، وهذه السكينة ماهي إلا الطمأنينة، والراحة واليقين، والثقة، والوقار، والثبات والاستسلام، والرضى، فهذه جميعها انفعالات تجول في النفس المؤمنة المطمئنة الوقورة الهادئة التي تليق بالمؤمن، وتلازم قلبه المؤمن الموصول

---

(١) سورة التوبة، آية: ٤٠ .

(٢) سبقت ترجمته، ص ١٥٩ .

(٣) أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيميه، تقي الدين، أبوالعباس، توفي سنة ٧٢٨هـ. انظر: البدر الطالع، (٦٣/١).

(٤) انظر: لابن القيم، مدارج السالكين، (٥٢٥/٢) .

بربه الساكن بهذه الصلة، المطمئن لما فيه من ثقة، المراقب لربه في كل خالجة، وكل حركة، فلايتبطر، ولايطغى، ولايغضب لذاته إنما يغضب لربه ودينه، فإذا أمر أن يسكن ويهدأ خشع وخنع وأطاع في رضى وسكينة[١].

فالله تعالى علم من المؤمنين الصدق، والوفاء، والسمع، والطاعة بعدما ألزمهم كلمة لا إله إلا الله فأنزل عليهم الطمأنينة، وأثابهم الفتح الذي أجراه سبحانه على أيديهم من الصلح، وماحصل بعد من الخير الجزيل المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وماحصل لهم من العزة والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة[٢].

لقد أوجد الله تعالى وخلق السكينة لتقوية معنويات المؤمنين، فالحرب تظهر عزائم المؤمنين، وقوة إيمانهم، فقد انهزم المسلمون يوم أحد، وقتل من قتل منهم، وتقهقر من تقهقر، وثبت من ثبت، وقد مدح الله تعالى من ثبت، وصابر، وصبر فهؤلاء لم يضعفوا، ولم يستكينوا لما أصابهم فأثابهم الله تعالى بالنصر والظفر والتمكين، وجمع لهم ذلك.

قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾[٣].

إن طاعة الرحمن تتطلب وتقتضي إيمانا راسخا كالجبال الراسيات فامتثال الأوامر فيه الخير الوفير إن عاجلا أو آجلا في الدنيا والآخرة معا.

---

(١) انظر: لسيد قطب، في ظلال القرآن، (٦/٣٣١٧-٣٣٢٩).

(٢) انظر: لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٤/٢٩٣-٢٩٨)؛ وللرازي مفاتيح الغيب، (١٤-١٥/٨٠-١٠٠)؛ ابن الجوزي، زاد المسير، (٧/٤٢٤-٤٤١).

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٤٦-١٤٧.

فالسكينة والثبات من ثمرات التوكل على الله فهما من علامات اليقين والثقة برب العالمين، ودليل كمال الإيمان وحسن التوكل، ويفضيان إلى الرضا بما قسم الله وهما من صفات العلماء والأولياء ومن كان على أثرهم سيكون في زمرتهم وصحبتهم.

فديدن أصحاب رسول الله -ﷺ- في السابق واللاحق وبين الحينة والحين يذكرنا الله تعالى ويذكر المؤمنين، بما أمتن عليهم من فضله في يوم بدر فقد كان النعاس أمانا لهم، آمنهم به من خوفهم الذي حصل لهم فقد ربط تعالي على قلوب المؤمنين بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء وتثبيت الأقدام من الفرار ومعية الله بالإعانة والنصر والتأييد، فهذه القوة الإيمانية، والتعلق بحبل الله، والتوكل عليه فهو سبحانه الرافع المعز الناصر فكل من عمل بأمره سبحانه ورسوله، وترك مانهاه عنه ورسوله سيكافأ بما هو أهل له، فكل من زاد إيمانه زاد تصديقه ويقينه، وسكينته وثباته وكان جزاؤه الجنة.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾[1].

---

(١) سورة النساء، آية: ٦٦ .



المبحث الثالث
الأمل والرجاء

المؤمنون ليسوا على درجة واحدة في معرفة أسماء وصفات الله تعالى كما أشرنا إلى ذلك؛ ولهذا تتفاوت درجات إيمانهم؛ ولذلك فإن المؤمنين المهتدين يؤمنون بأسماء الله وصفاته فيدعون الله بأسمائه، ويصفونه بصفاته غير مشبهين صفاته بصفات المخلوقين، ولامؤولين، ولامعطلين، مع الاعتقاد الجازم بأن الله ليس كمثله شيء، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[١].

والقرآن العظيم عرض كثيرا من صفات أهل الإيمان، وتحدثت آياته عن أهمها، ودعت المؤمنين للاتصاف بها حتى يعيشوا حياة إيمانية مباركة، والإيمان والعمل بها يكسب صاحبها نفعا عاما مجزيا ويمنحه مكاسب ضخمة، وأرباحا في الدنيا والآخرة.

إن الإيمان والعمل بالتوكل الصحيح ينفع صاحبه نفعا ملحوظا في عالم الفضائل والقيم والأخلاق وفي عالم السعي والحركة والعمل والحياة ... فمن هذه المكاسب والثمرات الأمل والرجاء، والرجاء المقصود هنا بمعنى **" الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه، وقيل هو النظر إلى سعة رحمة الله"**[٢].

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٣]. فالرجاء تغلغل في قلوبهم بعد توكلهم على الله وملأهم الأمل في النجاة.

إن المؤمنين المهاجرين **" فارقوا أوطانهم وعشائرهم ويطمعون في ثواب الله فهموا يتوقعونه، ويرجونه، والله تعالى يحقق لهم رجاءهم**

---

(١) سورة الشورى، آية: ١١ .
(٢) انظر: ابن القيم، مدارج السالكين، (٣٧/٢).
(٣) سورة البقرة، آية: ٢١٨ .

إذا ماتوا على الإيمان والعمل الصالح"[١].

فالمؤمنون المهاجرون المجاهدون صدقوا الله ورسوله، وفارقوا الأهل والأوطان وتركوا مساكنة المشركين في ديارهم، وكرهوا سلطان المشركين، فهاجروا توكلا على الله وخوفا من الفتنة في الدين، ولإعلاء كلمة الله ونصرة دينه، وحاربوا في سبيل الله، ولحقوا بالنبي -ﷺ- ، فأولئك يطمعون في رحمة الله وأولئك هم الكمل، فالله يجازيهم أحسن الجزاء؛ لأنهم قد استفرغوا مافي وسعهم، وبذلوا غاية جهدهم، ولم يدخروا وسيلة فيها مرضاة لربهم إلا وفعلوها، فحق لهم أن ينالوا الفوز والفلاح والسعادة، والله تعالى واسع المغفرة للتائبين المستغفرين، عظيم بالمؤمنين يحقق لهم رجاءهم إن شاء بعميم فضله وعظيم طوله، قال قتادة[٢]: "هؤلاء خيار هذه الأمة، قد جعلهم الله أهل رجاء، ومن رجا طلب، ومن خاف هرب"[٣].

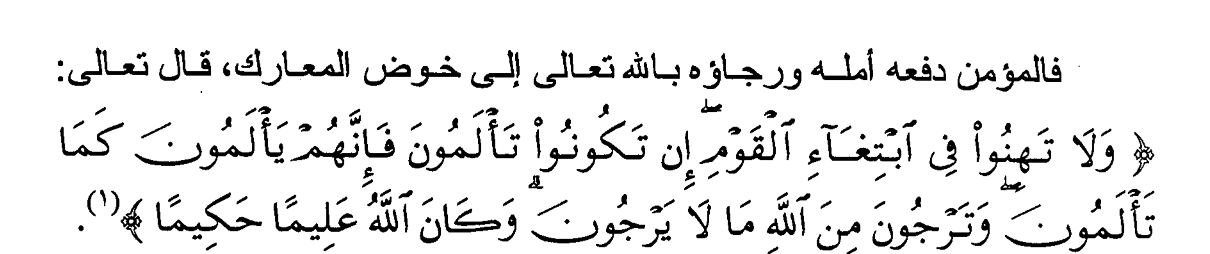
فهذه الهجرة العظيمة في أسبابها العظيمة وفي نتائجها أصحابها رضي الله عنهم منعوتون بنعوت جليلة لهم مايرجونه من الفوز المتفضل به الله تعالى عليهم[٤].

> **"فكل من هاجر فرارا بدينه لإقامته نال من الله تعالى رجاءه وأمله وذلك؛ لأنه خرج مهاجرا مؤمنا مجاهدا فاجتماع الأوصاف الثلاثة كفيلة بإذن الله تعالى لحصول، وترقب الخير، وكذلك تغليب ظن حصوله، فإن وعد الله وإن كان لايخلف فضلا منه وصدقا، ولكن الخواتم مجهولة ومصادفة العمل المراد لله قد تفوت لموانع لايدريها المكلف ولئلا يتكل في الاعتماد على العمل"**[٥].

---

(١) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، (٤١/٦-٤٢).
(٢) أبو طالب، قتادة ابن دعامة السدوسي الأكمه، توفي سنة ١١٧هـ؛ انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي، (٢٦٩/٥) .
(٣) انظر: للمراغي، تفسيره، (١٣٧/١) .
(٤) انظر: لأبوالسعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (٢٥٥/١).
(٥) انظر: لابن عاشور، التحرير والتنوير، (٣٣٧/٢-٣٣٨) .

فالمؤمن دفعه أملـه ورجاؤه بالله تعالى إلى خوض المعارك، قال تعالى:



﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[1].

فالآية تتضمن معنى واضح ألا وهو" **لاتضعفوا في طلب القوم، ولاتتوجعوا فإنكم إن تكونوا تتوجعون فإنهم يتوجعون كما تتوجعون، ويرجون من الأجر والثواب مالايرجون**"[2].

وفي هذه اللحظة تتداخل المشاعر في القلوب ويحتاج القلب إلى زاد فيأتي التوكل على الله فيشع ويعلو القلوب بالأمل والرجاء في الله تعالى فيترقب المؤمنون ويتجهون لله تعالى فينهى الله المؤمنين عن الضعف والتوجع؛ لأن المشركين بالمقابل يتوجعون ويريدون إنزال الهزيمة بالمؤمنين مع تألمهم، ويرجون النصر، والمؤمنون كذلك يرجونه، فالله تعالى هنا يشحذ همم المؤمنين بتشجيعهم على مواصلة الجهاد، والجلد، والصبر على مقاتلة العدو، والله تعالى عليم بالأحوال التي صاروا إليها، والظروف الملابسة، ولكنه سبحانه حكيم في شرعه بالأمر والنهي يطمئنهم على حسن العاقبة لهم بالنصر على أعدائهم .

فمن هنا نرى أن العمل مشترك بين المؤمن، والكافر فالكل يعمل ويرجو ويأمل، ولكن المؤمن يبتغي بعمله وجه الله، والكافر يبتغي بعمله الدنيا والرياء والسمعة.

إن حصول الألم قدر مشترك بين الفئتين، فلما لم يصر خوف الألم مانعا للفئة الباغية الكافرة من قتالكم، فكيف يصير مانعا للفئة المؤمنة عن قتالهم، فالله تعالى يزيد في تقرير الحجة ويعلم المؤمنين بأولويتهم بالمصابرة على القتال من المشركين؛ لأن المؤمنين مقرون بالثواب والعقاب والحشر والنشر، والمشركين لايقرون بذلك، فإذا كانوا مع إنكارهم الحشر والنشر يجدون في القتال، فالمؤمنون

---

(١) سورة النساء، آية: ١٠٤.

(٢) انظر: للسيوطي عن قتادة، الدر المنثور، (٢/٦٦٨)... ومابعدها.

مع ذلك أولى بأن يكونوا مجدين في هذا الجهاد الذي في فعله الثواب العظيم، وفي تركه العقاب وهذا المراد من قوله: ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ والله تعالى لايكلف المؤمنين شيئا، ولايأمرهم ولاينهاهم إلا بما هو سبب لصلاح الدنيا والدين[١].

" بهذا التصوير يفترق طريقان، ويبرز منهجان، ويصغر كل ألم، وتهون كل مشقة، ولايبقى مجال للشعور بالضنى، وبالكلال ... فالآخرون كذلك يألمون، ولكنهم يرجون من الله مالاترجون، .... فالمؤمنون يتحملون الألم وليسوا وحدهم الذين يتحملونه ولكن شتان بين هؤلاء وهؤلاء، فالمؤمنون يتوجهون إلى الله بجهادهم ويرتقبون، ويأملون عنده جزائهم، والكفار ضائعون لايرتقبون، ولايأملون شيئا، وإن مرت على الجماعة المؤمنة فترة من المهاتفات النفسية اليائسة، ولكن القاعدة لاتتغير فالباطل لايكون بعافية أبدا، حتى ولوكان غالبا فإنه يلاقي الآلام من داخله، ولكن العزاء العميق للجماعة المؤمنة هو {وترجون من الله مالايرجون} وهذا هو مفرق الطريق"[٢].

" إن المؤمنين المخلصين يعلمون أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر فيه، والطاعات جارية مجرى تنقية الأرض وتطهيرها، ومجرى مفر الأنهار، ومساقي الماء إليها"[٣].

وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[٤].

---

(١) انظر: للرازي، مفاتيح الغيب، مج (١١-١٢/٣١-٣٢).
(٢) انظر: لسيد قطب، (٧٣٩/٢-٧٥٠).
(٣) انظر: للمقدسي، مختصر منهاج القاصدين، ص٢٩٧.
(٤) سورة العنكبوت، آية: ٥ .

فالمعنى " **من كان يطمع في ثواب الله فإن وعد الله من الثواب والعقاب لكائن، فمن يخشى الله أو يأمله فليستعد له وليعمل لذلك اليوم**"[١] الذي يكون فيه الله تعالى غني عن جميع خلقه، له الملك والخلق والأمر.

" فهذه بشارة من الله تعالى لكل محب مشتاق لقرب ربه، ولقائه، المسارع في مرضاته، ليبشر بقرب لقاء الحبيب، فإنه آت، وكل ماهو آت، قريب. فينبغي التزود للقاء الله، والسير نحوه، مستصحبين الرجاء، ومؤملين الوصول إليه، ولنعلم أن ماكل ماندعوا به سيعطى لنا، ولا كل ماتتمناه، ولكن نؤمن أن الله تعالى مع الصادق يعطيه مايرجو، والكاذب لاتنفع دعواه"[٢].

إن المؤمن الحق هو الصادق، وهو من يتأمل الخير، وينتظر وقوعه من شدة قربه بالله وإحساسه بسعة رحمة الله، والاستبشار بجود وفضل الله تعالى.

فيعمل العبد ويقرن أعماله بالتوكل على الله ويسعى لمرضاة ربه ومرضاة رسوله، فعمل الإنسان وعبادته لاتكفي لحصول النتائج بل الله صاحب القدرة والمشيئة في كل الأمور ولكن مع هذا يظل العبد المؤمن يتوكل على الله وحده لتحقيق المراد والمصاير وقبول الأمر بأمل ورجاء في الله تعالى .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ۝٣٠ ﴾[٣].

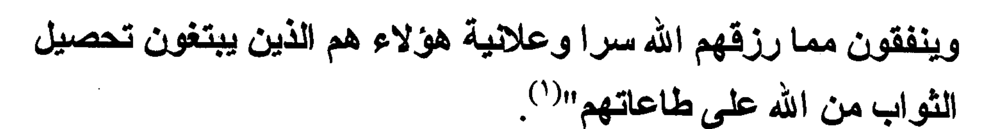
" الآية خاصة فيمن قرأ القرآن وأقام الصلاة فهي آية القراء العالمين بكتاب الله العاملين بما فيه، الذين يقيمون صلاة الفرض والنفل،

---

(١) انظر: للبغوي، معالم التنزيل، (٣٦٥/٤).

(٢) انظر: للسعدي، تيسير الكريم الرحمن...، (٤٦/٤).

(٣) سورة فاطر، آية: ٢٩-٣٠.



وينفقون مما رزقهم الله سرا وعلانية هؤلاء هم الذين يبتغون تحصيل الثواب من الله على طاعاتهم"[١].

الآية خاصة ولكنها من الخاص الذي يطلق على العام بمعنى تلاوته عن تدبر وإدراك وتأثر وإلى عمل وسلوك، فالمؤمن هو من يقيم أعماله جميعها بكمال شرائطها ويطلبون بها وجه الله حتى يوفيهم سبحانه ثواب ماعمله، ويضاعف له بزيادات لم تخطر له، غفور للذنب، شكور للطاعة، وللقليل من الأعمال.

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٢].

الآية تصف وتصور قلب المؤمن الخائف الوجل الذي يذكر الله ولاينساه في السراء ولا في الضراء، الذي يعيش حياته في الأرض وفي حذر من الآخرة، وفي تطلع إلى رحمة ربه، وفضله فالمؤمن يتقي ويحسن العمل، ويبذل الطاقة في العمل، وبهذا فهو لايستوي مع من لايعمل ولايحسن .

فالآية تدل على المطيع لله ورسوله، وفي نفس الوقت يحذر عذاب الآخرة، ويسأل الله تعالى أن يقيه منه، ويرجو رحمة ربه، ويأتي على محاب الله تقربا إليه، وعلى ترك مكارهه تحسبا إليه فهذا لايستوي مع الذي يعمل مايحب ومايكره فهو يتخبط في الضلال تخبط الجاهل[٣].

والآية مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره، فهذه من الأمور التي تقرر في العقول، تباينها، وعلم يقينا تفاوتها، فالعامل بطاعة الله يؤثر العمل الأعلى على الأدني، ويؤثر العلم على الجهل، وطاعة الله على مخالفته؛ لأن له عقلا يرشده للنظر في العواقب، بخلاف من لا لب له، ولاعقل، فإنه يتخذ إلهه هواه[٤].

(١) انظر: للبغوي، معالم التنزيل،(٤/٥٢٥) .
(٢) سورة الزمر، آية: ٩ .
(٣) انظر: للطبري، جامع البيان، (٦/٣٧٣).
(٤) انظر: للسعدي، تيسير الكريم الرحمن، (٤/٢٩٥) .



كذلك الآية تدل على أن المداومة على العمل الصالح والطاعة الخاصة إذا كان بعيدا عن الرياء، وأيا كان العمل، وبأي شكل، وبأي صنف هو المعول عليه وهو الركيزة الأساسية في الأجر والثواب.

كذلك الآية " **دالة على أسرار عجيبة، فأولها: أن الآية بدأت بذكر العمل. وثانيها: أن الآية ختمت بذكر العمل، أما العمل فكونه قانتا قائما، والعلم فقوله {هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون} فهذا يدل على أن كمال الإنسان محصور في هذين المقصودين فالعمل هو البداية والعلم والمكاشفة هي النهاية**"(١).

وقال تعالى: ﴿ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾(٢).

فهذا ماكان من أمل ورجاء يعقوب ابن إسحاق عليهما السلام؛ لأنه علم بأن الله حكيم في تدبيره خلقه وماقال كلمته ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ إلا تعليلا لرجائه من الله بأن الله عليم فلا تخفى عليه مواقع ابنيه المتفرقة، حكيم قادر على إيجاد أسباب جمعهم بعد التفرق(٣).

فالمرء مهما طال عليه الحزن والضيق والبلاء، فليعلم أن الله سيجعل له فرجا ومخرجا عن قريب " **فهذا يعقوب طال حزنه وبلاؤه، ومحنته فعلم أن الله سيجعل له فرجا ومخرجا فقال**﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ **قال ذلك على سبيل الأمل وحسن الظن برحمة الله)**(٤)، فلم يتسرب اليأس من رحمة ربه لحظة واحدة إلى قلبه، ولكن الأبوة الموجعة (**وراءها أمل في الله أن يرد عليه ولديه بما فيهم كبيرهم الذي أقسم ألا يبرح حتى يحكم الله له وإنه لأمل عجيب في ذلك القلب الوجيع**﴿ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗا

---

(١) انظر: للرازي، مفاتيح الغيب، مج ١٣-١٤، (٢٦/٢٥٠) .
(٢) سورة يوسف، آية: ٨٣.
(٣) انظر: لابن عاشور، التحرير والتنوير، ح١٣-١٤-١٥، (١٣/٤١).
(٤) انظر: للرازي، مفاتيح الغيب، مج٩، (١٧-١٨/١٩٦) .

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، كلمته ذاتها يوم فقد يوسف، ولكنه في هذه المرة يضيف إليها هذا الأمل أن يرد الله عليه يوسف وأخاه فيرد ابنه الآخر المتخلف هناك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ..﴾ الذي يعلم حاله، ويعلم ماوراء هذه الأحداث، والامتحانات، ويأتي بكل أمر في وقته المناسب، عندما تتحقق حكمته في ترتيب الأسباب والنتائج، هذا الشعاع من أين جاء إلى قلب هذا الرجل الشيخ؟ إنه الرجاء في الله، والاتصال الوثيق به، والشعور بوجوده ورحمته، ذلك الشعور الذي يتجلى في قلوب الصفوة المختارة، فيصبح عندها أصدق وأعمق من الواقع المحسوس الذي تلمسه الأيدي وتراه الأبصار"[١].

وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾[٢].

كل من يرجو ويأمل في غير الله فلن يجديه ذلك نفعا؛ لأن من تدعوه وترجوه إذا امتلك صفات القدرة ودفع الضر فهو أحق بالعبادة، وإذا كان غير ذلك، فهو لايستحق حتى شيئا يسيرا، فالمؤمن يرجو بفعله الطاعة رحمة ربه، ويخاف بمخالفة ربه أمر عذابه.

فالآية حجة على من يعبد غير الله فإن من يعبدونهم يتنافسون على التقرب إلى الله، وعاجزون عن أن يملكوا الضر أو النفع فالواجب توجه القلوب إلى الله ومحض العبادة له[٣].

---

(١) انظر: لسيد قطب، في ظلال القرآن، (٤/٢٠٢٥).
(٢) سورة الإسراء، آية: ٥٥-٥٧ .
(٣) انظر: للرازي، مفاتيح الغيب، مج١٠ (١٩-٢٠/٢٣٤).

فالرجاء ثمرة التوكل على الله لأن في الرجاء طلب الإعانة من الله لأن حقيقة التوكل على الله اليأس مما عند غير الله والاعتماد والركون إلى الخالق المعطى سبحانه وتعالى والأعمال كلها سواء كانت قلبية أو عملية يتفرع منها التوكل على الله. فالعبادة لاتتم إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف يبتعد الإنسان عن المعاصي، وبالرجاء يكثر من الطاعات، ولنا في رسولنا -ﷺ- القدوة والأسوة الحسنة في تحليه بالأمل والرجاء والخوف من الله تعالى فكان -ﷺ- من أخوف الناس من الله وأرجاهم إلى الله وأكثرهم أملا بالله.

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[١].

فالرسول -ﷺ- هو الطريق العملي للتحقق من مدى الكمال الإيماني، والطريق للتأسي الكامل به عليه الصلاة والسلام في أقواله، وأفعاله، وأحواله هو الرجاء[٢].

فعلى المحبة الإيمانية بالله تعالى وبقوتها يكون الأمل والرجاء لأنهما من الأسباب التي ينال بها العبد مايرجوه من خالقه بل هما من أقوى الأسباب.

فالراجي علق رجاءه بتصرفه المحبوب والمرضي له، والعبد يسعى لتحصيل وتحقيق مايرغب، والرب تبارك وتعالى يعين ويعطي[٣].

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١ .

(٢) انظر: لسعيد حوى، الأساس في التفسير، (٨/٤٤٠٦).

(٣) انظر: لابن القيم، مدارج السالكين، (٢/٤٤-٤٦).

" فعن أنس -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- دخل على شاب وهو في الموت فقال: "كيف تجدك؟" قال: والله يارسول الله إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : " لايجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله مايرجو وآمنه مما يخاف "[١].

فلو تأملنا حالة العبد عند نزول النازلة عليه، فيدعو الله ولايرى أثرا للإجابة فيقارب اليأس إلى قلبه، فإن كان راضيا بالأقدار فالغالب تعجيل الإصابة بالإجابة؛ لأن هذا يهزم الشيطان، وقد أشير إلى هذا في قوله تعالى:﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ ﴾[٢]، فينبغي لكل عاقل أن يلازم باب مولاه وسيده على كل حال، وأن يتعلق بفضله، وليجتهد في العمل ولاينبغي لمخلوق مؤمن أن يتوكل على الله أو يتسبب، أو يتفكر إلا في طاعة الله تعالى، وامتثال لأمره، فإن ذلك سبب لمفتاح الأمل، وفتح كل مرتجى، وينبغي أن يعلم العبد المؤمن أن الله عز وجل كافيه، فلايعلق قلبه على الأسباب ويعول عليها فقط.

" عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي -صلى الله عليه وسلم- يوما فقال: " يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف "[٣].

---

(١) الترمذي (٩٨٣) وقال: هذا حديث حسن غريب، وقال النووي إسناد جيد.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢١٤.

(٣) الترمذي (٢٥١٦) واللفظ له، وقال: حديث حسن صحيح ، وأحمد في المسند (٢٨٠٤) وقال شاكر: إسناده صحيح .

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[1]، فالله كاف الجميع مايهمهم في جميع أمورهم، والله تعالى يريد من عبده المؤمن تكميل مراتب العبودية من الذل، والانكسار، والتوكل، والاستعانة، والرضى، والإنابة له، والأمل والرجاء وفيهما من الانتظار والترقب لفضل الله مايوجب التعلق بذكره والعمل على طاعته، ورضاه فالله يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه ويسألوه من فضله سبحانه بعد توكلهم عليه .

---

(١) سورة الطلاق، آية: ٣ .

المبحث الرابع

محبة الله تعالى ودخول الجنة بلا حساب

إن تحقيق التوكل على الله يحقق للمتوكل محبته سبحانه فأي منزلة هذه التي يحب الله فيها المتوكلين عليه فيقضي للعبد مايريده ويسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنه فهو إمرؤ يمشي على الأرض ويحبه الله تعالى فحرى بالعبد المؤمن أن يحرص على التوكل على الله ولايترك هذه الخلة التى يحبها الله ويحب أهلها، وهي الصفة التى تميز المؤمنين عن غيرهم.

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [(١)].

فمحبة الله تعالى للعبد يتنافس فيها المتنافسون وهي روح الإيمان والأعمال[(٢)]. فإذا حصلت محبة الله للعبد يصير القلب منشغلا به ومسدد الظاهر والباطن ومحبا للقاء الله، فهذه الثمرة لايقطفها إلا من بذلوا نفوسهم للوصول إلى مايرضي محبوبهم وذلك بالإخلاص واللزوم والدوام إلى الميل إلى طاعة الله ورسوله ﷺ.

وإذا أحب الله عبدا سخره لعمل الطاعات كما في الحديث القدسي "... ولايزال عبدى يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشى عليها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه"[(٣)].

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٥٩.

(٢) انظر: ابن القيم، مدارج السالكين، (٣/٦-٧).

(٣) البخاري، ح(٦٥٠٢) باب في التواضع.

فعرف المؤمن الأولون ذلك فحرصوا على تحقيق هذه المحبة وعملوا في إطار ذلك فأولى بالمؤمن أن يشمر لذلك ليحوز على شرف الدنيا والآخرة.

وفي الآخرة تكون الجائزة العظيمة والفوز الكبير بدخول الجنة. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾(١).

وجعل الرسول الكريم ﷺ جزاء المتوكل على ربه الجنة "يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب قالوا ومن هم يارسول الله قال: "هم الذين لايكتوون ولايسترقون، وعلى ربهم يتوكلون" فقام عكاشة فقال: ادع الله أن يجعلني منهم قال: أنت منهم، فقام رجل فقال: ادع الله لي يارسول الله فقال سبقك بها عكاشة"(٢).

وهذا الجزاء لكمال تحقيق التوكل على الله سبحانه، ولايستحق هذا الجزاء إلا العبد الصادق الكامل في عقيدته، وسعادة المؤمنين المتوكلين لاتعادلها سعادة عندنا يدخلون الجنة بغير حساب لأنهم قد طابت أعمالهم وأقوالهم وعقائدهم.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٧٣-١٧٤.

(٢) سبق تخريجه، ص١٨١.

المبحث الخامس

الرضا والصبر

الرضا والصبر أمران متلازمان، فالرضا ارتفاع الجزع في أي حكم كان وهو طيب نفسي للإنسان بما يصيبه، أو يفوته مع عدم التغير.

والصبر قوة مقاومة الأحوال والآلام الحسية، والعقلية – وهو حبس النفس عن الجزع والتسخط وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش(١).

والرضا والصبر من ثمار التوكل على الله فهما يجنبان المؤمن الأزمات النفسية والجسدية؛ لأن التوكل على الله فيه عدة، وقوة معنوية ونفسية، والإنسان تمر في حياته اليومية الكثير من المصائب، والشدائد، وخذلان المخلوقين له وإن استسلم لها المؤمن لأصبح في كآبة وضعف، وخور، وهوان، ولكن المخرج منها هو التسليم لأمر الله والرضا والصبر بما قدره الله عز وجل، فهما أمران شرعيان من أسس الإسلام، وقواعده، فالمؤمن يعمل ويكد ويلازم عمله الصبر إلى أن يفرغ منه.

قال تعالى: ﴿ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾(٢).

نعم جزاء العاملين بطاعة الله والصابرين على أذى المشركين في الدنيا، غرف يثويهما الله فيها، على ماكانوا يلقون من أذى المشركين، وعلى العمل بطاعة الله، وما يرضيه، وجهاد أعدائه، {وعلى ربهم يتوكلون} في أرزاقهم، وجهاد أعدائهم، فلا ينكلون عنهم ثقة منهم بأن الله معل كلمته، وموهن كيد الكافرين، وأن ماقسم لهم من الرزق فلن يفوتهم(٣).

---

(١) انظر: للجرجاني، التعريفات، ص١١١؛ وللمناوي التوقيفات، ص ١٧٨، ٢١٢.
(٢) سورة العنكبوت، آية: ٥٨-٥٩.
(٣) انظر: الطبري، جامع البيان، (٨٥/٦).

وهناك معنى آخر للآية تدل عليه وهو " **أن صبرهم على عبادة الله، يقتضي بذل الجهد والطاقة في ذلك، والمحاربة العظيمة للشيطان، الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيء من ذلك، وتوكلهم يقتضي شدة اعتمادهم على الله، وحسن ظنهم به، أن يحقق ماعزموا عليه من الأعمال، ويكملها، ونص على التوكل وإن كان داخلا في الصبر؛ لأنه يحتاج إليه في كل فعل وترك، مأمور به، ولايتم إلا به**"(١).

فتبارك الرحمن الذي تكفل بالأرزاق لكل من القوي والعاجز، فالآية دليل على التزام الصبر حتى تمام العمل المراد على أكمل وجه.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾(٢).

فيستلزم من الآية ابتغاء مرضاة الله في كل عمل فالمؤمن، يبيع نفسه كلها لله لايرجو من وراء آدائه وبيعه غاية إلا مرضاة الله قال: "**أكثر المفسرين: نزلت هذه الآية في صهيب ابن سنان الرومي حين أخذه المشركون في رهط من المؤمنين فعذبوهم، فقال لهم صهيب: إني شيخ كبير، لايضركم أمنكم كنت أم من غيركم، فهل لكم أن تأخذوا مالي وتذروني وديني، ففعلوا، وكان شرط عليهم راحلة، ونفقة، فأقام بمكة ماشاء الله ثم خرج إلى المدينة فتلقاه أبوبكر وعمر في رجال، فقال له أبوبكر: ربح بيعك ياأبا يحيى، فقال له صهيب: وبيعك، فلاتتحسر، قال صهيب: ماذا لي؟ فقال: قد أنزل الله فيك، وقرأ هذه الآية**"(٣).

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن...، (٦٨/٤) .
(٢) سورة البقرة، آية: ٢٠٧.
(٣) البغوي، معالم التنزيل، (٢٦٧/١) .



فالآية الكريمة ترسم صورة نموذج من الناس، ومن النفس المؤمنة التي خرجت تاركة كل شيء وراءها طالبة، وجه ربها الكريم متوكلة عليه مستعينة به، وإذا بالشر يدفع، والخير يهبط من السماء العلية، فالمؤمن يرضى ويصبر لما قدره الله تعالى عليه من خير أو شر، فإن قدر له الشر فهو أمر على خلاف مراده ومحبته وهذا كمن يعمل ويظن أنه لم يكسب من عمله شيئا.

وإن قدر له الخير فهو أمر جاء على مراد العبد محبته، وهذا كمن يعمل، ويحصل على مراده ومبتغاه من عمله.

فالرضا ثمرة من شجر التوكل " **فمن وكل أموره إلى الله، ورضى بما يقضيه له فقد حقق التوكل، ولذلك كان الحسن[1] والفضيل[2] وغيرهما يفسرون التوكل على الله بالرضا.**

قال ابن أبي الدنيا[3]: بلغني عن بعض الحكماء قال: التوكل على ثلاث درجات: أولها: ترك الشكاية. والثانية: الرضا. والثالثة: المحبة بترك الشكاية.

ودرجة الصبر والرضا سكون القلب بما قسم الله له، وهي أرفع من الأولى، والمحبة أن يكون حبه لما يصنع الله به"[4].

فلايعتقد المؤمن أن عمله في الدنيا هباءا ولو للحظة، ولكن إن أنعمه الله تعالى وشكر وحمد فهو الخير كله، وإن قدر عليه رزقه وشكر وحمد فهو الخير كله وهذا مصداق لقول رسولنا الكريم -ﷺ- في الحديث المروي (**عن صهيب**

---

(١) الحسن بن أحمد بن أبي شعيب أبومسلم الحراني، مات سنة ٢٥٠هـ؛ أو الحسن بن خلف ابن شاذان الواسطي، مات سنة ٢٤٦هـ، انظر: تهذيب التهذيب، (٢/٢٣٧، ص٢٠٤٢).

(٢) فضيل بن عبدالوهاب بن إبراهيم الغطفاني أبومحمد القناد، انظر: تهذيب التهذيب، (٦/٤١٩).

(٣) عبدالله بن محمد بن عبيد أبوبكر القرشي الأموي، صاحب التصانيف، ولد سنة ٢٠٨هـ، وتوفي سنة ٢٨١هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، (٢/٦٧٧).

(٤) ابن رجب الحنبلي، جامع العلوموالحكم، ص ٤٤١ .

-رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- **" عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له "**[١].

هذا حال المؤمن الصابر المتوكل أو حال من يقدم صبره على عمله، قال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[٢]، **" فسياق الآية دليل على أن من العبادة الصبر على المحنة، وترك اليأس، والقنوط، وملازمة العمل الصالح في كل حال "**[٣].

فينبغي على المؤمن أن يقدم الصبر على العمل، ويتقن العمل، ويجتهد فيه، فإن المستكثرين من الطاعات الراجين رضا الرحمن يشمروا جوارحهم راجين أن تقبل أعمالهم – على عيبها ونقصها – خائفين أن ترد عليهم، فهؤلاء هم أحب الناس إلى الله؛ لأنهم ذهبوا ومضوا في تنفيذ اوامر الله، وفرغوا قواهم وطاقاتهم، وجوارحهم لذلك، وقد أشرنا سابقا إلى أن المؤمن يعمل وعمله يريد به رضى ربه وإلهه الذي يتضمن الرضا بمحبته وحده، والإنابة إليه والتبتل إليه، والرضا بربوبيته يتضمن الرضا بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه، والاستعانة، والثقة، والاعتماد عليه وأن يكون راضيا بكل مايفعل به من خير أو شر، كذلك الرضا برسول الأمة، وذلك الكمال لايكون إلا بالانقياد له والتسليم بحيث يكون أولى الناس، والرضا بدين الله فلاحكم، ولا أمر ولانهي إلا من خلال شرع الله الذي ملأ الدنيا نورا وعدلا، وهذا لمن يعيه، ويفقهه ويعمل به.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

---

(١) مسلم، (٢٢٩٥/٤)، (٢٩٩٩)، كتاب الزهد والرقائق.

(٢) سورة هود، آية: ١١ .

(٣) سعيد حوى، الأساس في التفسير، (٢٥٣٧/٥).

﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾[1].

خرجوا تصديقا، ويقينا، وقوة، وتوكلا على الله فانصرفوا بعافية فلم يلقوا عدوا، ولم يصبهم أذى ولامكروه؛ لإتباعهم طاعة الله، وطاعة رسوله، فأعطاهم الله ثواب غزو لم يغزوه ورضي عنهم[2].

لأنهم قد ساروا إلى الغزو يقينا، وتصديقا لوعد الله، ووعد رسوله فأرضوا الله بفعلهم، وإتباعهم رسوله إلى مادعاهم إليه، فصرف الله عدوهم عنهم، وأنعم عليهم بنعمه الجليلة[3].

وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[4].

فالذين هاجروا قومهم، وعشيرتهم، وفارقوا أوطانهم، ونصروا رسول الله -ﷺ- على أعدائه، هم الذين عملوا وسلكوا سبيل الإيمان والعمل الصالح، فكافأهم الله برضاه عنهم، وعنايته بهم، وإكرامه إياهم، ودفاعه أعداءهم، ورضاهم عنه إن رضيت نفوسهم لما أعطاهم ربهم[5].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٧٣-١٧٤.

(٢) انظر: للبغوي معالم التنزيل، (٥٨٨/١) .

(٣) انظر: للطبري، جامع البيان، (٣٦٤/٢).

(٤) سورة التوبة، آية: ١٠٠ .

(٥) انظر : للبغوي ، معالم التنزيل ، (٩٩/٣) ؛ ولابن عاشور ، التحرير والتنوير ، (١٨/١١-١٩).

ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾[1].

إن رضى الله سبحانه لايتأتى إلا بعد الإيمان، والعمل الصالح، فيقبل العمل جزاءا، ورضى من الله تعالى.

إن الإيمان ليس مجرد كلمات ولكنه الإيمان الذي ينشيء آثاره في واقع الحياة من كل ماأمر الله بفعله من عبادة وخلق، وعمل، وتعامل، فالجزاء هو الرضا وهو أعلى وأندى من كل نعيم، وهذا الرضا في نفوسهم عند ربهم، الرضا عن قدره فيهم، والرضا عن إنعامه عليهم، والرضا بهذه الصلة بينه وبينهم، الرضا الذي يغمر النفس بالهدوء والطمأنينة، والفرح الخالص العميق[2].

والرضا والصبر على ماقدره الله تعالى من أمور المعاش أو حتى الأمور الأخرى من الأعمال دينية أو دنيوية أمر الله تعالى به في قوله﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾[3].

فالآية الكريمة تتضمن معنى " **الحث على تحسين مافي القلوب، ووعيد لمن لايرضى بما دبر الله، وتفويض المشيئة إليه، والتوافق على رضا رسول الله - ﷺ-**[4].

فالرضا من ثمرات التوكل على الله ينشرح الصدر لمشيئة الله لأن المؤمن إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله فيلقي حموله عند باب ربه سبحانه.

---

(١) سورة البينة، آية: ٧-٨.
(٢) انظر: لسيد قطب، في ظلال القرآن، (٣٩٥٢/٦).
(٣) سورة الأحزاب، آية: ٥١ .
(٤) انظر: للمراغي، تفسيره، (٢٥/٨).

فالقرآن الكريم مليء بالتشريعات والتوجيهات لتنظيم المجتمع المسلم على أساس من مبادئ وقيم الإسلام، فقد أمر الله تعالى المؤمنين أن يصبروا على طاعة دينهم الذي ارتضاه لهم وهو الإسلام، فلا يدعوه لسراء ولا لضراء، ولا لشدة ولا لرخاء حتى يموتوا مسلمين مؤدين ماكلفوا به، فمن أخص صفات المؤمنين أنهم لاييأسوا من رحمة الله ولايعتريهم قنوط ولا وخور إذا تأخر عليهم مايحبوه لحكمة يريدها الله العلي الحكيم، بل من واجبهم أن يداوموا على إصلاح نفوسهم، أن يحسنوا توكلهم على ربهم ويزدادوا ثقة في وعده بالفوز والفلاح، والتأييد لعباده المؤمنين الصالحين، وهذا يدفعهم إلى مزيد من اتخاذ الأسباب الدينية والدنيوية، وإلى الاعتصام بالصبر.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة النحل، الآية ٤١-٤٢.

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ١١-١٢.

(٣) سورة العنكبوت، الآية ٥٨-٥٩.

ففي هذه الآيات الكريمة قرن سبحانه بين التوكل والصبر لأن مامن عمل إلا ودخل فيه الصبر والتوكل على الله فإذا اجتمعا أثمرا قبول العمل ونال صاحبهما خير الدنيا والآخرة، فالصبر جواد لايكبو وجندا غالبا لايهزم فلابد من الصبر حال العمل وبعد الفراغ من العمل .

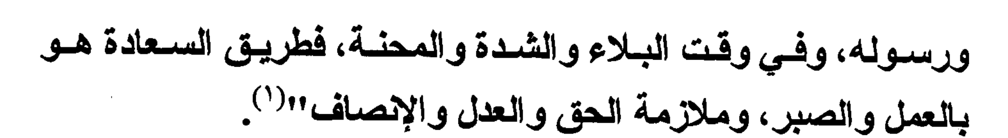
قال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾(١).

إن الله تعالى يعلم المخلص من غيره ومن سنته سبحانه أن يختبر الذين صدقوا الله ورسوله، فيبتليهم بإدالة المشركين عليهم، حتى يتبين المؤمن المخلص صحيح الإيمان، من المنافق ويتبين الصابرين عند البأس على ماينالهم في ذات الله من جرح وألم ومكروه فيزيد المؤمنين أجرا، وينقص غيرهم ويغنيهم (٢).

" إن مشيئة الله تسير على نظم ثابتة وسنن حكيمه، ترتبط فيها الأسباب بالمسببات، والمقدمات بالنتائج، وإن كان الله قادرا على كل شيء، وتلك السنة في الماضيين واللاحقين، فكل من سار على منهاج الطائعين المؤمنين الموفقين حظي بالسعادة، والنصر، والفلاح، ومن سار في طريق العصاة المكذبين كانت عاقبته خسرانا ودمارا وهلاكا، ..... فإذا عرف المؤمنون هذه الحقيقة فيجب عليهم ألا يضعفوا عن العمل ...... خاصة الجهاد فهو مجال لكشف وإبراز وتطهير، فيه يتميز المؤمنون الصادقون عن المنافقين العصاة، وبها يعرف صدق الإيمان، وصلابة العزيمة، والثبات عند الابتلاء؛ ..... ولذلك فالصبر مطلوب عند أداء التكاليف الشرعية الدائمة والمؤقتة، وطاعة الله

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠-١٤٢.

(٢) انظر: لابن جرير، جامع البيان، (٢/٣٣٤-٣٣٥) .



ورسوله، وفي وقت البلاء والشدة والمحنة، فطريق السعادة هو بالعمل والصبر، وملازمة الحق والعدل والإنصاف"[(١)].

المؤمن يعمل ويكد في عمله، ولكن سنن الله جارية على عباده فالبلاء حاصل، ولكن لادواء لتحمل المصيبة إلا بالصبر، إذ في الصبر تقوية الإرادة وتحمل المشقة، والثبات على المصاعب، وأن الله مع الصابرين، أي بالعون والنصرة والرعاية، والتأييد.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾[(٢)].

فالمؤمن إذا استعان بالصبر والصلاة التي تملأ القلب خشية، وخشوعا لله ورجاءا فيه فتبعد النفس عن الفواحش والمنكرات، فتهون بذلك المصاعب، ويتحمل كل شدة، ومشقة، ويقاوم كل عناء وكرب، وقد خص الصبر هنا؛ لأنه أشد شيء باطني على النفس، وخصت الصلاة؛ لأنها أشد عمل ظاهري على الإنسان، إذ فيها إنقطاع عن الدنيا واتجاه إلى الله، وقد روي عنه -ﷺ- أنه إذا حزبه أمر – اشتد عليه – فزع إلى الصلاة، وتلا هذه الآية – إن الله ناصر الصابرين، ومجيب دعائهم ومفرج كروبهم، والواقع أن الأعمال الفردية، والأعمال الجماعية العظيمة لاتتحقق ثمارها إلا بالثبات والكفاح الدائم، وعدة ذلك كله الصبر [(٣)].

إن العبد يسؤه مايجري عليه، ولايشعر بما لله في طيه من الألطاف فالله تعالى يهون على المؤمنين مايصيبهم، ويرشدهم إلى الإيمان الذي يجعل من صاحبه قوة لاتلين، وعزمة لاتغل، ويعلمهم أن سنة الله في الأمور كلها أن تتداول، وأن العاقبة للمتوكلين على الله الصابرين على الشدائد، والمحن وماتتطلبها من بذل النفس،والغالي، والرخيص، وتضحية بالراحة، والله تعالى يحث على الثبات في

---

(١) انظر: لوهبه الزحيلي، التفسير المنير، (٣-٤/٩٧-١٠٨).

(٢) سورة البقرة، آية: ١٥٣.

(٣) انظر: لوهبه الزحيلي، التفسير المنير، (١-٢/٣٩-٤١).

صيانة الحقوق، والمعتقدات، والذود عنها، والعمل الصالح هو مراد الله ومبتغاه لننال رضى الرحمن؛ لأن في الرضا إنشراح للصدر وسعته بالقضاء، وترك زوال الألم وإن وجد لكن الرضى يخففه بما يباشر القلب من روح اليقين والمعرفة، فيقوى الرضى، ويظهر الصبر[(١)].

فالصبر والرضا جعل الله فيهما راحات نفسية وروحية، وهما دليلان على حسن ظن العبد بربه، والرضا مظهر من مظاهر صلاح العبد وتقواه، والصبر جواد لايكبو وحصنا حصينا لايهزم للمؤمن.

والصبر والرضا آخية المؤمن التي إليها يرجع، والمحن التي نعيشها اليوم تحتاج إلى أن نرجع إلى ديننا ونوحد بذلك صفوفنا، ونعد العدة، ونصبر ونعمل بيد واحدة مخلصين لله متوكلين عليه، والرضا والصبر علامة التوكل على الله وشكر لله، ومحبة لله وطريق إلى التسليم لله بعزة وقوة.

---

(١) انظر: للألوسي، روح المعاني، (٣-٦٨/٤)؛ ولابن رجب، وابن القيم، أبو حامد الغزالي، تزكية النفوس، جمع أحمد فريد، تحقيق ماجد بن أبي الليل (بيروت: دار القلم تط الأولى، ١٤٠٥هـ)، ص١٠٦.

المبحث السادس

العزة والقوة

إن من أعظم ثمار التوكل على الله أنه يورث العزة والقوة والثبات والشجاعة، فالقوة الحقيقية هي قوة الإيمان لاقوة البدن فقط.

قال تعالى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾(١). فقضاء الله ثابت ووعده نافذ لامحالة .

فقد قضى الله وخط في أم الكتاب غلبته ورسله، فهو سبحانه ذو قوة وقدرة على هلاك كل من حاده ورسله، ذو عزة فلايقدر أحد أن ينتصر منه إذا هو أهلك وليه أو عاقبه، أو أصابه في نفسه بسوء(٢).

فالله تعالى قادر على نصرة أنبيائه غالب لايدفعه أحد عن مراده، وهذا وعد لايخلف ، ولايغير، فإنه من الصادق القوي العزيز، الذي لايعجزه شيء يريده لمن آمن به، وبرسله، واتبع ماجاء به المرسلون، من حزب الله المفلحين، الذين لهم الفتح والنصر والغلبة في الدنيا والآخرة بالحجة أو بالسيف أو بهما معا (٣).

فالقوة والعزة متلازمان، ففي العزة معنى يدل على الشدة والقوة(٤)، فالمؤمن إذا أراد أن يكون من أقوى الناس، وأعزهم فما عليه إلا أن يكل أمره إلى العزيز القوي، فأنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كانوا في عزة، وقوة، وتحدي مع أعدائهم، مع قلة الاتباع، ولكن ركنوا وتوكلوا على الذي لايخذل من لاذ بجنابه.

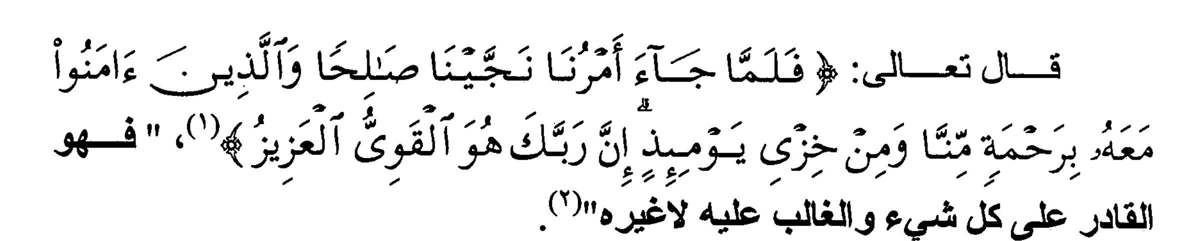
---

(١) سورة المجادلة، آية: ٢١.

(٢) انظر: للطبري، جامع البيان، (٧/٢٥٠-٢٥١).

(٣) انظر: للرازي، مفاتيح الغيب، مج ١٥(٢٩-٣٠/٢٧٦)؛ وللسعدي، تيسير الكريم الرحمن، (٥/٢٠٠)؛ وللجزائري، أيسر التفاسير، (٥/٢٩٩).

(٤) انظر: لابن منظور، لسان العرب، مادة عزز، ص٢٩٢٤؛ وانظر للأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٣٣٢.



قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾[1]، "**فهو القادر على كل شيء والغالب عليه لاغيره**"[2].

ولن تكون هذه العزة والقوة إلا بطاعة الله، وطاعة رسوله، وبالتوكل الحقيقي وتفويض الأمر إليه سبحانه، وبهذا تكون الكفالة والتأييد لمن توكل وأناب إليه سبحانه.

فطبيعة الإيمان إذا تغلغلت في نفس المؤمن بتقوية مايقتضيه الإيمان من الثقة بالله، والاستعانة به، وصدق التوكل عليه، وحسن الظن به ومقاومة أهواء النفس، ومخالفتها، وممارسة العبادات، وابتغاء مرضاة الله، وجعل ذلك هدفا، وأن يعلم أن الجائزة العظمي هي الجنة، فهذه الأمور جميعها، تضفي، وتلبس صاحبها القوة التي تنطبع في سلوكه كله، والعزة في شخصيته فإذا تكلم تكلم بقوة ويقين، وإذا عمل كان راسخا متقنا عمله.

والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تكلمت عن العزة والقوة لله وللمؤمنين وأسبابها، فمن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة هود، آية: ٦٦ .

(٢) انظر: لأبي السعود، إرشاد العقل السليم، (٣/٤٨) .

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٢٣-١٢٦ .

إن الله تعالى أظهر المؤمنين على عدوهم مع كثرة عدد العدو، وقلة عدد المؤمنين، وذلك لصبرهم وتقواهم وطاعتهم لربهم ولرسوله، وتوكلهم عليه سبحانه(١).

فسياق الآيات دليل على أنه بعد توكلهم، وتقواهم لله تعالى رزقهم بالنصر، والعزة، فهو عزيز لايغلبه أحد حكيم في تدبيره أمور المؤمنين وشؤونهم.

وقال تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾(٢).

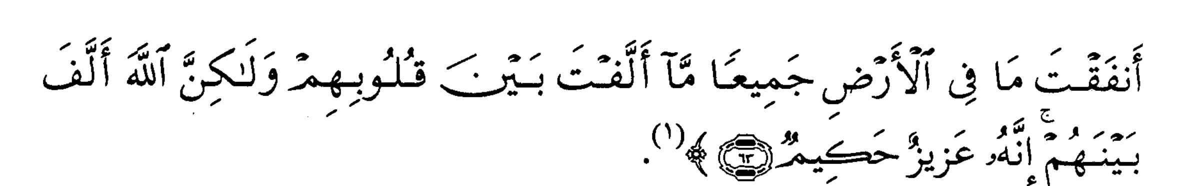
إن الله تعالى أجاب استجارة المؤمنين، ودعاءهم للنصر على أعدائهم، فأمدهم بالملائكة يردف بعضهم بعضا وماهذا الإمداد إلا بشارة يبشر الله بها بالنصر على العدو، ويسكن القلوب، وبذلك توقن بنصر الله، ينصر سبحانه من يشاء من خلقه، لايقهره شيء، ولايغلبه غالب، بل يقهر كل شيء ويغلبه؛ لأنه خلقه، فسبحانه حكيم في تدبيره، ونصره من نصر، وخذلانه من خذل من خلقه، لايدخل تدبيره وهن ولاخلل (٣).

فنصر الله هذا من مننه سبحانه الكثيرة على عباده المؤمنين، ومن هنا نعلم أن لا استجارة، ولا استغاثة، ولا توكل إلا على الله مقدر الأمور والأسباب وميسرها سبحانه.

قال تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۚ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ

---

(١) انظر: للطبري، جامع البيان، (٢/٣٢٢-٣٢٤).
(٢) سورة الأنفال، آية: ٩-١٠ .
(٣) انظر: للطبري، جامع البيان، (٤/١٤-١٥).



أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[١].

" الآية الكريمة إيماء إلى أن النصر ينال بالأسباب ومن أهم هذه الأسباب التآلف والاتحاد بفضل مقدر الأسباب ورحمته بالعباد.....، وقد دلت التجارب على أن التآلف من أقوى وسائل التعاون وأنجعها، وأجدى وسائل التحاب والتآلف، وقوة الإيمان.....، فالله تعالى غالب على أمره الذي لايغلبه خداع الخادعين، ولاكيد الماكرين، الحكيم في أفعاله، ينصر الحق على الباطل"[٢].

كذلك الآية تتضمن معنى عظيم هو " أن الله تعالى يأمر رسوله.... بقبول السلم متى طلبها أعداؤه.....، ورغبوا بصدق فيها؛ لأنه -ﷺ- رسول رحمة لا رسول عذاب، وأمره أن يتوكل على الله في ذلك أي يطيعه في قبول السلم، ويفوض أمره إليه، ويعتمد عليه، فإنه تعالى يكفيه شر أعداءه؛ لأنه سميع لأقوالهم عليم بأفعالهم، وأحوالهم..... عزيز حكيم في تدبيره شؤون عباده المؤمنين"[٣].

فجمع القلوب والنفوس على الإيمان بالله مع التوكل عليه يورث النصر للمؤمنين، وبتوحيد القلوب تكون الأهداف، والغايات جميعها في رضاء الرحمن.

قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾[٤].

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٦١-٦٣.

(٢) انظر: للمراغي، تفسيره، (٤/٢٧-٢٨).

(٣) انظر: للجزائري، أيسر التفاسير، (٢/٣٢٤)؛ وللسعدي، تيسير الكريم، (٢/٢٢٤).

(٤) سورة الشعراء، آية: ٢١٤ - ٢١٧ .

أمر الله تعالى نبيه بالإنذار والدعوة إليه جهرا، والتواضع لمن اتبع الدين أو شارف على إتباعه، وإن عصوا بعد ذلك فالله تعالى يقهر من يعصيه ويعصي رسوله بعزته، وينصر برحمته.

يقول المفسر: وتقديم وصف العزة أوفق بمقام التسلي عن المشاق اللاحقة من القوم للرسول -ﷺ- ، وجوز أن يكون ذلك؛ لأن العزة كالعلة المصححة للتوكل، والرحمة كالعلة الداعية إليه.

وفسره غير واحد بتفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره، ويقدر على أن ينفعه ويضره[1].

فهذه العزة استجلبت ومنحت رسولنا الكريم -ﷺ- العون من الله، وجعلته واثقا راسخا متيقنا تمام اليقين، فنادى بدعوته جهرا لايخاف في الله لومة لائم يردد في قوه " **لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده، فلاشيء بعده" الحديث لأبي هريرة "**[2].

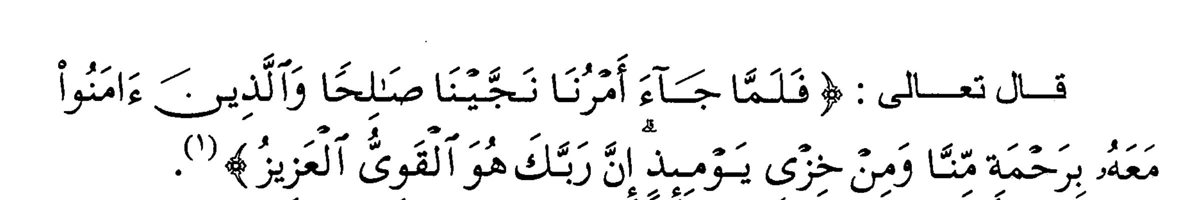
إن المؤمن يستمد قوته، وعزته من الله، فهو المصدر لكل عزة، والعزة عند المؤمن والقوة لاتكون فضيلة إلا إذا استظلت بظل الله، واحتمت بحماه. قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[3]، فعزة الله قهره من دونه وعزة رسوله إظهار دينه على الأديان كلها، وعزة المؤمنين نصر الله إياهم على أعدائهم.

وقيل المعنى: ولله الغلبة والقوة ولرسوله وللمؤمنين[4].

والمتتبع للآيات القرآنية يرى أن لفظي العزة، والقوة قد اقترنا في آيات كثيرة وقد بلغت هذه الآيات سبعة وماهذا إلا علامة على أن العزة ملازمة القوة تماما.

---

(١) انظر: للألوسي، روح المعاني، ج(١٩-٢٠/١٣٥-١٣٦).
(٢) صحيح البخاري، (٥/٥٩) ح٤١١٤ كتاب المغازي؛ ومسلم، (٤/٢٠٨٩) ح٢٧٢٤ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.
(٣) سورة المنافقون، آية: ٨ .
(٤) انظر: للطبري، (٢/٤٥٧)؛ وانظر: للبغوي، معالم التنزيل، (١/٤٩) ؛.



قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[(٣)].

قال تعالى: ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[(٤)].

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[(٥)].

وقال تعالى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[(٦)].

---

(١) سورة هود، آية: ٦٦ .

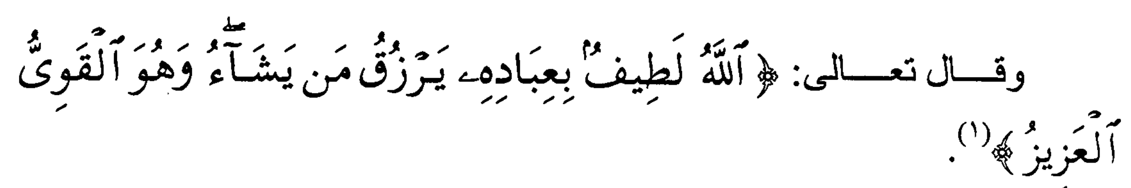
(٢) سورة الأحزاب، آية: ٢٥ .

(٣) سورة الحج، آية: ٣٩-٤٠.

(٤) سورة الحج، آية: ٧٤ .

(٥) سورة الحديد، آية: ٢٥ .

(٦) سورة المجادلة، آية: ٢١ .


وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾(١).

فالآيات الكريمة السابقة جمعت بين لفظي العزة والقوة. فالإسلام يعطي القوة للمرء المؤمن، وذلك لأنه قوي بإيمانه بربه قوي بطاعة ربه ورسوله، فهذه تدع المؤمن مستقرا شامخا عزيزا، فالعزة والقوة من أبرز الخلال التي نادى بها الإسلام وغرسها، وتعهد نماءها بما شرع من عقائد، وسن من تعاليم، والمؤمن لما أشرنا قوي بإيمانه كذلك عزيز بإيمانه لأنه إذا كلف بعمل أو أمر بأمر فأداه على أصح وجوهه، فهذا أمر يجعل كل امرئ مؤمن يحتفظ بعزة نفسه فلم يهنها بمخالفة ذلك الأمر الرباني، وهذا ما استخلصناه من غزوة أحد، فسبب الهزيمة والخذلان والسقوط في الاهانة هو ما ارتكبه بعضهم من مخالفات لأمر الله وأمر رسوله-ﷺ-، لذلك نشير إلى أن عزة وقوة المؤمن هي ألا يكون مستباحا لكل طامع من جن أو إنس، أو غرضا لكل مهاجم، بل عليه أن يستميت دون نفسه وعرضه، وماله، وأهله.

فتمسك المؤمن بشرع الله في كل المجالات، والجوانب هي قوة وإعزاز فينبغي أن يعلق المسلم حقوقه ويملأ بها يديه ويتشبث بها، فالعزة والقوة في طاعة الله ورسوله، فالمؤمن يعمل على أساس ذلك، وعلى هذا الأساس يأخذ نصيبه كاملا غير منقوص، فإذا اعتدى عليه أحد أو طمع فيه باغ كان انتصابه للدفاع عن نفسه جهادا في سبيل الله، كذلك العزة والقوة في أن يبذل المرء المؤمن قصارى جهده في بلوغ مآربه بعد توفيق الله تعالى له تارك للحظوظ أن تضع شيئا.

فالتوكل الذي يقوي المؤمن ضرب من الثقة بالله، يريح نفس المؤمن عندما تكتنفه ظروف محرجة، ويلتفت حوله فلايرى عونا، ولا أملا ! فالمكافح قوي عزيز شديد البأس يشعر عندما يتوكل على الله أنه آوى إلى ركن شديد، ويستمد من هذا التوكل ثباتا ورباطا، وعزة ويظل يقاوم حتى تبرق بشائر النصر خلال الجو الملبد.

---

(١) سورة الشورى، آية: ١٩ .



وقد بين الله تبارك وتعالى أن هذا التوكل غذاء الكفاح الطويل الذي قاوم به النبيون وأتباعهم مظالم الطغاة والفاسدين المستبدين .

قال تعالى: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾(١).

" فقد عرفوا ربهم وعلموا أن الأمور كلها بيده سبحانه فلا عذر لنا في أن لانتوكل عليه فقد ثبتوا على ماستحدثوه من توكلهم عليهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين المسبب عن إيمانهم"(٢).

فالإسلام حرم على المؤمن أن يهون أو يستذل أو يستضعف، " **فعن حذيفة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ- " لاينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، قالوا: فكيف يذل نفسه؟ قال: "يتعرض من البلاء لما لايطيق "(٣).**

فالإسلام يأمر بإعزاز المسلم نفسه ودينه وربه فهذه أنفة المؤمن، وهذه العزة في نظري فيها شيء من التمرد بقدر مافيها من الاستكانة وفيها من التعالي بقدر مافيها من التواضع، وفيها من الترفع على مغريات الأرض، ومزاعم الناس، فيها الانخفاض إلى التبسط مع المسلمين وإطلال العظمة من أصدق سبلها، فالعزة والإباء والكرامة والقوة من أبرز الصفات والخصال التى نادى بها شرعنا الحكيم.

فالمؤمن عندما يبرز قوته ليرهب عدوه، فمهما بذل عدوه من طاقة في إضعاف المؤمن فلن يمنع شيئا أعطاه الله للمؤمن من تمكين.

فالبشر لو اجتمعوا بأسرهم أذل من أن يمنعوا شيئا أعطاه الله، وأقل من أن يعطوا شيئا منعه الله للمؤمن، ومن ثم ينبغي على المؤمن أن يرد مصائر الأمور إلى مدبرها الأعظم، وأن يجعل فيه الاستعانة، والتوكل وعليه المعول.

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ١٢ .

(٢) انظر: للبيضاوي، أنور التنزيل وأسرار التأويل، ص٣٣٧ .

(٣) أخرجه الترمذي، (٢٢٥٥) واللفظ له وقال حسن غريب.

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[1].

والله سبحانه وتعالى " **يربى عباده المؤمنين على أصناف البر التي لاتبلغها الأفهام فيخص كلا من عباده بنوع من البر على مااقتضته حكمته فهو باهر القدرة المنيع الذي لايغلب**"[2]، فبره سبحانه متنوع نصرا أم هداية، رزقا أم توفيقا في وتيسيرا في الأعمال، فالقضاء يصيب العزيز، وله أجره ويصيب الذليل وعليه وزره، والمؤمن بهذا عزيز لعلمه أنه لن يفلت من محتوم القضاء إنسان، والله تعالى من لطفه بعباده، أن هداهم للخير الذي لايخطر على بالهم، بما يسر الله لهم من الأسباب الداعية لذلك، يرزق من يشاء بحسب اقتضاء حكمته، فلاحول ولاقوة إلا به لا لأحد من المخلوقين سبحانه من دانت له جميع الأشياء، قادر على مايشاء لايقدر أحد أن يمنعه عن شيء يريده[3]، هذا مايفهم في قوله تعالى:﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾[4].

فالله تعالى يهب العزة والقوة لعباده المخلصين في بذل الجهد لتخطى الصعاب، والعزة والقوة على فعل العبادات وأشق الطاعات والمسارعة في الخيرات والتحمل والصبر والمثابرة في تعمير هذا الكون الفسيح.

فالقرآن والإسلام أوصيا وهديا إلى القوة والعزة وذلك بتيسير أسبابها ووسائلها.

فالكرامة في التقوى، والسمو في العبادة والعزة والقوة في طاعة الله ورسوله -ﷺ-.

---

(١) سورة يوسف، آية: ٢١.
(٢) للبيضاوي، أنور التنزيل وأسرار التأويل، ص٦٤١.
(٣) انظر: للمراغي، تفسيره، (٣٤/٩)؛ للسعدي، تيسير الكريم الرحمن، (٣٩٤/٤).
(٤) سورة الشورى، آية: ١٩.



المبحث السابع

يقي من تسلط الشيطان والسحر والحسد والعين

إن من أعظم مايعين العبد على الثبات هي الاستعاذة من الشيطان وطرد وساوسه ونجواه.

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[١].

فالشيطان يخبط العباد ويشغلهم باللذات وبالأعمال الخاسرة فمثلا يحرض على الزهد المنافي لمنهج الإسلام ويخوفهم من طرقات الكسب فيجعلهم ذليلين على الأبواب والطرقات يسألون هذا وذاك .

ففي الآية الكريمة خطاب للرسول ﷺ أن يسأل الله الإعاذة من الشيطان في جميع الأعمال ليخلص العمل ولايؤثر فيه الشيطان بوسوسته، فالمتوكلون محرسون من تسلط الشيطان، فمن لم يتوكل على الله ينتظم في سلك من يتولى الشيطان من حيث لايحتسب[٢].

" فالإستعاذة تمنع تسلط الشيطان على المستعيذ لأن الله منعه من التسلط على الذين آمنوا المتوكلين ..... فنفي سلطان الشيطان مشروط بالأمرين: الإيمان، والتوكل.... فالمعنى أن الإيمان مبدأ أصيل لتوهين سلطان الشيطان في نفس المؤمن فإذا انضم إليه التوكل على الله اندفع سلطان الشيطان عن المؤمن المتوكل"[٣].

---

(١) سورة النحل، الآية ٩٨-١٠٠.

(٢) انظر: لأبي السعود، إرشاد العقل السليم، (٣/٢٩٢).

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٣-١٤-١٥/٢٧٨-٢٧٩).

ومن أهم ثمرات التوكل أيضا دفع شر الساحر والحاسد والعائن فالتوكل على الله من أقوى الأسباب في ذلك، ومن كان الله حسبه وواقيه فلايضره أذى من أراد إيذائه وهذا ماشعر به يعقوب عليه السلام لما نهى أبناءه من الدخول من باب واحد، وأمرهم بالدخول من أبواب متفرقة.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾[١].

إن الدخول من أبواب متفرقة ماهو إلا احتراز لايرد قدر الله وقضاءه وفي هذا دليل على أن الحسد موجود قديما والاحتراز منه مشروع فلابد من أخذ الأسباب العادية التي لاتؤثر في الواقع شيئا إلا بإذن الله. وعلى المؤمن الإتكال على الله والاعتماد عليه والثقة به؛ لأن حصول كل الخيرات ودفع كل الآفات من الله تعالى[٢].

وهذا مافعله يعقوب عليه السلام اتخذ أهم الأمور وهي التوكل على الله سبحانه في حفظ ورعاية أبنائه.

---

(١) سورة يوسف، آية ٦٧.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٧٤٩/٢).

المبحث الثامن

كشف الهم والكرب

من ثمرات التوكل على الله أنه الله يمد المتوكل بعونه، ولايتخلى عنه إذا حلت بساحته الخطوب، وأحاطت به المصائب والكروب، فهو سبحانه يستجيب الدعاء، ويلبي النداء، ويكشف الهم والحزن والكرب الذي يأخذ النفس.

قال تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[١].

فنوح عليه السلام دعا الله تعالى فاستجاب له ربه فحماه ونصره على عدوه فالله تعالى منجي المؤمنين الصادقين في التجاءهم واستنصارهم بالدعاء وبالتوكل عليه سبحانه، فقد أصيب نوح عليه السلام من أذى قومه الكثير، فأصبح في كرب عظيم، وغم شديد، فخلصه الله مما هو فيه، فأغرق قومه المكذبين والمنهمكين في الشر، ومااجتمعت هاتان الخصلتان في قوم إلا وأهلكهم الله تعالى[٢].

هذا دعاء المخلصين استجاب لهم ومدهم بعونه، فكيف بالخالق العظيم اللطيف وهو يستجيب لدعاء المشركين لا استجابة لهم، بل لأنه تعالى أعلم بحالهم في تلك الساعة المؤلمة من الدعاء فقد أخلصوا بها الدعاء ولجأوا إلى الله تعالى رغم أنوفهم، قال تعالى يصور تلك الحالة: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[٣].

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٧٦-٧٧.

(٢) انظر: للبيضاوي، أنور التنزيل وأسرار التأويل، ص٤٣٤.

(٣) سورة الأنعام، آية: ٦٣-٦٤.

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴿٢٣﴾ ﴾[(١)]

" فالله تعالى يمتن على عباده، في انجائه المضطرين منهم في ظلمات البر والبحر، الحائرين الواقعين في المهامة البرية، وفي اللجج البحرية، إذ هاجت الرياح العاصفة، حينئذ انفردوا بالدعاء له وحده لاشريك له"[(٢)]، وفرحوا بالريح الطيبة المسيرة لفلكهم، حتى إذا جاءت الريح الشديدة، واغتلم البحر عليهم، وظنوا هلاكهم هنا في هذه الساعة دعوا الله وأفردوه بالدعاء والابتهال، وبعد النجاة رجعوا إلى ماهم عليه من ظلم لأنفسهم باتخاذ الأصنام والأوثان عباد من دون الله[(٣)].

فالكرب والهم والحزن أمور قد ذمها الشارع الحكيم لما لها من مضار تؤثر على نفس المؤمن؛ لأنها دليل عدم الرضا بالقدر، ولكن المؤمن يدفع هذا بأساليب، دل عليها الإسلام وأمر بالتمسك بها وذكرها.

(" فعن أسماء بنت عميس قالت: قال لي رسول الله -ﷺ-: " ألا أعلمك كلمات تقولينهن عند الكرب، أو في الكرب: لا إله إلا الله ربي لا أشرك به شيئا")[(٤)]**، و(عن أبي بكر -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-:**

---

(١) سورة يونس، آية: ٢٢-٢٣.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٢/٢٢٢).

(٣) انظر: المصدر السابق، (٢/٦٤٠).

(٤) أبوداود، (١٥٢٥) واللفظ له، وابن ماجه(٣٨٨٢)، وأحمد (٦/٣٦٩)، والألباني (١/٢٨٤) وقال صحيح.

"دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو فلاتكلني إلي نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت"[١].

هذا مع الإخلاص والإقبال على الله، وأن يلبس المؤمن نفسه لباس الذل أمام العلي القادر، فرسولنا الكريم وصحبه الكرام أصابهم الهم والكرب والحزن.

أصابهم الكرب والحزن عندما ضيق عليهم المشركون في مكة الحصار، أصابهم الكرب والحزن عندما هاجروا وتركوا مالهم وأولادهم وذريتهم وأزواجهم في يد أعدائهم وهم من أهلهم.

أصابهم الكرب والحزن عندما آذى المشركون رسولهم الحبيب أصابهم ماأصابهم ولكنهم احتسبوا ذلك على ربهم توكلوا وأنابوا إلى ربهم مقصدهم وهمهم إظهار دين الله وماتوكل أحد على الله جل وعلا من صحة عقيدة وإخلاص حتى كان الله تعالى قد ضمن الكفالة لهم بما حوته يده سبحانه .

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[٢].

هذه هي سنة الله للمخلصين ليمحص، ويميز بين أوليائه وأولياء الشيطان ويضع الحد الفاصل للحق والباطل منذ أن خلق الخليقة وأنزل عليهم المرسلين.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[٣].

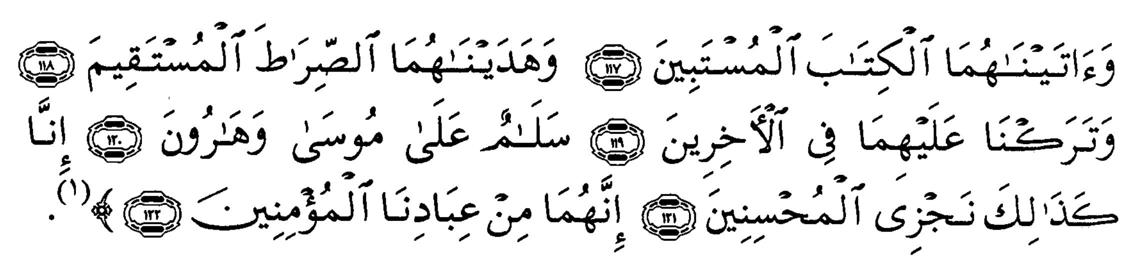
وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾

---

(١) أبوداود (٥٠٩٠) وقال الألباني (٣/٩٥٩): حسن صحيح الكلم الطيب (١٢١)، ص٤٩.

(٢) سورة التوبة، آية: ٣٣ .

(٣) سورة الصافات، آية: ٧٥-٧٧ .


﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ۝١١٧ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١١٨ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝١١٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٢١ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٢٢﴾[1].

هؤلاء من أنبياء الله أخلصوا اللجوء إلى الله تعالى لمعرفتهم، ويقينهم بالله تعالى أنه هو من يأخذهم، ويدفع عنهم كروبهم، وأحزانهم خاصة إذا لجأوا بقلب وجل تائب، فكم من مضطر فرجت كربته بدعائه .

قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[2].

" فالآية تنبيه من الله أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، فهو سبحانه الذي لايلجأ المضطر إلا إليه، الذي لايكشف ضر المضرورين سواه"[3].

إن المؤمن حين يصاب بالحزن والغم في دينه أو دنياه فليس له إلا الانكسار بين يدي خالقه، والاعتصام ببابه، وطرقه، وإلتزام عبوديته من الذل، والخضوع، والإنابة، والتوكل، وامتثال أمره، واجتناب نهيه، ودوام الافتقار إليه، واللجوء إليه والاستعانة به والتوكل عليه والعياذ به، وأن لايتعلق قلبه بغيره محبة، وخوفا، ورجاء، فسبحانه عدل في قوله، وفعله، وقضائه، فخبره كله صدق، وقضاؤه كله عدل، وأمره كله مصلحة، فالمؤمن يصيبه هم النصر، وهم الرزق، وهم الأبناء ولكن من سعى وتوكل على الخالق " **وصدق في جميع أموره صدق العزيمة، وصدق الفعل فصدق العزيمة جمعها وعدم التردد فيها، فإذا صدقت عزيمته بقي عليه صدق الفعل، وهو استفراغ الوسع وبذل الجهد فيه، وأن لايتخلف عنه بشيء من ظاهره، وباطنه، فعزيمة القصد والتوكل تمنعه من ضعف الإرادة والهمة،**

(١) سورة الصافات، آية: ١١٤-١٢٢.
(٢) سورة النمل، آية: ٦٢ .
(٣) انظر: لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٣/٥٩١).



وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور ومن صدق الله في جميع أموره صنع الله له فوق مايصنع لغيره، وهذا الصدق معنى يلتئم من صحة الإخلاص، وصدق التوكل، فأصدق الناس من صح إخلاصه وتوكله"[1].

قال تعالى: ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾[2].

فحق كل إنسان وحق كل تصرف له أن يكون التوحيد، والعبودية، والإخلاص هم البداية، والوسط، والنهاية لأنهم كالماء للأحياء، وكالهواء للإنسان كالروح للحي، فكلما تغلغلت في الأجزاء والأعضاء وفي المقاصد والأعمال كان الفرج والسرور، وليس منجي المؤمن إلا ذلك التوحيد، والعبودية والإخلاص مع الصدق في القول، والنية والإرادة، والعزم، والعمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها[3].

" فكل قلب يرى الفقر غنى مع الله، والغنى فقرا دون الله، والعز ذلا دونه، والذل عزا معه، والنعيم عذابا دونه، والعذاب نعيما معه، وبالجملة فلا يرى الحياة إلا به ومعه، والموت، والألم، والهم، والغم، والحزن إذا لم يكن معه فهذا له جنتان: جنة في الدنيا معجلة، وجنة يوم القيامة"[4].

فهنيئا لذلك القلب، وقريبا سينجلي همه وكربه، وحزنه مع صدق عزمه وتوكله فالمكروب في لحظات كربته، وضيقه لايجد ملجأ إلا الله يدعوه ليكشف عنه الضر والسوء ذلك حين تضيق الحلقة وتشتد الخنقة، وتتخاذل القوى، وتتهاوى الأسناد، وينظر الإنسان حواليه فيجد نفسه مجردا من وسائل النصرة وأسباب الخلاص، لاقوته ولاقوة في الأرض تنجده، وكل ماكان بعده لساعة الشدة قد زاغ

---

(١) انظر: لابن القيم، الفوائد، ص٢٤٠.
(٢) سورة محمد، آية: ٢١.
(٣) انظر: لسعيد حوى، المستخلص في تزكية النفوس، ص ٣٠٥-٣١١.
(٤) انظر: لابن القيم، الفوائد، ص٢٥٢.

عنه أو تخلى، وكل من كان يرجوه للكربه قد تنكر له أو تولى – في هذه اللحظة تهتز النفس فتلجأ الى القوة الوحيدة التي تملك الغوث والنجدة، ويتجه الإنسان إلى الله فهو وحده دون سواه، يجيبه ويكشف عنه الكروب، ويرده إلي الأمان والراحة؛ لذلك لابد أن لايغفل الإنسان عن هذه الحقيقة ويعلم علم اليقين أن الله هو الذي فطره، وزوده بالطاقات ورزقه فيدفع كل التماس دون الله لتزول الأحزان عن الأنفس وترجع إلى الله بقلوب وجلة للعلي القادر[1].

(١) انظر: لسيد قطب ، في ظلال القرآن، (٥/٢٦٥٨) .

المبحث التاسع

يورث الرزق ويجلب المنافع ويدفع المضار

إن من أهم الأمور التي تشغل الكثير من الناس هو الرزق وأهمهم هذا الأمر؛ لكن المتوكلين على الله تعالى أيقنوا أن الرزق مقسوم ومقدر من الله تعالى وعلموا أنه لاينقص من أرزاقهم شيئا قد كتبه الله لهم.

قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[١].

" فما من دابة في الأرض إلا يرزقها الله تعالى حيث كانت أماكنها بسوقها إليه"[٢].

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣ ﴾[٣].

فالله تعالى يكفي العبد مؤونته وحاجته بلاشك وبالتوكل على الله تجلب المنافع وتندفع المضار.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[٤].

---

(١) سورة هود، آية ٦ .

(٢) أبي السعود، إرشاد العقل، (٧/٣).

(٣) سورة الطلاق، الآية ٢-٣.

(٤) سورة آل عمران، آية ١٧٣.

فالله تعالى يكلأ ويحفظ ويحمي المؤمنين الصادقين لأنهم "لما توكلوا" على الله كفاهم ماأهمهم ورد عنهم بأس من أراد كيدهم ... مما أضمر لهم عدوهم"(١).

فالتوكل عبادة تورث الرزق وتندفع بها المضار ويسوق الرزق لأن في التوكل سعى في طلب الرزق النافع ودفع الضار وهذا ماكان من سلوك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والسعي في الرزق افتقار إلى الله تعالى دون غيره.

" فالتوكل فعل القلب فلاينافي حركة الجوارح، ولو كان كل كاسب ليس بمتوكل لكان الأنبياء غير متوكلين، فقد كان آدم عليه السلام حراثا، ونوح وزكريا نجارين، وإدريس خياطا، وابراهيم ولوط زارعين، وصالح تاجرا، وكان سليمان يعمل الخوص، وداود يصنع الدرع ويأكل ثمنه، وكان موسى وشعيب ومحمد رعاة صلوات الله عليهم أجمعين"(٢).

فلنتأمل ذلك حتى نكون في إطار قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣ ﴾(٣)، فكيفينا الضائقة من كل شيء ويجلب لنا مانحتاجه من المنافع.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٦٤٧/١).

(٢) ابن الجوزي، تلبيس ابليس، بيروت، دار الكتب العلمية، ص٢٨١.

(٣) سورة الطلاق، الآية ٢-٣.

المبحث العاشر

الدخول في كنف وكفاية الله تعالى

تقدم معنا أن التوكل على الله من أعظم الأعمال الخلقية التعبدية وتأتي ثمراته العظيمة ويجنيها المتوكل بعد تحقيقه العمل الرفيع الخالص الصائب.

قال تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾[١].

فإليه سبحانه وتعالى تنتهي القوة، والملك، والعظمة، والجاه، وهو حسب من لاذ به وحسب من والاه، فالمتوحد بالألوهية هو الكافي المعين، وهو مالك كل شيء وخالقه؛ لأنه رب العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات، وجميع الخلائق من السموات والأرضين ومافيهما، ومابينهما مقهورون بقدرة الله، وعلمه محيط بكل شيء، وقدره نافذ في كل شيء وهو على كل شيء وكيل[٢].

فإذا علم المؤمن صفات خالقه تلك، فكيف لايلوذ به، ويدخل في كفايته أحد، ولن تكون الكفاية والحسب إلا لمن آمن، واتقى ، وكلما كان العبد حسن الظن بالله صادق التوكل عليه، فإن الله لايخيب أمله فيه ألبته.

" فالله تعالى شرع في بيان كفايته لنبيه محمد -ﷺ- في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[٣] في جميع أموره وحده أو مع أمور المؤمنين، أم في الأمور المتعلقة بالكفار كافة"[٤].

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٩.

(٢) انظر: لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٢/٦٢٧)؛ وللألوسي، روح المعاني، (١١-٥٣/١٢) ؛ ولسيد قطب، في ظلال القرآن، (١٧٤٣/٣) .

(٣) سورة الأنفال، آية: ٦٤ .

(٤) انظر: للألوسي، روح المعاني، (٩-٣٠/١٠).



فقد قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[١]، والمعنى "كل من يتق الله فيما نابه كفاه ما أهمه"[٢]، " وأخبر سبحانه أن كفايته لهم مقرونة بتوكلهم عليه، وأنه كاف من توكل عليه وحسبه، وجعل لكل عمل من أعمال البر، ومقام من مقاماته جزاء معلوما، وجعل نفسه جزاء المتوكل عليه. ـ فلننظر إلي هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل، ولم يجعله لغيره، وماهذا إلا دليل على أن التوكل من أقوى السبل عنده وأحبها إليه سبحانه، وليس كونه وكل الأمور إلى نفسه مناف لتوكل العبد عليه، بل هذا تحقيق كون الأمور كلها موكولة إلى نفسه سبحانه وتعالى"[٣].

وفي الحديث: " **عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: " إذا خرج الرجل من بيته فقال: بسم الله توكلت على الله ، لاحول ولاقوة إلا بالله، قال: يقال حينئذ: هديت وكفيت ووقيت فتتنحى له الشياطين، فيقول له شيطان آخر: كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي؟" "**[٤].

ففي الحديث درس لبداية أي عمل ونهاية أي عمل، فالتسمية بالله فيها الراحة ومن ثم التوكل عليه وتفويض الأمور إليه وتسليمها للخالق؛ لأن المؤمن وكل مخلوق على وجه الأرض وفي الكون ليس له لاحول ولاقوة.

وكذلك في الحديث درس في أن التوكل كما أنه قول باللسان هو اعتقاد وعمل وبهذا يكون التوكل هو هؤلاء جميعا اعتقاد، وعمل، وقول باللسان.

فصدق التوكل أن تثق في الله، وفيما عند الله، فإنه أعظم وأبقى مما لدى العبد في دنياه.

---

(١) سورة الطلاق، آية: ٣ .

(٢) انظر: للبغوي، معالم التنزيل، (٥/٤٠٢).

(٣) انظر: لابن القيم، مدارج السالكين، (٢/١٣٣-١٣٤).

(٤) سبق تخريجه، ص٧٥ .

فالآيات القرآنية التي تحدثت عن التوكل وكانت في صدد الكلام عنه تدعو رسول الأمة محمد -ﷺ- وجماعته المؤمنة الموحدة بتفويض الأمور كلها إلى الله وحده. قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[(١)].

يقول الإمام الطبري[(٢)] في تفسيره لهذه الآية " **وفوض إلى الله أمرك يامحمد، وثق به وحسبك الله قيما بأمرك وكيلا، وحفيظا بك**"[(٣)]، فالله تعالى عاصم وحسب كل من فوض أحواله وأعماله إليه.

فمن خلال هذه المعاني فالمتوكل داخل في كنف وحماية الله سبحانه وتعالى وذلك بعد أن يقدم الجهد من الأسباب التى أمر بها سبحانه، ويكمل الله تعالى للمتوكل كل مايعجز عنه، فنبي الأمة محمد -ﷺ- يوم هجرته، كيف كان آخذا بالأسباب الممكنة وأعد لكل أمر عدته، من الرفيق، ومن الدليل، ومكان الخفاء، ومن يأتي له بالزاد والأخبار، ومن يعفي على آثاره هو ورفيقه الصديق، ومع هذا فقد استطاع قومه أن يقفوا أمام مكانه، ولكن حماية وكفاية الرحمن فوق كل شيء، فالخوف ملك رفيقه حيث قال: " **لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا" فقال رسول الله: ماظنك ياأبا بكر باثنين الله ثالثهما**"[(٤)].

فهذا مثل تطبيقي لتوكل رسول الأمة محمد -ﷺ- ، يهدئ من روع صاحبه ويخفف عليه.

فالرسول الكريم فعل ماأمر به، وترك مالم يأمر به لربه، وراعيه، ومالكه وكالئه، وكافيه يدبره بما يشاء لقد فاض على قلب رسولنا من صدق التوجه واستغناء القلب بالله تعالى فشعر -ﷺ- وصاحبه بكفاية وكفالة الله لهما.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٣ .

(٢) محمد بن جرير الطبري، الإمام أبو جعفر ولد سنة ٢٢٤هـ وتوفي سنة ٣١٠هـ؛ طبقات المفسرين للسيوطي، ص٨٢.

(٣) انظر: جامع البيان، (١٥٧/٦).

(٤) صحيح البخاري (٥٥٦/٤) ح٣٦٥٣ كتاب فضائل أصحاب النبي؛ ومسلم (١٨٥٤/٤) ح٢٣٨١ كتاب فضائل الصحابة، واللفظ للبخاري .

قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[١].

فالله تعالى كاف عبده ومرشده ومسدده إلى طريق الحق والإيمان فإليه نفزع في أمورنا دون سواه، فهو الكافي سبحانه[٢].

وهناك معنى في تفسير ابن كثير[٣] هو " **أنه تعالى يكفي من عبده وتوكل عليه، فهو سبحانه منيع الجناب لايضام من استند إليه، ولجأ إلى بابه فإنه العزيز الذي لا أعز منه، ولا أشد انتقاما منه ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله -ﷺ-**"[٤].

" **فعن عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: كنت خلف رسول الله - ﷺ - يوما، فقال: " يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف** " "[٥].

---

(١) سورة الزمر، آية: ٣٦-٣٨.
(٢) انظر: للطبري، جامع البيان، (٦/٣٨٧-٣٨٨) .
(٣) عماد الدين أبوالفداء، إسماعيل بن عمرو بن كثير، ولد سنة ٧٠٠هـ وتوفي سنة ٧٧٤هـ؛ انظر: شذرات الذهب، (٦/٢٣١-٣٣٢).
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، (٤/٨٢).
(٥) الترمذي (٢٥١٦) واللفظ له وقال: هذ حديث حسن صحيح؛ وأحمد (١/٢٩٣-٣٠٣)، وقال الشيخ أحمد شاكر: صحيح (٤/٢٩٣) برقم (٢٧٦٣).

" فالله تعالى يكفي من عبده وتوكل عليه، فيدفع عنه الويلات والمصائب، ويعطيه جميع المرغوبات"[(١)].

هذا لمن اتصف بصفة العبودية الحقة له سبحانه، لأنه قد ثبت أنه تعالى عالم بجميع الأمور، قادر على كل الممكنات، غني عن كل الحاجات فهو تعالى عالم بحاجات العباد، وقادر على توفيرها، فالآية الكريمة من سورة الزمر دليل على أن الله يحمي نبيه -ﷺ- من السوء، ويكفيه وأتباعه الدين والدنيا.

فالمرء المؤمن يشتد عليه الأمر ويتناهى في العظم ويحصل اليأس من كشفه من جهة المخلوقين ويتعلق القلب بالله وحده وهذا هو حقيقة التوكل على الله، فإن الله يكفى من توكل عليه في أمره.

فالمؤمن يلتجئ ويلوذ بجناب الله تعالى، وقد علمنا رسولنا الكريم -ﷺ- بعض كلمات لها وقع عظيم عندما يلهج اللسان بها فقول حسبي الله ونعم الوكيل لها تأثير عظيم، في دفع الشر، وحصول الخير .

" فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد -ﷺ- حين قالوا: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[(٢)]"[(٣)].

" فالله تعالى يتجلى بصفات الكفاية والحسب، والقيام بمصالح العباد وسوق أرزاقهم إليهم، ودفع المصائب عنهم، ونصره لأوليائه، وحمايته لهم، ومعيته الخاصة لهم، انبعثت من العبد قوة التوكل عليه، والتفويض إليه والرضا به وبكل مايجريه على عبده، ويقيمه فيه مما يرضى به هو سبحانه، والتوكل معنى يلتئم من علم العبد

---

(١) انظر: لوهبه الزحيلي، التفسير المنير، ج١٢ (٢٣-٢٤/٩-١٠)؛ ولسعيد حوي، الأساس في التفسير، (٤٨٧٧/٩).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

(٣) صحيح البخاري، (٩٤٥) ح ٤٥٦٣.



بكفاية الله وحسن اختياره لعبده وثقته به ورضاه بما يفعله ويختاره له"[1].

فالعبد يقوم بما أمر به سبحانه من إخلاص واجتهاد، وتوكل، والله تعالى يقوم بما ضمنه له من الرزق والكفاية، ومن سعادة المرء أنه إذا توكل على الله كفاه الله سائر الأمور، ولكن إذا توكل العبد على غيره قطع الله عنه سائر الأمور، فالعز كل العز في التوكل على الله، والذل كل الذل في التوكل على المخلوقين، فينبغي إظهار الفقر إلى الله تعالى بطلب المعونة على مايزاوله من الأمور، ولابد أن يكون هذا حال الخلق من المؤمنين، فما شاء الله كان، ومالم يشأ لم يكن ولو اتفقت عليه الخليقة.

---

(١) انظر: لابن القيم، الفوائد، ص ٩٢.

المبحث الحادي عشر

الفوز والغلبة

إن النعم كلها من الله وحده والمتوكل على الله مؤيد من الله، وعلى قدر قوة توكل المرء على ربه وتجرده له، يكون مدد الله تعالى وعونه، والإمداد على قدر الاستعداد.

قال تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[١].

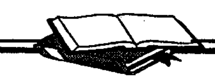
" فكل من أخلص، وخص الله بالتوكل عليه يستحق النصر من الله"[٢].

فالله تعالى لاغيره يعين، وينصر، ويمنع، والمؤمن يعمل وينتظر ويشاهد جزاءه إن عاجلا أو آجلا، فالتوكل على الله من لوازم الإيمان الصحيح الصادق كما علمنا وأشرنا إلى ذلك، وعلى معنى أن من صح إيمانه صح توكله على الله وحده، وأقبل على معارك القتال الذي أمر الله به، وهو واثق من أنه لن يصيبه إلا ماكتب الله له، وعلى يقين بأن الله ينصر أوليائه على أعدائه إذا اتخذوا كل الأسباب التي أمر الله بإتخاذها، وحققوا في أنفسهم ماأوجب عليهم من شروط، ونصر الله تعالى سرا وعلنا وهذا مانلمسه في قوله سبحانه:﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾[٣]، **" قد علمنا أن من الرسل من قتله أعداؤه، ومثلوا به كشعياء ويحيى بن زكريا وأشباههم، ومنهم من هم بقتله قومه، فكان أحسن أحواله أن يخلص منهم حتى فارقهم ناجيا بنفسه، كإبراهيم الذي هاجر إلى الشام من أرضه مفارقا لقومه، وعيسى الذي رفع إلى السماء إذ أراد قومه قتله، فأين النصرة التى أخبرنا أنه ينصرها رسله والمؤمنين في الحياة الدنيا؟ وهؤلاء أنبياؤه قد نالهم من قومهم ماقد علم، وماانصروا على من نالهم بما نالهم**

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦٠ .

(٢) انظر: للبيضاوي، أنوار التنزيل واسرار التأويل، ص ٩٤ .

(٣) سورة غافر، آية: ٥١ .



نالهم به"(١). وهنا يرد سؤال كيف كان نصر الله تعالى لرسله قديما؟ هل له أشكال أو أنواع غير النصر المألوف في الدنيا من النصر في الحرب والغلبة على الأعداء وفي هذا أورد صاحب تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن بعض أشكال وأنواع النصر هذه.

فأولا: إعلائه سبحانه رسله مع من كذب بهم وإظفارهم بهم حتى يقهر وهم غلبة، ويذلوهم بالظفر ذلة، كالذي فعل من ذلك بداود وسليمان فأعطاهما من الملك والسلطان ماقهروا به كل كافر، وكالذي فعل بمحمد -ﷺ- على من كذبه من قومه.

ثانيا : إنتقام الله لكل من حاد وشاق وذلك بإهلاكهم، وإنجاء الرسل ممن كذبهم، وعاداهم كالذي فعل تعالى ذكره بنوح وقومه من تفريق قومه وإنجائه منهم، وكالذي فعل بموسى وفرعون وقومه إذأهلكهم غرقا، ونجى موسى ومن آمن به من بني إسرائيل وغيرهم ونحو ذلك .

ثالثا : إنتقام الله من المكذبين في الحياة الدنيا كالذي فعل بقتلة شعياء أن سلط الله عليهم من سلط لقتلهم، وكفعله سبحانه بقتلة يحيى، بأن سلط على قتلته بختنصر حتى هلكوا به.

فهذه نصرة عظيمة، وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقر أعين من آذاهم(٢).

إذا التوكل على الله ينبغي الحرص عليه في جميع الأحوال من نصر، وخذلان، لأن من المعلوم عند المؤمن أن نتائج أعماله هي بيد الله، فهو القوة الفاعلة، وأن قوة الله هي الغالبة بعد اتخاذ العدة والعتاد، ونفض الأيدي من العواقب وتعليقها بقدر الله، وتقبله والرضا بما يأتي به الله فحال المؤمن إذا ادلهمت الأمور عليه أن يزداد توكلا على الله، وإيمانا به، والله عند حسن ظن عبده....، فوعد الله قاطع جازم بالنصر قريبا أم بعيدا، والمؤمن عليه أن لايقصر معنى النصر على صورة

---

(١) انظر: لابن جرير، (٤٣٥/٦)؛ وانظر لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (١٢٦/٤).

(٢) انظر: المصدر نفسه (٤٣٥/٦)؛ ولابن كثير، المصدر نفسه،(١٢٦/٤).



معينة حتى لايدخل الشيطان إلى النفس من هذا المدخل، ويفعل بها الأفاعيل، وينبغي أن يعرف أن صور النصر شتى وقد يلتبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة فمن هذه الصور أيضا مثلا أنبياء الله، ومنهم إبراهيم عليه السلام عندما ألقي في النار لم يرجع عن عقيدته ولاعن الدعوة إليها .. أكان هذا موقف نصر أم موقف هزيمة؟، مامن شك – في منطق العقيدة – أنه كان في قمة النصر وهو يلقى في النار ٠٠٠٠٠، لأنه عليه الصلاة والسلام قد كشف أوهامهم، وضلالهم – كما أنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار وأمام أعينهم، فهذه صورة، وتلك صورة، وكم من شهيد ماكان يملك أن ينصر عقيدته، ودعوته لو عاش ألف عام كما نصرها باستشهاده، لقد انتصر رسولنا وفاز وغلب في حياته، ونصره وغلبته ارتبطت بمعنى إقامة هذا الدين، وهذه العقيدة بحقيقتها الكاملة في الأرض إلى يومنا هذا وإلى أن تقوم الساعة.

فالفوز والغلبة لاتكون إلا باتجاه القلب إلى الله وحده، وبتوكله عليه وحده، وبالاطمئنان إلى قضاء الله فيه، وقدره عليه، وحين يصل إلى هذه الدرجة من الطمأنينة فسيكل الأمر لله، ويلتزم ويتلقى كل مايصيبه على أنه الخير، وذلك معنى من معاني النصر، النصر على الذات وهو نصر داخلي الذي لايتم نصر خارجي بدونه بحال من الأحوال[1].

كذلك من صور النصر اختيار الله تعالى لأحد البشر بالرسالة، والنبوة والتمكين في الأرض.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2].

فالله تعالى نصر يوسف على اخوته وعلى امرأة العزيز بأن كشف سبحانه لأبيه مؤامرة إخوته عليه، وكشف تدبير امرأة العزيز وكيدها له، فالله تعالى غالب على أمره يفعل مايشاء، لايغلبه شيء، ولايرد حكمه راد، فالغلب ليوسف عليه

---

(١) انظر: لسعيد حوى، الأساس في التفسير،(٩٣٩/٢)، و (٤٩٦٩/٩-٤٩٧١).

(٢) سورة يوسف، آية: ٢١.

السلام قد تجلى في أن ملك خزائن الملك، وماأنعم الله به عليه بعد معاناته فخصه سبحانه بالنبوة والنجاة[١].

وجمع أبويه واخوته تحت جناحه وأمام ناظره يعولهم ويرعاهم، فوعد الله قاطع، وسنته جارية بنصر وفوز أنبيائه ورسله أئمة المتوكلين فهم حزب الله الغالبون، وإن خسروا بعض المواقف والمشاهد لحكمة يعلمها الله تعالى، ولكن الفوز حاصل، وإنما هو قدر يجريه الله تعالى لمن اتصف أنه من جند الله، ومن كانت أحواله مستقيمة فليبشر بالغلبة والنصر المؤزر العزيز. قال تعالى في هذا المعنى السابق:﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾[٢].

فهذه ظاهرة عامة ملحوظة في جميع بقاع الأرض، في جميع العصور، وإن طال الزمان أم قصر، وهي كذلك متحققة في كل دعوة، يخلص فيها الجند، ويتجرد لها الدعاة، إنها غالبة منصورة مهما وضعت في سبيلها العوائق، وقامت في طريقها العراقيل، فها هي أفغانستان ، البوسنة والهرسك، كوسوفا، وستأتي الشيشان في الطريق بالفوز والغلبة والنصر بإذن الله مهما رصد لها الباطل من قوى الحديد والنار والغازات السامة، وقوى الدعاية والافتراء، وقوى الحرب والمقاومة وماهي إلا معارك تختلف نتائجها فيوم لك، ويوم عليك، ولكن ينتهي اليوم الذي لجند الله، وحزبه بالوعد الذي وعده لهم ولرسله الذي لايخلف ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقه، الوعد بالنصر والغلبة، والتمكين هذا الوعد وإن طال حدوثه، فهو من سنن الله الكونية الماضية، كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دورانها المنتظمة، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء ولكنها مرهونة بتقدير الله، يحققها حين يشاء، ومتى يشاء ليمتحن ويبتلي حزبه، تبطيء آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة، ولكنها لاتخلف أبدا ولاتتخلف، وقد تتحقق في صورة لايدركها البشر؛ لأنهم يطلبون

---

(١) انظر: لابن الجوزي، زاد المسير، (٤/١٩٩-٢٤٥).

(٢) سورة الصافات، آية: ١٧١-١٧٢-١٧٣.

المألوف من صور النصر والغلبة، ولايدركون تحقق السنة في صورة جديدة إلا بعد حين .

فما نراه من قوى الحرب ضد المسلمين، وضدمن يقول لا إله إلا الله إلا نصر للمسلمين عامة فهم لايقومون بهذه الحرب إلا من خوفهم من المسلمين والإسلام، ولأنهم يعلمون علما يقينا أنهم منصورون، وأن مايقومون به من محاولات للفتك بالإسلام والمسلمين واستنزاف الأموال والأنفس، ومكرهم لاطائل من ورائه؛ لأن مكر الله اشد وأبقى"[1].

فالمؤمنون جميعهم يريدون صورة معينة من صور النصر والغلبة، ولكن الله تعالى يريد لهم الأكمل والأبقى من النصر والفوز فمثلا أراد المؤمنون في غزوة بدر أن تكون العير لهم، ولكن أراد الله لهم أن تفوتهم تلك العير والقافلة الرابحة الهينة، ويقابلوا النفير ويقاتلوا الطائفة ذات الشوكة فكان ماأراد الله من الخير للإسلام وللمسلمين، فنصر وغلب القلة على الكثرة، والحق على الباطل ، وكان هذا هو النصر الذي بقى لجند الله ولدعوته على مدى الأيام.

قد يقسو البلاء ويعظم ولكن يهيء الله تعالى النصر في مجال أوسع وفي زمن أطول فالمؤمن المتوكل يعلم أن الله حكيم في مايدبره رحيم في أفعاله ولن تكون ثمار التوكل مجدية نافعة إلا باستقامة العبد وصلاحه توحيده وذلك بجمع علم القلب وعمله فالتوكل على الله من أقوى الأسباب في استجلاب المنافع ودفع المضار **"فإنه لايستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده، بل حقيقة التوكل توحيد القلب، فما دامت فيه علائق الشرك فتوكله معلول مدخول وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل"**[2].

فهذه الثمرة النافعة هي من ثمار شجرة التوكل على الله، فلعلها تكون حافزا قويا للاعتماد والاستعانة، وللجوء للحي القيوم الفرد الأحد الصمد في كل الأمور والأحوال .

---

(١) انظر: لسيد قطب، في ظلال القرآن، (٥/٣٠٠٢).

(٢) انظر: لابن القيم، مدراج السالكين، (٢/١٢٠).

المبحث الثاني عشر

التسليم للقضاء والقدر

إن من أعظم الثمرات التي يجنيها المتوكل على الله سبحانه هو التسليم للقضاء والقدر، فيجب الإيمان بقضاء الله وقدره، فلايتم إيمان العبد حتى يؤمن بقضاء الله وقدره، فجميع مايجرى في الآفاق وفي الأنفس من خير أو شر فهو مقدر من الله تعالى ومكتوب وبإرادة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[1].

فالله تعالى فعال لما يريد وليس شيء يخرج عن تقديره ولايصدر إلا عن تدبيره فخلق الخلق وأفعالهم وقدر أرزاقهم وله حكمة في قضائه سبحانه فعلينا أن نؤمن بذلك.

فالدين كله علم بالحق وعمل به، والعمل لابد فيه من اليقين والتوكل والرضا والتسليم للقضاء والقدر ولن يذوق المؤمن طعم الإيمان إلا إذا سلم ورضي بالقضاء والقدر. عن العباس بن عبدالمطلب قال: قال النبي -ﷺ-: " ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا"[2].

فالتسليم للقضاء والقدر والتوكل مخرجهما واحد ألا وهو القلب ولكن التسليم للقضاء والقدر ثمرة من ثمار التوكل على الله .

فالمؤمن المتوكل على الله يعلم أنه لاحول له ولاقوة إلا بالله تعالى ويسلم بأقدار الله تعالى فلا يقلق بفوات المحبوب أو حصول المكروه فكله بقدر الله.

---

(١) سورة الفرقان، آية ٢ .

(٢) صحيح مسلم، ٣٤ كتاب الإيمان.

قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾[١].

ففي الآية إخبار من الله تعالى عن قدره السابق في خلقه وأردف ذلك بتهوين المصائب على المؤمنين حتى يكون لهم الإطمئنان[٢].

إن عقيدة التسليم بالقضاء والقدر ترتبط ارتباط وثيق بخلق وعقيدة التوكل؛ لأن العقيدة الصحيحة في قضاء الله وقدره المستندة على الأدلة الشرعية تدفع المؤمن للعمل في سبيل مرضاة ربه مجاهدا في سبيله، يقول الحق، ولايبالي بأحد، لايخاف في الله لومة لائم لإيمانه الجازم أن ماأصابه لم يكن ليخطئه، وماأخطأه لم يكن ليصيبه، وبهذا الإيمان انطلق سلف الأمة الإسلامية، وشحنت نفوسهم على الإقدام لفتح البلدان، ينشرون الإسلام والقرآن في ربوع الأمم، فكان إيمانهم بالقضاء والقدر دافعا لهم إلى العمل المستمر في نشر دين الله، فلايقلقون لحصول مكروه أو فوات المنشود؛ لأن ذلك بقدر الله الذي له ملك السموات والأرض، وهو سبحانه فعال لما يريد، ولايكون شيء إلا بإرادته، ومشيئته خالق الخلق، وأفعالهم، ومقدر أرزاقهم وآجالهم.

قال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[٤].

---

(١) سورة الحديد، الآية ٢٢-٢٣.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٤٨٩/٤).

(٣) سورة الأنعام، آية: ٣٨ .

(٤) سورة القمر، آية: ٤٩ .

فـالمرء يرضـى بقدر وقضـاء الله وذلـك مـن تمـام الرضـا بربوبيتـه سـبحانه وتعـالى، فمـن لـم يـرض ويسـلم لقـدر الله وقضـائـه فكأنمـا رفـض ربوبيـة الله تعـالى وعصاها، والتسليم هو سرور بمر القضاء، مـع ارتفـاع الجزع فـي أي مقدر كـان، ورفع السخط بطيب نفس(١).

ففي التوكل على الله استغناء عن الناس بطلب العمل والتسليم لقدرة الله على إنجاز كل مايريد وفوق مايريد(٢).

فالمؤمن يمضي على الحقيقة التي علمـها وعرفـها مـن أن الكمـال الأعلـى لله تعالى، وأن كـل عمـل لايحـدث ولايقـدر لـه إلا ولـه حكمـة إلاهيـة، وإذا غـابت عنـه الحكمـة الإلهيـة فـي أمـر مـن الأمـور عـرف المؤمـن جهلــه أمـام علـم الله وتـرك الاعتراض والتسخط فكل من آمـن أن الله خلـق كـل شـيء بقـدر نـراه حريصـا علـى معرفة أقدار الخير ليدفع بها أقدار الشر، بهمة ويقيـن وسـرعة عمـل فـهو يدفـع قـدر الجوع بقدر الطعام، وقدر المرض بقدر الدواء، وقدر الفقـر بقـدر السـعي فـي طلـب الرزق، فهذه الأعمال تـؤدي بصاحبـها إلـى القناعـة وعـدم الأسـى لمـا يفوتـه، وإلـي التحمل والصبر والتسليم والمثابرة.

فمـن آمـن بقـدر الله سبحانه عمـل علـى قـدر همتـه واسـتطاعته فـلا يأسـى علـى مافاتـه ولايصيبـه اليـأس بسـبب كـثرة المصـائب، ولايفتخـر، أو يتكـبر مـهما أوتـي مـن حظـوظ مؤمنـا بقولـه ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾(٣).

---

(١) انظر: للجرجاني، التعريفات، ص١١١؛ وللمناوي، التوقيف على مـهمات التعـاريف، ص ١٧٨.

(٢) ابن مفلح، الآداب الشرعية والمنح المرعية، (القـاهرة: مؤسسـة قرطبـة، تـط ١٩٨٧م)، (٢٧٠/٣).

(٣) سورة الحديد، آية: ٢٢-٢٣.

والقرآن الكريم عرض حقائق جامعه بأدلة واضحة سهلة لاتعقيد فيها ولاغموض من أوامر ونواه، أخلاق، وآداب، وقصص، وغزوات، وأحكام.

فالمؤمن يقف عند كل عرض منها وهو خاشع، متأمل يخرج من هذا التأمل والخشوع بإيمان يشرق على جوانب النفس كلها فتنبت عقيدة تنفذ إلى العقل، وتطمئنه، وإلى القلب فتهزه وإلى الإرادة فتدفعها وتوجهها للعمل طائعة راضية، مستسلمه،متوكلة تشعر بوجود القوة الإلهية معه،ويلجأ إليها عند الشدة تلك القوة التي تنقذه من الأزمات، فالمؤمن يشحن نفسه ويملؤها بالإيمان واليقين والثقة في الله.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾[1].

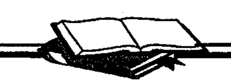
ولنأخذ مثالا على التسليم بالقضاء والقدر وشحذ الهمم وأثر التوكل عليهما في المؤمن الذي لاحقه الاضطهاد، والتعذيب الجسدي والنفسي وازداد عنفا وشراسة عند وفاة سنديه العاطفي، والاجتماعي، وكأن الله أراد لهذه النفس المؤمنة أن تستعد للفجر القادم، فجر الإسلام الذي وضع خطواته رسولنا -ﷺ- في الدرب صوب المدينة، كان يعلم عليه الصلاة والسلام أن عمل الإنسان لايستقيم إلا بصياغة العمل وانسجامه مع قدر الله وقضائه، والتناغم بينهما فبدون هذا التواصل لن تكون هناك حركة ولاعمل جاد، ولامصير عظيم، فالرسول -ﷺ- يخطط، ويضع الضمانات، ويهيء الإمكانات لنجاح العمل بين الأفراد والجماعات، فالرسول هاجر إلى المدينة بعد أن خرج من الطائف، وصد صدا عنيفا، لكنه لم ييأس، لأنه يعلم يقينا أن الخاتمة ستكون له، فقط إذا استمر على بذل جهده لتخطيط دولة ستعقب انتصارا[2].

خرج ورفيق دربه معا يستكملان الخطة ويضعان الأسباب، ويتنزل وتتوالي الانتصارات مع بعض من الهزائم، ولكنها غير مؤثرة كثيرا، بل إنها كانت دافعا قويا للسير على النهج والخطة التي رسمها محمد -ﷺ- لأمته إن التواصل الرائع

---

(١) سورة الطلاق، آية: ٣ .

(٢) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، (القاهرة: المؤسسة العربية الحديثة، ١٩٦٤م)، ص١٢٨...؛ وانظر: لعماد الدين خليل، دراسة في السيرة، (بيروت: مؤسسة الرسالة، دار النفائس، تط التاسعة ١٤٠٤هـ) ص١٣٤-١٤٤ .



بين قضاء الله وقدره وإرادة وعمل المؤمن، وبين أن هدى الله وخطوات عباده الأبرار مكنت القادة المؤمنين من استكمال كل الأسباب التي منحهم الله إياها.

ففي تجربة الهجرة يتنزل النصر من الله، مرئيا محسوسا، ثلاث مرات، مرة عند مغادرته داره وقد أحاط أبناء المشركين بداره ليطيحوا برسول الله، ولكن لم تأت هذه اللحظة، فقد راح يقرأ رسول الله آيات من سورة يس وعبر هذا المانع والسد المنيع أغشى به الله أبصار المشركين.

ومرة ثانية عند الغار لقد رأى أبو بكر بأم عينيه نعال المشركين المطاردين تخفق عند أسفل الغار، فارتعد فرقا ليس على نفسه بل على رسوله الكريم ويجيء نصر الله تعالى بأن تطيش ألباب المشركين ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[١].

ومرة ثالثة في الطريق إلى المدينة فقد اقتفوا أثره (بسراقة ابن مالك) الذي خلبت لبه الجائزة التي رصدتها قريش لمن يأتي بالرسول حيا أو ميتا، فتعثر سراقه بفرسه وتمرغ بالتراب، كلما اقترب من هدفه مرة أو مرتين فيطلب الأمان من رجلين من جنود الله فأنى له مايريد؟، وقفل عائدا وكلما رأى أحدا يقتفي أثر رسول الله وصحبه رده قائلا: كفيت هذا الوجه، وذلك ماطلبه منه الرسول[٢].

فهجرة الرسول تعلمنا كيف يكون العمل مع القضاء والقدر، وهو المثل الأعلى في ذلك ، كذلك المؤمنون عليهم أن يكونوا كرسولهم -ﷺ- ، فأولوا الألباب لايغضون أعينهم ولايصرفون وجوههم عن الأدلة الواضحة ولايغلقون عقولهم عن تدبر آيات الله وأحاديث رسوله والنظر في أحوال الناس قياما وقعودا، وهذا لايتأتى إلا عن عقيدة صحيحة سليمة، وباطن سليم، وظاهر صالح.

---

(١) سورة التوبة، آية: ٤٠ .

(٢) انظر: عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، وانظر لعماد الدين خليل، دراسة في السيرة، ص ١٣٤-١٤٤.

فالإيمان بالله والتوكل عليه لهما أثرهما على التسليم بالقضاء والقدر وشحذهمم المؤمنين الصادقين فهما محطات تزود بالوقود الإيماني الذي يعين على السير لجميع الاتجاهات والطرق.

فالصحابة رضوان الله عليهم وعوا هذا وأدركوه، وتسابقوا لأجل الفوز بالدرجات العلى والمديح من الله ورسوله -ﷺ-﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[1]، نعم هذا الجزاء للمتوكلين فينبغي التمسك بهذا الحب، ونعمل على أن نكون أهلا لهذا الحب.

فليكن توكلنا مرضيا محبوبا لامسخوطا مبغوضا حتى تكون المصلحة والنفع العام للفرد والمجتمع .

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٩ .



الفصل السابع

التوكل على الله وأثره في تزكية الفرد والمجتمع

وفيـــه :

تمهيد .
المبحث الأول: أثر التوكل على الله في تزكية الفرد .
المبحث الثاني: أثر التوكل على الله في تزكية المجتمع.

الفصل السابع

التوكل على الله وأثره في تزكية الفرد والمجتمع

التمهيد :

إن التزكية عملية تنمية الخيرات والبركات ... وبزكاء النفس وطهارتها يستحق العبد أوصافا محمودة في الدنيا وفي الآخرة بالأجر والمثوبة(١).

والتزكية ليست نوعا واحدا، ولاشكلا واحدا؛ لأن الناس مختلفون على وجه الأرض، فكان لكل جماعة نوع من التزكية التي تختلف أسسها وأهدافها حسب المقتضيات الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢).

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (٣).

إن من أكرمه الله واصطفاه بالحكم والنبوة هو من يرب الناس ويقوم بإصلاح وإتمام الأمر شيئا فشيئا، أو حكماء وعلماء وفقهاء معلمين(٤)، يأخذ بيدي الأفراد والجماعات إلى التربية الإيمانية الصادقة، ويحرروهم من عبودية الأهواء؛ ليعتصموا بعبودية الله وحده ويطهروا أعمالهم ويزكوا نفوسهم، فهذه هي مهمة الرسل الأساسية التزكية، وتعليم الكتاب والحكمة.

---

(١) انظر: الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص٢١٨.

(٢) سورة الجمعة، آية ٢ .

(٣) سورة آل عمران، آية: ٧٩ .

(٤) انظر: الطبري، جامع البيان، (٢/٢٨٠)؛ البغوي، معالم التنزيل، (١/٤٩٨).

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

" لقد تطوّل الله على المؤمنين حين أرسل فيهم رسولاً ... من أهل لسانهم... يقرأ عليهم آي كتابه وتنزيله ... ويطهرهم من ذنوبهم بإتباعهم إياه وطاعتهم له فيما أمرهم ونهاهم ويعلمهم كتاب الله الذي أنزل عليه، ويبين لهم تأويله ومعانيه ويعلمهم السنة التى سنها الله تعالى للمؤمنين على لسان رسوله -ﷺ- وبيانه لهم"[2].

فالتزكية في الإسلام هي تبليغ للشيء وتحديد للهدف يسير بها المربي شيئاً فشيئاً، وهي مستمرة لبلوغ الهدف الأعلى في حياة الناس جميعاً.

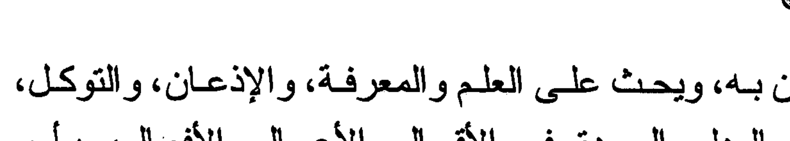
ونعلم يقيناً أن الدين الإسلامي بعقائده، وعباداته، وحقائقه، وأخلاقه وكل ماجاء من عند الله هو من أكبر الدلائل القاطعة الضرورية الدالة على أن الله هو الحق ورسوله حق ودينه حق، وماعارض ذلك هو الباطل؛ لأنه يدعو إلى الإيمان الصحيح بالله تعالى، وبأوصافه، وأسمائه، وبكل كتاب أنزله، وبكل رسول أرسله، وبكل حق أخبر الله به ورسوله، وذلك يوجب كمال الإخلاص والقيام بعبوديته، والتبري من الشرك كبيره وصغيره، فإذا نظرنا إلى أخلاق الإسلام رأيناها تحث على كل خلق جميل، وتحذر من كل خلق رذيل وتدعو إلى القيام بحقوق الله، وحقوق عباده، وبالمعاملة الحسنة، ومن تأمل هذا الدين رآه يدعو إلى الصلاح والرشد والفلاح، والتربية السليمة والتزكية السلوكية.

وكتاب الله وسنة رسوله كفيلان ببيان ذلك كفالة تامة، فالآيات والبراهين، والأمثال، والقصص، والحوادث التي تدل على أنه محال أن يحصل صلاح حقيقي إلا بالإسلام، وتطبيق تعاليمه، ولاسبيل للبشر إلى الخير والسعادة إلا بهذا الدين،

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٦٤.

(٢) الطبري، جامع البيان، (٢/٣٥٨).



يأمر بتوحيد الله، والإيمان به، ويحث على العلم والمعرفة، والإذعان، والتوكل، والإنابة لله تعالى، ويأمر بالعدل والصدق في الأقوال والأعمال والأفعال، ويأمر بالرضا بما قسمه، وأنزله الله، ويأمر بالنصح لله تعالى ولرسوله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم، ويأمر بكل معروف وينهى عن كل منكر في الأقوال والأفعال.

وقد أشرنا إلى أن التوكل على الله هو تفويض الأمر إلى الله تعالى وذلك باستيقان قدرته تعالى على قضاء الأمور، مع بذل الأسباب لقضاء هذه الحاجات، والتخلي عن التعلق بهذه الأسباب، والتعلق برب الأرباب، والمؤمن عندما يعيش يمارس هذه الحقائق الكبرى تطمئن نفسه، ولايقلق بكثرة الخوف والانشغال على رزقه، والإنسان المؤمن عندما يصل إلى هذا المستوى من الشعور، يدل هذا على مقدار إيمانه بصفة الرزاق، وهو مدخل رئيس لصفة التوكل؛ لأن أكثر مايشغل الناس في معاشهم قضية الرزق.

والتوكل على الله في الأعمال الصالحة من أشرف أنواع التوكل على الله إذ أن القائم فيها لايبتغي عرضا من أعراض الدنيا، بل هو يريد وجه الله تعالى، ولايمكن لإنسان أن يتوكل على الله حق توكله حتى يستشعر دوما رقابة الله عليه، مما يجعله يستحي أن يفوض أمره لغيره، وهو يؤمن بقدرته على قضاء حوائجه، فالمؤمن يجاهد نفسه، ويربيها على التحمل، وكسر الهوى، ومغالبة الشيطان .

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾[1].

" **علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادا، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصل إلى جنته، ومن ترك الجهاد فإنه من الهوى بحسب ماعطل من الجهاد**"[2].

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ٦٩ .

(٢) انظر: لابن القيم، الفوائد، ص٧٨ .

المبحث الأول

أثر التوكل على الله في تزكية الفرد

لقد اهتم القرآن الكريم، والسنة المطهرة بتزكية الإنسان تزكية جسدية عضوية، وعقلية وتزكية سلوكية أخلاقية، وقبل كل شيء تزكية الجانب الروحي في الإنسان.

لأن التزكية الإسلامية تقوم على عقيدة سليمة صحيحة وهي الإيمان بالله خالقا واحدا ومعبودا.

وقد ربط الإسلام بين جانب العقيدة منه، وبين الأخلاق والعبادات التي ارتضاها لأتباعه ربطا وثيقا، وذلك يبدو واضحا من خلال القرآن الكريم، والسنة الشريفة فقد ربط القرآن الكريم بين لفظ الإيمان والعمل الصالح في كثير من آياته نحو قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ... ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾[3]. وغيرها الكثير من الآيات.

كذلك ربط بين الإيمان وبين الأخلاق التعبدية والعملية من ذلك :

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥ .

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٧٧ .

(٣) سورة النساء، آية: ١٢٢.

قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(٣).

فجميع العبادات والأخلاق تمتاز بالشمول في علاقة الإنسان بخالقه، وعلاقة الإنسان بنفسه، ببني جنسه، بل ويمتد ليشمل علاقة الإنسان بكل عناصر الكون من حوله.

فالإسلام يزكي ويربي الفرد على العناية بالجانب الجسدي منذ القدم ومنذ عهد الرسول الكريم -ﷺ- وذلك بأن يتوكل على الله تعالى في وجوب حماية جسمه وعدم التعرض لجسمه للهلاك، وذلك عن طريق الغذاء والرياضة ففيهما قوة للجسم وقد وجه الإسلام لذلك .

" فعن عقبة بن عامر -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -ﷺ-، وهو على المنبر يقول: " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي "(٤).

---

(١) سورة المائدة، آية: ٩٣ .
(٢) سورة الحشر، آية: ١٨ .
(٣) سورة البقرة، آية: ٢٧٧.
(٤) مسلم (٣/١٥٢٢)، ح١٩١٧ كتاب الإمارة .



والتوكل على الله يزكي في المسلم القوة والعزيمة على العمل والسير على خطى ثابتة جادة (**فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ- قال: " إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة"**)[1].

وفي التوكل على الله تزكية عقلية وهو أنه إذا علم المؤمن أن في أموره كلها سواء منها الخير أو الشر له فيها أجر، سر لذلك وَعَقَلَهُ؛ لأنه يعلم أن المانع والمعطي للخير والشر هو الله فإذا وقر ذلك في القلب تقبل المؤمن كل ماتأتي به الأيام بصبر جميل، قال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾[2].

فالمؤمن لايخاف من المصائب والأقدار، إنما يخاف من الذنوب والسيئات "**فعن صهيب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ- " عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له**"[3].

والمؤمن بهذا يوجه فكره – في آيات الله – في كل مايحويه الكون ومايضمه ويعلم أن الله خلق مافي الكون له، وسخر مظاهر الكون للإنسان وهذا التسخير ليس معناه مجرد النظر السطحي وإنما يستلزم منه اكتشاف مافي الكون والعمل بجد واستعانة بالله وتوكلا عليه للتنقيب عن معادن وطاقات وخامات تفيد الإنسان في حياته ويسمو المسلم بإيمانه وإنجازاته العلمية والعملية ويرتقى بمجتمعه إلى أفضل وأحسن المراتب الدينية والدنيوية.

والتوكل على الله باعتباره من الآداب التي تميز سلوك الإنسان عن سلوك البهائم سواء كان في تحقيق حاجاته الطبيعية، أو علاقاته مع غيره من الكائنات الأخرى، فجعل الإسلام للتوكل ثوابا، وعقابا.

---

(١) صحيح البخاري، ص١٢ ، ح رقم(٣٩)، كتاب الإيمان، باب الدين يسر.

(٢) سورة النحل، آية: ١٢٧ .

(٣) سبق تخريجه، ص٢٥٥، ص ٢٩٥ .

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾(١).

فكل من توكل على الله فهو كافيه، ومن لم يتوكل عليه فهو كذلك سيجازيه. فيعاقب الناس لسوء توكلهم ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ﴾(٢)، لأنهم ظلموا أنفسهم أولا بكفرهم وشركهم بالله ومايتبعه ذلك من كفر وشرك في الأعمال والأقوال وتخبطهم في توكلهم على ربهم سبحانه بعدم توكلهم على ربهم، ويثيب الأبرار. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾(٣)، نعم الأبرار المؤمنين الذين عملوا بما أمروا نهوا عنه، توكلوا على الله وتركوا ماسواه، وأحسنوا ظنهم بالله تعالى .

وللتوكل على الله أثره البناء، وهو أن كل مؤمن يعمل العمل ويتقنه ويراقب الله تعالى فيه.

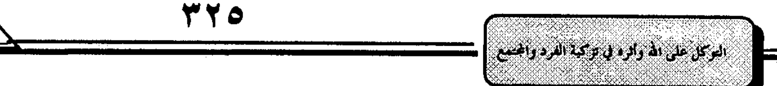
قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(٤).

فمراقبة الله للعبد وعلمه بذلك يجعله يبذل قصارى جهده ليتم عمله في أتم وأكمل صورة وبالتالي يأتي الكمال.

وقد أخبر الله أنه الصانع المتقن . قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾(٥).

---

(١) سورة الطلاق ، آية: ٣ .
(٢) سورة يونس، آية: ١٣ .
(٣) سورة الانفطار، آية: ١٣ .
(٤) سورة التوبة، آية: ١٠٥ .
(٥) سورة النمل، آية: ٨٨ .



فالله سبحانه أتقن كل ماخلق وأجاد الصنع، وأودع فيه من الحكمة ماأودع، ومع ذلك فهو عليم بما يفعل عباده من خير أو شر، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء؛ لأن اتقان الصنع أثر من آثار سعة العلم الذي بعلمه أتقن كل شيء هو خبير بما يفعل الخلق[١].

والتوكل على الله يزكي في المؤمن السلوك القويم العملي الواقعي، فالتسليم، والرضى، والإنابة والصدق في التوكل كلها أمور عملية وإن كانت قلبية، فهي تجسيد للسمو الروحي والنقاء النفسي والتقوى.

فالتوكل على الله هو خلق إسلامي لتبعية حتمية تلقائية لمحبة الله تعالى.

والتوكل على الله يزكي في المؤمن الالتزام والاستمرارية في العمل حتى ينال المنشود والمطلوب من الفوز والنجاح.

قد يخسر المؤمن ولكن بالاستمرار وبالإيمان النابع من القلب تعود نفس المؤمن للاستمرار في العمل والمنافسة فيه.

والتوكل على الله يزكي في المؤمن الشمولية والعمومية بمعنى أنه يتوكل على الله في أدق الأمور وأكبرها دينية أو دنيوية، اقتصادية، أو اجتماعية.

وقد أشرنا إلى أن التوكل له مجالات متعددة فهو إذا شامل في كل مجال وفي كل اتجاه .

فالتوكل على الله مجالاته متنوعة متعددة كما أشرنا إلى ذلك.

التوكل على الله يزكي العمل المستمر الدائم .

التوكل على الله فيه التنافس .

التوكل على الله فيه العبادة .

التوكل على الله فيه الصلة بين الإنسان وخالقه .

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان، (٥/٥٨٥)؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٣/٦٠٣).

التوكل على الله وسيلة لغاية نبيلة .

فمن هنا كان للتوكل أهمية عظيمة، فينبغي للفرد والمجتمع أن يتعودوا على فعله، فهو خلق تعبدي يتقرب به العبد المؤمن إلى الله تعالى، فلابد من مجاهدة، ورياضة النفس حتى تستطيع العمل بهذا الخلق العظيم، فالمتوكل على الله لابد له من الإخلاص إذ التوكل يربي كذلك الإخلاص لله تعالى، والاستقامة له، والثقة فيه، وكلة الأمر إليه، والإنابة والخضوع ، والتذلل للعلي القدير.

ورسولنا -ﷺ- المثل الأعلى، والقدوة الحسنة وقد ربى أصحابه ومن تبعهم ومن نهج على نهجهم تربية عظيمة لها أثارها الراسخة إلى يومنا هذا وتمسكنا بكتاب الله وسنة رسوله – عليه السلام – المثل الأعلى، فهو السلوك التطبيقي، وصحبه لهذا المنهج الإسلامي يحس ويشاهد .

" في واقع الأرض يرونه، وهو بشر تتمثل فيه هذه الصفات والطاقات الخيرة كلها، فيصدقون هذه المبادئ الحية، لأنهم يرونها رأي العين، لايقرأونها في كتاب، يرونها في بشر تتحرك لها نفوسهم، وتهفو لها مشاعرهم ويحاولون أن يقتبسوا قبسات من الرسول .... كل بقدر مايطيق أن يقتبس، وكل بقدر مايحتمل كيانه الصعود، لاييأسون، ولاينصرفون، ولايدعونه حلما مترفا لذيذا يطوف بالأفهام لأنهم يرونه واقعا يتحرك على الأرض، ويرونه سلوكا عمليا لا أماني في الخيال؛ لذلك كان رسول الله -ﷺ- أكبر قدوة للبشرية في تاريخها الطويل كان مربيا هاديا بسلوكه الشخصي قبل أن يكون بالكلام الذي ينطبق به، سواء في ذلك القرآن المنزل، وحديث الرسول -ﷺ-"[1].

ذلك أن الله قد رباه وأدبه فأحسن نماءه وتزكيته فكان المثل الأعلى في الكمال البشري.

---

(١) انظر: لمحمد قطب، منهج التربية الإسلامية، ص ١٨٣.

فهو أعظم المتوكلين، وسيدهم؛ لأنه على الإخلاص رباه تعالى﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴾[١].

هكذا كان رسول الأمة متوكلا مخلصا لله تعالى – ترك التوكل فيه معنى الإخلاص لله وحده، ولايطلب لعمله شاهدا سواه سبحانه يتبرى عن كل مادون الله[٢]، قال تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ... ﴾[٣]، كذلك المؤمن المتوكل يتلبس التوكل شخصيته وسلوكه ليبلغ أكمل درجة في الإيمان حتى تتكامل النية والفعل.

كذلك ربى التوكل في رسول الأمة محمد -ﷺ- معنى الاستعانة، فلم يطلب -ﷺ- العون من أحد إلا من ربه فالعبد أيا كان محتاج إلى الله في فعل المأمورات وترك المحظورات فلا معين على مصالح الدين والدنيا جميعا إلا الله عز وجل فهو المعان والمتفرد بالتدبير والضر والنفع والعطاء والمنع فيوجب هذا الاستعانة به وتفويض الأمر إليه طمأنينة به، وثقة به، ويقينا بكفايته[٤].

قال تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾[٥].

كذلك ربى التوكل في النبي الأمي لزوم الاستقامة ولزوم المنهج القويم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾[٦]، فاستقام في أقواله وأفعاله وأحواله ونياته، وبالتالي استقامت جوارحه فلم يلتفت إلى غير الله فصار على معرفة الله وعلى خشيته وإجلاله ومهابته ومحبته وإرادته ودعائه والتوكل عليه والإعراض عما سواه[٧].

---

(١) سورة الزمر، آية: ١٤ .

(٢) الجرجاني، التعريفات، ص١٣-١٤؛ وللراغب، مفردات ألفاظ القرآن، ص ١٥٤.

(٣) سورة الزمر، آية: ٣ .

(٤) انظر:لابن رجب، جامع العلوم والحكم، ص١٨٢؛ ولابن القيم ، مدارج السالكين، (٩٤/١).

(٥) الفاتحة، آية: ٥

(٦) الأحقاف، آية: ١٣.

(٧) انظر: لابن رجب، جامع العلوم والحكم، ص ١٩٣-١٩٤.

كذلك زكى في النبي الكريم الاعتصام والتمسك بعهد الله والوقوف بوعده سبحانه الذي لايخلفه ابدا.

فالتمسك بالقيام بما أمر به يفضي إلى حماية الله لعبده من أي سوء يقع به في أمور الدنيا أو الآخرة.

قال تعالى ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾(١).

كذلك ينمي التوكل في المؤمن الإنابة ويجعلها خالصة لربه في كل أمر من أموره فالله مرجعه في كل شيء(٢).

قال تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ ﴾(٣).

ويزكي وينمي التوكل المؤمن على التقوى، وحسن الظن بالله فلايحذر إلا الله ولايتوسل ولايدعو إلا ربه المتعال، فيفر إلى الله في سرائه وضرائه.

يرضى بالقليل ويقنع به يعمل ويكد بيقين إنه لن يأخذ من هذه الدنيا البالية إلا ماكتبه الله له .

" فعن سهل بن سعد الساعدي -رضي الله عنه- قال: أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- رجل فقال: يارسول الله، دلني على عمل، إذا أنا عملته، أحبني الله وأحبني الناس، فقال رسول -صلى الله عليه وسلم- : " إزهد في الدنيا يحبك الله، وازهد بما في أيدي الناس يحبوك "(٤).

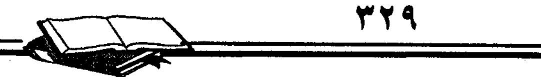
---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

(٢) للأصفهاني، المفردات، مادة (نوب)؛ وللجرجاني ، التعريفات، ص ٣٩.

(٣) سورة الزمر، آية: ٥٤ .

(٤) ابن ماجه (٤١٠٢) وصححه الألباني، صحيح ابن ماجه برقم (٣٣١٠).



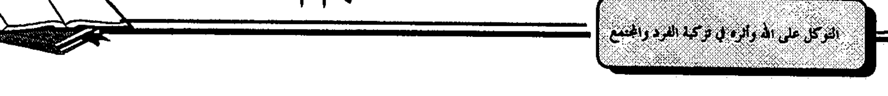
فالتوكل على الله يكبح جماح النفس إلى الشهوات، وعلى الانقطاع إلى الله بالكلية فيتصل القلب به إنابة وحبا وخوفا.

هكذا فالإيمان وحده هو الذي يوصل صاحبه بمصدر القوة الذي يملأ النفس ثقة حتى تفيض، وتتضح بالخير والزاد الكثير النافع دنيا ودين.

فالعقيدة الصحيحة يتبعها السلوك الصحيح ومن هذا الينبوع الدافيء ارتوت الحياة بمفاهيم الأخلاق التعبدية التي رسمها القرآن لتزكية النفس والمجتمع، وأصبحت الحرية الإنسانية، والمسئولية أمام الله، والحب العميق لله كلها معاني لايصدر عنها إلا الخلق القويم والسلوك المستقيم الذي أمر الله به ورسوله الكريم -ﷺ- فالإنابة والتضرع، والخضوع والاعتصام، والتوكل على الله عنوان صدق على صدق الإيمان في النفس الإنسانية وسلامة الاعتقاد في الله، وبدون هذا الإيمان تصبح الأخلاق التعبدية والسلوكية لفظا لامفهوم له ولاحقيقة.

وبهذا فالإسلام يزكي في النفس أخلاقا تجعل حياة الفرد أكثر استقامة وتجعل المجتمع أشد تماسكا، وتتحقق الأخلاق الفاضلة في سلوكنا، وتستمر وتنضبط الأعمال.

ويصبح الفرد ذا حضارة متجاوبة مع عقيدته ودينه سليما من كل الأمراض والانحرافات .



المبحث الثاني

أثر التوكل على الله في تزكية المجتمع

إن الإيمان قوة عاصمة عن المحرمات، دافعة إلى المكرمات من الأعمال والأقوال، وقد وضح صاحب الرسالة -ﷺ- أن الإيمان القوي يلد الخلق القوي في الفرد ومن ثم في المجتمع السوي في سلوكه وأخلاقه .

فبذلك يمضي ذاك المجتمع في غرس البذور ويتعهدها حتى تؤتي ثمارها، معتمدا على صدق الإيمان وتوابعه .

فمن ذلك البذر عقيدة وخلق التوكل على الله تعالى إذا غرس في المجتمع من خلال أفراده فيجب الا يغيب عن أي مجال من مجالات الحياة وعن أي عمل من أعمال المسلم.

فالبواعث التي تعرضنا لذكرها والتي كان لها أثر في تعميق التوكل على الله في نفوس المؤمنين، والموانع التي تضعفه والثمرات اليانعة الجدير بالمجتمع المؤمن أن يحافظ عليها ليسموا إلى الأفق ويكون مجتمعا قويا ملتزما بمنهج الله ورسوله -ﷺ-.

فانطلق المجتمع المؤمن في عهد رسولنا الكريم -ﷺ- وأقدم على البلدان، ينشرون الإسلام في ربوع الأمم .

فالصحابة رضوان الله عليهم أدركوا في دواخلهم القلبية ماللتوكل من أثر اجتماعي يربطهم بالإيمان.

قال تعالى : ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٢٢.

وقال تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٢).

فبحسب توكل العبد يزيد الإيمان وينقص. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(٣).

فيظهر من خلال الآيات إرتباط التوكل بالإيمان ومن لوازمه وشروطه فالمجتمع المؤمن يوقن ويثق بالله تعالى ويتعلق بذلك قلبه فيطمئن ويسكن لقضاء الله وقدره وأحكامه وتدبيره، لأن كل شيء بيد الله من نفع وضر، فيتركون الأمر إليه سبحانه، فيزرع ذلك في نفوسهم القوة والسعادة التي يتغلبون بهما على مايتعرضون له من مصائب ومحن فيعتمدون على خالقهم المتصرف في الملك وحده يرغبون إليه، يلوذون بكنفه، يستنصرون به سبحانه، وبالتوكل على الله تزداد العزيمة وقوة الإرادة.

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾(٤).

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٦٠.
(٢) سورة المائدة، آية ٢٣ .
(٣) سورة الأنفال، آية ٢ .
(٤) سورة آل عمران، آية ١٥٩ .

ويظهر أثر التوكل على الله في المجتمع حين تقوى صلته بربه فيصبح ملتجأ إليه مستعينا به منيبا متسلما معتصما متمسكا بأوامر الله ملتزما بشريعة وسنة الرسول الكريم -ﷺ-.

وعلى هذا ترعرع وتربى ونمى مجتمع الصحابة ومن تبعهم فكانوا أهلا لحمل لواء الإسلام والدعوة إلى الله فكانت بهم الأمة المسلمة التي حققت صفات سامية وأخلاق عالية.

وبالتوكل على الله تحقق لهم القيادة والريادة ففتحوا مشارق الأرض ومغاربها وكان شعارهم "حسبنا الله ونعم الوكيل" فالإسلام يدعو إلى فضيلة أخلاقية وعقدية هامة في الحياة الاجتماعية ألا وهو التوكل الذي نحن بصدد ذكره فهو يجمع أمورا ذكرناها في تزكية الفرد فمتى ماتمسك بها الأفراد ساد في المجتمع الأمل والرجاء والرضا والصبر والعزيمة والقوة والفوز والغلبة يكونون يدا واحدة ضد أعدائهم.

قال تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١).

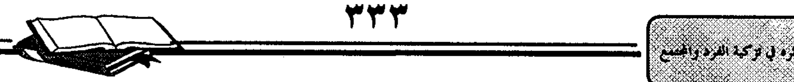
وبهذا لايستطيع المجتمع وقف المحن والمفظعات إلا الإلتفات إلى من له الحول والقوة والنصر .

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾(٢).

---

(١) سورة الأنفال، آية ٤٩ .

(٢) سورة التوبة، آية ٢٥ .



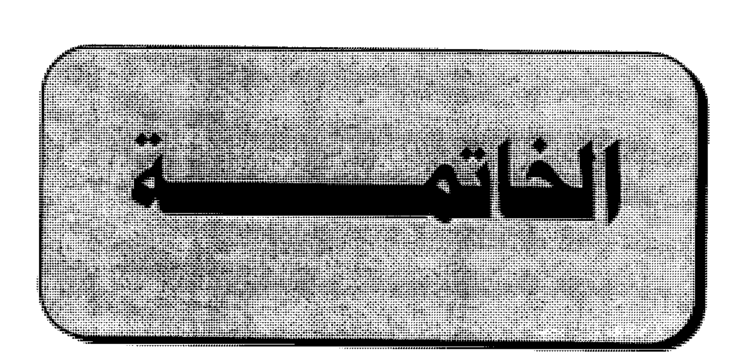
ضاقت عليهم الأرض على سعتها وولوا مدبرين وثبت -ﷺ- فخرجوا المؤمنين بدروس وعبر من هذه الغزوة(١) أن النصر بيده سبحانه ومشروعية الأخذ بالأسباب في كل الأعمال(٢).

وبهذا ينبغى أن نعي وندرك أن المجتمع يسموا بسموا الفرد بمدى تمسكه بالتزكية الأخلاقية و التنظيم الأخلاقي فمتى ماصلح الفرد صلح المجتمع .

---

(١) غزوة حنين .

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان، (٤/٩٥-٩٨).



الخاتمــة



الخاتمة

أحمدك اللهم حمدا يليق بجلال وجهك وعظيم سلطانك، الحمد لله عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، الحمد لله على نعمه وآلائه التي لاتعد ولاتحصى، الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأشكرك على توفيقك لي لإتمام هذا البحث، هذا مايسر الله تعالى كتابته في هذا الموضوع المهم الواسع، وقد كان في النية أشياء وأشياء ولكن لم يتسع لها الوقت، وربما كان في الإنسان خلق معاجلة المنية بتحقيق الأمنية، ومما يلي أهم نتائج البحث :

١- إن التوكل على الله خلق عظيم يجدر بنا الحفاظ عليه والتمسك به في كل مجال من مجالات حياتنا ويكون نبراس طريقنا للمضي في هذه الحياة الدنيا.

٢ - يتضح لنا من خلال هذا البحث أن التوكل على الله عقيدة وخلق في نفس الوقت للمؤمن .

٣ - التوكل على الله له فضل عظيم لمن التزم به وتأتي ثمراته عاجلا أو آجلا.

٤- أن التوكل على الله فيه بذل وسعي للعمل وفي التواكل تخاذل واهمال وعجز عن السعي .

٤- أن التوكل على الله خلق نبوي قديم جديد .

٥ - أن التوكل على الله خلق المؤمنين الأخيار .

٦ - لابد من الإيمان أن ما اصابنا لم يكن ليخطأنا وما اخطأنا لم يكن ليصيبنا.

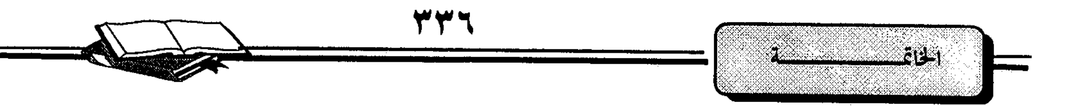
٧ - لابد من الإيمان بالقضاء والقدر والرضى بما يحل علينا من مصائب وويلات.

٨ - أن للتوكل على الله بواعث تحثنا عليه وتقربنا له .

١٠- كذلك للتوكل على الله موانع تبعدنا وتفقدنا الوصول إليه .

١١- أن للتوكل على الله ثمرات زاهية تضيء حياتنا باليمن والبركات .

١٢- أن للتوكل على الله آثاره التربوية على الفرد والمجتمع .



هذا وإن كان لي من رجاء أخير فهو التأكيد على موضوعات القرآن الكريم التي لازالت تفتقر إلى العناية والرعاية فحري بالمربين أن يلتفتوا ويلفتوا نظر طلاب العلم إلى ذلك، وأن مثل هذا الموضوع لاتكفي فيه القراءة العابرة، وإنما يحتاج إلى القراءة المتكررة الجادة بعقل وقلب حاضرين، والله يؤتي الحكمة من يشاء، والله أسأل التوفيق والسداد وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.


الفهارس

الفهــــارس

١- فهرس الآيات القرآنية .
٢- فهرس الأحاديث النبوية.
٣- فهرس الأعلام.
٤- فهرس المصادر والمراجع .
٥- فهرس المحتويات .





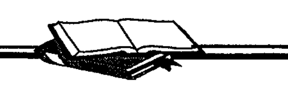
فهرس الآيات القرآنية



فهرس الآيات القرآنية













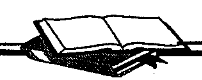









فهرس الأحاديث



فهرس الأحاديث الشريفة

طرف الحديـــث	رقم الصفحة


فهرس الأعلام

فهرس الأعلام


فهرس المصادر والمراجع



فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

(أ)

١- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصرالدين أبي سعيد الشيرازي البيضاوي، دار الجيل، بدون تط.

٢- الإيمان وأثره في حياة الإنسان، حسن الترابي، بيروت. دار القلم، تط الأولى، ١٣٩٤هـ.

٣- الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي، القاهرة، مكتبة وهبه، تط الخامسة، ١٣٩٧هـ.

٤- إحياء علوم الدين، أبي حامد الغزالي.
القاهرة، دار الشعب، كتاب الشعب، بدون تط .

٥- اقتضاء العلم العمل، للخطيب البغدادي، تحقيق ناصر الدين الألباني.
الكويت، دار الأرقم ، بدون تط.

٦- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الجكني الشنقيطي.
بيروت، عالم الكتب، بدون تط.

٧- آداب النفوس، لعبدالله الحارث المحاسبي، دراسة وتحقيق عبدالقادر عطا.
بيروت، دار الجيل، تط ١٩٨٤م .

٨- الإيمان، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد الزبيدي.
بيروت، دار الكتاب العربي، تط الأولى، ١٤١٤هـ .

٩- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود.
بيروت، دار الفكر، بدون تط.

١٠- الأساس في التفسير، لسعيد حوى، القاهرة، دار السلام، تط الثانية ١٤٠٩هـ.

١١- أيسر التفاسير، وبهامشه نهر الخير على أيسر التفاسير، أبوبكر الجزائري، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، تط الثالثة ١٤١٨هـ.

١٢- أدب الدنيا والدين، للماوردي،تحقيق مصطفى السقا، بيروت، تط ١٩٧٨م.



١٣- الإمام الشافعي فقه السنة الأكبر، لعبدالغني الدقر، دمشق، دار القلم، تط ١٣٩٦هـ.
١٤- الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، القاهرة، مؤسسة قرطبة، تط ١٩٨٧م.
١٥- الأشباه والنظائر، للسيوطي، دار الحديث، بدون د، ت.
١٦- الأعلام، للزركلي، بيروت، دار العلم للملايين .

(ب)

١٧- البداية والنهاية، لابن كثير، بيروت، مكتبة المعارف، تط ١٩٧٩م .
١٨- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروزأبادي، بيروت، المكتبة العلمية المطورة من مطبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي بالقاهرة، تط ١٣٨٣هـ.
١٩- بدائع الفوائد، لابن القيم الجوزية، بيروت، دار الكتاب العربي، بدون تط.
٢٠- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، بيروت، دار الفكر، تط الثانية ١٣٩٨هـ.
٢١- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لمحمد الشوكاني، مصر، مطبعة السعادة، تط الأولى، ١٣٤٨هـ.

(ت)

٢٢- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، كتب هوامشه، وضبطه حسين زهران، بيروت، دار الفكر، تط ١٤٠٨هـ.
٢٣- تفسير المراغي، لأحمد مصطفى المراغي، بيروت، دار الفكر، بدون تط.
٢٤- تخريج أحاديث إحياء علوم الدين، العراقي، وابن السبكي، والزبيدي. إخراج: أبي عبدالله محمود الحداد، الرياض، دار العاصمة، تط ١٩٨٧م.
٢٥- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، حققه وضبطه وصححه:محمد النجار، بيروت، عالم الكتب، تط الثانية ١٤١٤هـ.
٢٦- تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، ضبط ومراجعة صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، تط الأولى ١٤١٥هـ.
٢٧- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، تونس، الدار التونسية، تط ١٩٨٤م.



٢٨- تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، بيروت، دار الفكر، تط الثانية بدون.
٢٩- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، المنذري، تحقيق مصطفى عمارة، بيروت، دار الكتب العلمية، تط ١٤٠٦هـ.
٣٠- التعريفات، للجرجاني، حققه إبراهيم الأبياري، بيروت، دار الكتاب العربي، تط الرابعة، ١٤١٨هـ.
٣١- تزكية النفوس وتربيتها كما يقررها علماء السلف، ابن رجب الحنبلي، ابن القيم، أبي حامد الغزالي، تحقيق ماجد بن أبي الليل، بيروت، دار القلم، تط الأولى ١٤٠٥هـ.
٣٢- تنبيه الغافلين وبهامشه بستان العارفين، لنصر بن محمد السمرقندي، بيروت، دار المعرفة للطباعة بدون تط .
٣٣- التلخيص، للذهبي، بيروت، دار المعرفة بدون تط.
٣٤- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، لوهبه الزحيلي، بيروت، دار الفكر المعاصر؛ ودمشق، دار الفكر، تط الأولى ١٤١١هـ.
٣٥- التسهيل لعلوم التنزيل، للكلبي، بيروت، دار الكتاب العربي، تط الرابعة، ١٤٠٣هـ.
٣٦- التوكل على الله، لابن أبي الدنيا، تحقيق مجدي إبراهيم، القاهرة، مكتبة القرآن، بدون تط.
٣٧- التوقيف على مهمات التعاريف، للحناوي، حققه عبدالحميد حمدان، القاهرة، تط ١٤١٠هـ، بدون د.
٣٨- تذكرة الحفاظ، للذهبي، بيروت، دار ١الكتب العلمية، بدون تط، د .
٣٩- تهذيب سيرة ابن هشام، لعبدالسلام هارون، القاهرة، المؤسسة العربية الحديثة، تط ١٩٦٤م، بدون .
٤٠- تيسير العزيز الحميد، شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبدالله ، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، بدون ت .

(ج)

٤١- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، هذبه وحققه وضبطه وعلق عليه الدكتور/بشار معروف – عصام الحرساني، بيروت، مؤسسة الرسالة، تط الأولى ١٤١٥هـ.



٤٢- الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، السيوطي، دار الفكر، بيروت، تط ١٤٠١هـ.
٤٣- جامع الأصول في أحاديث الرسول، لابن الأثير، تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط، ويوسف الشيخ، بيروت، دار الفكر، تط ١٤٠٣هـ.
٤٤- جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، المدينة المنورة، مكتبة طيبة، تط الأولى، ١٤٠٨هـ.
٤٥- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تحقيق أبواسحاق، طفيش بدون د، ت.
٤٦- جامع بيان العلم وفضله، لابن عبدالبر، دار الفتح، تط ١٩٧٨م.
٤٧- جمهرة أنساب العرب، لابن حزم، بدون، د، ت .

(ح)

٤٨- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم الأصبهاني، بيروت، دار الكتاب العربي، تط الثانية ١٣٨٧هـ.
٤٩- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، لابن قيم الجوزية، بيروت، دار الكتب العلمية، تط ١٩٨٣م.
٥٠- الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية، لعبدالرحمن السعدي.

(د)

٥١- ديوان الشافعي، للشافعي، جمعه وعلق عليه محمد الزعبي، بيروت، دار الجيل، تط الثالثة ١٣٩٢هـ.
٥٢- الدر المنثور في التفسير المأثور، للسيوطي، بيروت، دار الفكر، تط الثانية، ١٤٠٣هـ.
٥٣- الداء والدواء، لابن قيم الجوزية، تقديم محمد غازي، جده، دار المدني، تط ١٤٠٣هـ.
٥٤- دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، بيروت، مؤسسة الرسالة ودار النفائس، تط ٩ ١٤٠٦هـ.
٥٥- دليل الفالحين، شرح رياض الصالحين، محمد الأشعري المالكي، مصر، مطابع مكتبة الحلبي.

(ذ)

٥٦- ذم الهوى، لابن الجوزي، تحقيق مصطفى عبدالواحد، مراجعة محمد الغزالي، القاهرة، دار الكتب الحديثة، تط ١٣٨١هـ.

٥٧- ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي، بيروت، دار المعرفة.

(ر)

٥٨- الروح، لابن القيم، الرياض، دار الرشد بدون د، ت.

٥٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، تط الرابعة ١٤٠٥هـ.

٦٠- رياض الصالحين، للنووي، تحقيق عبدالعزيز رباح، والدقاق، راجعه: شعيب الأرناؤوط، دار المأمون للتراث، بدون تط.

(ز)

٦١- زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، بيروت، المكتب الإسلامي، تط الثالثة ١٤٠٤هـ.

(س)

٦٢- سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني، بيروت، المكتب الإسلامي، تط ٥، ١٤٠٥هـ.

٦٣- سنن أبي داود، مراجعة وضبط وتحقيق وتعليق محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت، دار الفكر، بدون ت.

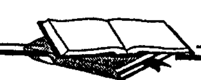
٦٤- سنن الترمذي، وهو الجامع الصحيح، لأبي عيسى الترمذي، تحقيق عبدالرحمن عثمان، ط ثانية، دار الفكر ١٩٦٤م.

٦٥- سنن ابن ماجه، أبوعبدالله محمد بن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت، دار إحياء التراث، تط ١٣٩٥هـ.

٦٦- سير أعلام النبلاء، للذهبي، بيروت، مؤسسة الرسالة .

(ش)

٦٧- شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، تحقيق جماعة من العلماء، خرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني، ومعه التوضيح بقلم زهير الشاويش، بيروت، المكتب الإسلامي، تط ١٤٠٣هـ.



٦٨- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، بيروت، دار الآفاق الجديدة، بدون د، ت، مطبعة القدسي، تط ١٣٥٠هـ.
٦٩- شعب الإيمان للبيهقي، تحقيق البسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، تط ١٩٩٠م .
٧٠- شرح السنة، للبغوي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وزهير الشاويش، بيروت، المكتب الإسلامي، تط ١٤٠٠هـ.

(ص)

٧١- صفة الصفوة، لأبوالفرج ابن الجوزي، حيدر آباد، الدكن، دائرة المعارف العثمانية، تط ١٣٩٢هـ.
٧٢- صيد الخاطر، لابن الجوزي، حققه علي الطنطاوي وناجي طنطاوي، سوريا، دار الفكر، تط ١٤٠٧هـ.
٧٣- صحيح البخاري، محمد إسماعيل البخاري، طبعة فريدة مصححة مرقمة مرتبة حسب المعجم المفهرس، الرياض، دار السلام، تط ١٤١٧هـ، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، بدون تط.
٧٤- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، تحقيق وتصحيح وترقيم وأعد وعلق عليه: محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت ـ لبنان، دار الكتب العلمية، بدون تط.

(ط)

٧٥- طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن قيم الجوزية، الرياض، المطابع الإسلامية.
٧٦- طبقات الصوفية، محمد السلمي، مصر، مطبعة دار التأليف.

(ع)

٧٧- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، الحسين الحلبي أحمد بن يوسف، تحقيق: محمد باسل، بيروت، دار الكتب العلمية، تط الأولى ١٤١٧هـ.
٧٨- العبودية ، ابن تيمية، بيروت، المكتب الإسلامي، تط ١٣٩٩هـ.
٧٩- علم الأخلاق الإسلامية، مقداد بالحسين، الرياض، دار عالم الكتب، تط الأولى، ١٤١٣هـ.
٨٠- العبادة في الإسلام، يوسف القرضاوي، بيروت، دار الإرشاد للطباعة، بدون تط.



(ف)

٨١- في ظل الشريعة الإسلامية، تحقق الأمن والحياة الكريمة، لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز، الرياض، دار إمام الدعوة، تط ١٤١ هـ.

٨١- في ظلال القرآن، سيد قطب، جدة، دار العلم للطباعة، تط ١٢، ١٤٠٦هـ.

٨٣- الفوائد، ابن قيم، تخريج وحواشي أحمد راتب عرموش، بيروت، دار النفائس، تط ١٤٠٦هـ.

٨٤ فتح القدير بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني، بيروت، دار الفكر، تط ١٤٠٣هـ.

٨٥- فتح الباري، شرح صحيح البخاري، لابن حجر، حققه ابن باز، رقم أحاديثه ورتبه محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت، دار الكتب العلمية.

(ق)

٨٦- القاموس المحيط، للفيروزآبادي، بيروت، مؤسسة الرسالة، تط ١٤١٣هـ.

(ك)

٨٧- كتاب التوحيد من سلسلة إحياء علوم الدين للغزالي، تحقيق وتهذيب زهير الكلبي، بيروت، دار الفكر.

٨٨- كتاب التوحيد وإخلاص العمل لوجه الله مع مقدمة عن قضية الدين والفلسفة،تحقيقو تقديم الدكتور محمد الجلينيد، تط الثانية ١٣٩٩هـ، بدون د.

٨٩- كتاب التوحيد، لابن رجب الحنبلي، تحقيق صبري شاهين، الرياض، دار القاسم، تط الأولى، ١٤١٥هـ.

٩٠- الكليات، معجم في المصطلحات والفروق الفردية، للكفوي أبي البقاء، قابله على نسخة خطية، عدنان درويش، ومحمد المصري، بيروت، مؤسسة الرسالة، تط الأولى ١٤١٢هـ.

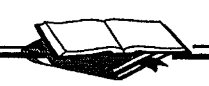
(ل)

٩١- لسان العرب، لابن منظور، بيروت، دار المعارف، بدون تط، بيروت، دار صادر، تط الثالثة، ١٤١٤هـ.

٩٢- لباب التأويل في معاني التنزيل، وبهامشه تفسير البغوي، لعلاء الدين علي ابن محمد الخازن، بيروت، دار الفكر، تط ١٣٩٩هـ.

(م)

٩٣- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية، بيروت، دار الكتب العلمية، تط ١٤٠٨هـ.
٩٤- مختصر منهاج القاصدين،للمقدسي،علق عليه شعيب وعبدالقادر الأرناؤود، دمشق، بيروت، دار البيان، تط ١٣٩٨هـ.
٩٥- مفاتيح الغيب، للإمام الرازي، بيروت، دار الفكر، بدون ت.
٩٦- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، بيروت، دار الفكر، بدون تط.
٩٧- مجلة الحرس الوطني، أحمد الجنيدل، (التوكل على الله ودعوى القعود والكسب)، عدد ١٢٢، ربيع الأول ١٤١٤هـ.
٩٨- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطيه، تحقيق: المجلس العلمي، المغرب، فاس بدون تط.
٩٩- موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، علي الهيثمي، بيروت، دار البشائر الإسلامية، تط ١٤٠٧هـ.
١٠٠- معجم مفردات ألفاظ القرآن، للأصفهاني.
١٠١- المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، الهند، حيدر آباد، الدكن.
١٠٢-المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، بيروت، دار المعرفة.
١٠٣- مفتاح السعادة ومصباح الزيادة في موضوعات العلوم، أحمد مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده، بيروت، دار الكتب العلمية، تط الأولى ١٤٠٥هـ.
١٠٤- معالم التنزيل في التفسير والتأويل، أبي محمد الحسين البغوي، بيروت، دار الفكر، تط ١٤٠٥هـ.
١٠٥- منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، بيروت، دار الشروق، بدون ت.
١٠٦- منهج القرآن في التربية، لمحمد شديد، بيروت، مؤسسة الرسالة بدون ت.
١٠٧ مجموع الفتاوى، لأحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد، تط الأولى ١٣٩٨هـ، بدون د .
١٠٨- مجلة المختار الإسلامي، سيد قطب، (حديث الشهيد سيد قطب وعلى إبراهيم يتوكلون)، القاهرة ٦٠٧ (١٩٧٩م).



١٠٩- محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين القاسمي، دقق وخرج وعلق عليه محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت، دار الفكر، تط ١٣٩٨هـ.
١١٠- مسند الإمام أحمد، شرحه ووضع فهارسه، أحمد شاكر، غير مكمل.
١١١- المستخلص في تزكية النفس، سعيد حوى، بيروت، دار عمار، بدون تط.
١١٢- معارج القبول، الحكمي، بيروت، دار الكتب العلمية، تط ١٤٠٣هـ.
١١٣- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد الفيومي، بيروت، دار الكتب العلمية، مصر، مطبعة الحلبي.
١١٤- المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، الغزالي أبي حامد، قبرص، تط ١٤٠٧هـ، بدون د .
١١٥- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: عبدالسلام هارون، القاهرة، تط ١٩٦٩م، بدون د .
١١٦- محاسبة النفس، ابن أبي الدنيا، بيروت، دار الكتب العلمية.

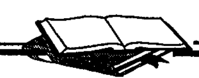
(و)

١١٧- وفيات الأعيان وأنباء أبناء زمان، لابن خلكان، بيروت، بدون د، ت.


فهرس الموضوعات



فهرس الموضوعات



الموضـــوع **رقم الصفحة**

الموضـــوع.. رقم الصفحة